من خطب المسجد الحرام

توجيهات وذكرى

تأليف

صالح بن عبد الله بن حميد

"المجموعة الرابعة"

دار التربية والتراث
مكة المكرمة
هاتف: ٥٥٦٥٩٨٠

مكتبة الضياء
جدة
هاتف: ٦٨٩٣٨٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

توجيهات وذكرى

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ.

دار التربية والتراث
مكة المكرمة
هاتف: ٥٥٦٥٩٨٠

مكتبة الضياء
جدة
هاتف: ٦٨٩٣٨٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن شر الشيطان وشركه.. من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد ضل وغوىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتح الله به قلوباً غلفاً، وأعيناً عميا، وآذاناً صُمّا، صلى الله عليه وآله وصحابته ومن سار على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين.

أما بعـد:

فهذه هي المجموعة الرابعة من (توجيهات وذكرى.. من خطب المسجد الحرام) وأسأل الله أن ينفعني بها وسابقتها وإخواني - وحسبي منهم دعوة صالحة ونصيحة صادقة - كما أسأله سبحانه أن يجعلها خالصة لوجهه موافقة لمرضاته وأن يسدد الجميع للعلم النافع والعمل الصالح إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

صالح بن عبدالله بن حميد

مكة المكرمة

الأربعاء ٢١/١٠/١٤١٨هـ



توحيد الله أولاً

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ الذي خلقنا لعبادتِه وتوحيدِه، ومنَّ علينا وتفضَّل بتسبيحِه وتحميدِه، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وعدَ الشاكرين بمزيدِه. وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، أفضلُ رسلِه وأكرمُ عبيدِه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ؛ فاتقوا اللهَ الذي خلقَكم، واستعينوا على طاعتِه بما رزقكم، فربُّكم جلَّتْ حكمتُه لم يخلقْكم هملاً، ولم يتركْ أمرَكم في هذه الحياةِ مُهملاً، بل خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيكم أحسنُ عملاً.

أيها المسلمون: إن بني الإنسانِ حين يَضلُّون عن سبيلِ اللهِ يتخبطون في فوضىٰ التديُّنِ، ويغرَقون في ألوانِ الشركِ وأوحالِ الجاهليةِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ـ ٣٢]. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

البشرُ عقولُهم قاصرةٌ عن أن تدركَ طريقَ الصلاحِ بمفردِها،

أو تستبينَ سبيلَ الرشادِ بذاتِها. إنها لا تستطيعُ أن تجلبَ لنفسِها نفعاً أو تدفعَ ضَراً.

لا يرتفعُ عن النفوسِ الشقاءُ، ولا يزولُ عن العقولِ الاضطرابُ، ولا ينزاحُ عن الصدورِ القلقُ والحرجُ إلا حين تُوقن البصائرُ، وتُسلِّم العقولُ بأنه سبحانه هو اللهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الجبارُ المتكبرُ له الملكُ كلُّه، وبيدِه الأمرُ كلُّه، وإليه يُرجعُ الأمرُ كلَّه؛ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

أيها الإخوة: إن إسلامَ الوجهِ للهِ وإفرادَه بالعبادةِ يرتقي بالمؤمنِ في خُلُقِه وتفكيرِه، يُنقذُه من زيغِ القلوبِ، وانحرافِ الأهواءِ، وظلماتِ الجهلِ، وأهاومِ الخرافةِ، ينقذُه من المحتالين والدَّجالين، وأحبارِ السوءِ ورهبانِه ممن يشترون بآياتِ اللهِ ثمناً قليلاً. التوحيدُ الخالصُ المخلِصُ يَحفظُ الإنسانَ من الانفعالاتِ بلا قيدٍ أو ضابطٍ.

أيها الإخوةُ: توحيدُ اللهِ هو العبوديةُ التامةُ له وحدَهُ سبحانه تحقيقاً لكلمةِ الحقِّ: لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله ﷺ: في لفظِها ومعناها والعملِ بمقتضاها، يقيمُ المسلمُ عليه حياتَه كلَّها؛ صلاتَه ونسكَه ومحياه ومماتَه.

توحيدٌ في الاعتقادِ، وتوحيدٌ في العبادةِ وتوحيدٌ في التشريع. توحيدٌ تُنقَّىٰ به القلوبُ والضمائرُ من الاعتقادِ في ألوهيةِ أحدٍ غيرِ اللهِ،

وتُنقَّىٰ به الجوارحُ والشعائرُ من أن تُصرف لأحدٍ غيرِ اللهِ، وتُنقَّىٰ به الأحكامُ والشرائعُ من أن تتلقاها من أحدٍ دونَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

التوحيدُ هو أولُ الدينِ وآخرُه وظاهرُه وباطنُه، وقطبُ رحاه، وذروةُ سنامه. قامتْ عليه الأدلةُ، ونادتْ عليه الشواهدُ، وأوضحتْه الآياتُ، وأثبتتْه البراهينُ، نصبتْ عليه القبلةُ، وأُسِّستْ عليه الملةُ، ووجبتْ به الذمةُ، وعُصمتْ به الأنفسُ، وانفصلتِ به دارُ الكفرِ عن دارِ الإسلامِ، وانقسم به الناسُ إلى سعيدٍ وشقيٍّ ومهتدٍ وغويٍّ.

أيها الإخوةُ: لقد كانتْ عنايةُ القرآن بتوحيدِ اللهِ عظيمةً فهو القضية الكبرىٰ، ومهمةُ رسلِ اللهِ الأولى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥] فالقرآن كلُّه حديثٌ عن التوحيدِ، وبيانِ حقيقته والدعوةِ إليه، وتعليقِ النجاةِ والسعادةِ في الدارين عليه. حديثٌ عن جزاءِ أهلِه وكرامتِهم على ربِّهم، كما أنه حديثٌ عن ضدِّه من الشركِ باللهِ وبيانِ حالِ أهلِه وسوءِ منقلبهم في الدنيا، وعذابِ الهونِ في الأخرىٰ؛ ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

والأوامرُ والنواهي ولزومُ الطاعاتِ وتركُ المحرماتِ هي حقوقُ التوحيدِ ومكملاتُه.

القرآن العظيمُ يخاطبُ الكفارَ بالتوحيدِ ليعرفوه ويؤمنوا به ويعتنقوه؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠ ـ ٥١].

وكلُّ نبيٍّ يقولُ لقومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] ويُخاطَبُ به المؤمنون ليزدادوا إيماناً، وليطمئنُّوا إلى تحقيق توحيدِهم، وليحذروا النقصَ فيه أو الخللَ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

ومن صفاتِ عبادِ الرحمنِ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ومن نعوتِ أهلِ الإيمانِ الموعودين بالتمكينِ في الأرضِ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

بل لقد خاطبَ اللهُ أنبياءه ورسلَه بنبذِ الشركِ والبراءةِ من أهلِه والإعراضِ عنه وعنهم فقال عز وتبارك: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا..﴾ [الحج: ٢٦] وقال عز وجل: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥ ـ ٦٦] ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦] ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]

﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

قال أهلُ العلمِ رحمهم الله تعليقاً على هذه الآياتِ وأمثالِها: فإذا كان يُنهىٰ عن الشركِ من لا يمكنُ أن يباشرَه فكيفَ بمن عداه؟؟ ولقد قال إمامُ الحنفاءِ إبراهيمُ عليه السلامُ: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ ﴾[إبراهيم: ٣٥-٣٦] قال إبراهيمُ التيمي: ومن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيم؟؟.

هذا بعضُ خبرِ القرآن.

أما السنةِ فإن بعثةَ رسولِ الله ﷺ ورسالتَه وسيرتَه من أولِها إلى آخرِها؛ مكيِّها ومدنيِّها، حضرِها وسفرِها، سلمِها وحربِها، كلُّها في التوحيدِ منذ أن أُمرَ بالإنذارِ المطلقِ في سورةِ المدثرِ ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ ﴾ [المدثر: ٥] إلى الأمرِ بإنذارِ العشيرةِ ﴿ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٣- ٢١٤] إلى الأمرِ بالصدعِ بالدعوةِ ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر: ٩٤] ثم من بعده الأمرُ بالهجرةِ ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة: ٤٠] والإذنِ بالقتالِ والجهادِ: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ﴾ [الحج: ٤٠]. إلى فتح مكة حين كسرت الأصنام ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ ﴾ [الإسراء: ٨١] إلى الإعلام بدنوِّ الحُمام ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ ﴾[النصر: ٣]. وقال وهو في مرضِ موتِه: «**لعنة الله على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة وعبدالله بن عباس أخرجه البخاري (١/ ٦٣٣ =

لـم تخـلُ فتـرةٌ مـن هـذه الفتـراتِ البتـةَ مـن إعـلانِ التـوحيـدِ وشواهدِه ومحاربةِ الشركِ وظواهرِه، ويكادُ ينحصرُ عرضُ البعثةِ كلِّها في ذلك؛ فما تركَ عليه الصلاةُ والسلامُ تقريرَ التوحيدِ وهو وحيدٌ، ولا ذهلَ عنه وهو محصورٌ في الشِّعبِ، ولا انصرف عنه وهو في مسالكِ الهجرةِ والعدوُّ مشتدٌّ في طلبِه، ولا قطعَ الحديثَ عنه وأمرُه ظاهرٌ في المدينةِ بين أنصارِه وأعوانِه، ولا أغلقَ بابَ الخوضِ فيه بعد فتح مكةِ الفتحَ المبين، ولا اكتفىٰ بطلبِ البيعةِ على القتالِ عن تكرارِ عرضِ البيعةِ على التوحيدِ ونبذِ الشركِ؛ فهذه سيرتُه المدونةُ وأحاديثُه الصحيحةُ، والقرآنُ من وراءِ ذلك كلِّه.

من أجل هذا كان التوحيدُ أولاً ولابد أن يكون أولاً في كلِّ عصرٍ وفي كلِّ مصرٍ.

أما أركانُ الإسلامِ الخمسةُ الكبرىٰ ومعالمُه العظمىٰ فُشرعتْ لِتعلنَ التوحيدَ وتجسِّدَه وتقررَه وتؤكدَه تذكيراً وتطبيقاً، واقراراً وعملاً. فالشهادتان اثباتٌ للواحدانيةِ، ونفيٌ للتعددِ، وحصرٌ للتشريعِ والمتابعةِ في شخصِ المرسَلِ المبلِّغِ محمدٍ ﷺ. والصلاةُ مفتتحةٌ بالتكبيرِ المنبىءِ عن طرحِ كلِّ من سوى اللهِ عزَّ شأنهُ واستصغارِ كلِّ مَنْ دون الله عزَّ وجلَّ. ناهيك بقرآن الصلاةِ وأذكارِها في منازلِ إياك نعبدُ وإياك نستعين.

أما الزكاةُ فهي قرينةُ الصلاةِ في التعبدِ والاعترافِ للربِّ بجليلِ

= ـ ح٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (١/ ٣٧٧ ـ ح٥٣١).

النعم واخراجُها خالصةً لله طيبةً بها النفسُ براءةً من عبادةِ الدرهم والدينار: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧].

أما الصيامُ الحقُّ فهو الذي يدعُ الصائمُ فيه طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلِ ربِّه ومولاه.

أما الحجُّ فشعارُ الأمةِ كلِّها في هذه البطاحِ والبقاعِ فهو التلبيةُ بالتوحيدِ ونفيُ الشريكِ.

يقولُ أبواسحاق الشاطبي رحمه الله في ذلك كلِّه: (نحن نعلمُ أن النطقَ بالشهادتين والصلاةَ وغيرَهما من العباداتِ إنما شُرعتْ للتقربِ إلى اللهِ والرجوعِ إليه وإفرادِه بالتعظيمِ والإجلالِ، ومطابقةِ القلبِ للجوارحِ من الطاعةِ والانقيادِ).

وفي مأثورِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ في الوردِ اليوميِّ الذي يجعلُه المسلمُ في حزبِه: «**أصبحنا على فطرةِ الإسلامِ وكلمةِ الإخلاصِ ودينِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ وملةِ أبينا إبراهيمَ حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»[1]. وفي الدعاءِ النبويِّ: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك أن أُشركَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفرُك ما لا أعلمُ**»[2].

عبادَ اللهِ: ما كانت هذه الأدلةُ المتكاثرةُ، والحُججُ المتظافرةُ،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٠٦)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني رجالهما رجال الصحيح انظر المجمع (١٠/١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٤٠٣) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان انظر المجمع (١٠/٢٢٣، ٢٢٤).

والبراهينُ المتوافرة، إلا لعظمِ الأمرِ، وخطرِ شأنِ القضيةِ، وشدةِ الخوفِ على الناسِ من الانحرافِ والقلوبِ من الزيغ. ولماذا لا يُخافُ عليهم؟ والشياطين ما فتئتْ تترصدُ لبني آدمَ تجتالُهم وتُغويهم؟؟.

وفي الحديثِ القدسيِّ: «**خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمَرَتهمْ أن يُشركوا بي ما لم أنَزِّلْ به سلطاناً**»[1]. أخرجه مسلم من حديث عياضٍ المجاشعيِّ.

كيف لا يكونُ الخوفُ والرسولُ ﷺ خاطبَ أصحابَه الصفوةَ المختارةَ من الأمةِ: «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»[2]؟.

ويزدادُ الخوفُ حين يتأمَّلُ المتأملُ قولَه ﷺ: «**الشركُ في أمتي أخفىٰ من دبيبِ النملِ**»[3] بل لقد أخبرَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**أن فئاماً من الأمةِ تعبدُ الأوثانَ وقبائلَ تلحقُ بالمشركين**»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٧ ـ ح٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (١/ ١٠٢) وقال أيضا (١٠/ ٢٢٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن شبيب بن خالد وهو ثقة.
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان انظر المجمع (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤).
(٤) أخرجه أبوداود (٤/ ٩٧، ٩٨ ـ ح٤٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٣٢ ـ ح٢٢١٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤ ـ ح٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤).

والحافظُ ابن كثيرٍ رحمه الله يعلّق على قولِ اللهِ تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٨] قال رحمه الله: فيه تشديدٌ لأمرِ الشركِ، وتغليظٌ لشأنِه، وتعظيمٌ لملابستِه.

لماذا ـ يا عبادَ اللهِ ـ لا يُخافُ الخللُ في التوحيدِ والنقصُ في صدقِ التعبدِ والتعلقِ؟ لماذا لا يُحذرُ من الشركِ وأنواعِه وأسبابه واللهُ يقولُ في محكمِ تنزيلِه: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦] قال بعضُ أهلِ العلمِ في هذه الآية دلالةٌ على ما يتخللُ بعضَ الأفئدةِ، وتنغمسُ فيه بعضُ النفوس من الشركِ الخفيِّ الذي لا يشعرُ به صاحبُه غالباً؛ فمثل هذا وإنْ اعتقدَ وحدانيةَ اللهِ لكنَّه لا يخلصُ له في عبوديتِه فيتعلقُ بغيرِ ربِّه، بل ويعملُ لحظِّ نفسِه أو طلبِ دنياه أو ابتغاءِ رفعةٍ أو منزلةٍ أو قصدٍ إلى جاهٍ عند الخلقِ فللهِ من عملِه وسعيه نصيبٌ، ولنفسه وهواه نصيبٌ، وللشيطانِ نصيبٌ، وللخلقِ نصيبٌ، واللهُ أغنى الشركاءِ عن الشركِ.

أيها الإخوةُ في اللهِ: الأمرُ خطيرٌ ودقيقٌ، شركٌ خفيٌّ في المحبةِ والتألُّهِ والخضوعِ والتذللِ، من أعطىٰ حبَّه وذُلَّه وخضوعَه وتسليمَه وانقيادَه وطاعتَه لغيرِ اللهِ فكيفَ يكونُ حقَّقَ التوحيدَ؛ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١] ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

هذا شركٌ في الخوفِ والرجاءِ، وآخرُ في الجهادِ والتضحيةِ، وذاك شركٌ في بابِ الأسبابِ، وذلك في بابِ النفعِ والضررِ.

وانظروا في السحرِ والشعوذةِ والتطيرِ والتشاؤمِ والرقىٰ والتمائمِ، والحلفِ بغيرِ اللهِ في صورٍ لا تكادُ تُحصرُ. والغلوِّ في الصالحين، ناهيك بدعاءِ غيرِ اللهِ، وطلبِ الغوثِ من المقبورين، والطوافِ حولَ الأضرحةِ، يدعون عندها ثم يدعونها، ويعلقون عليها القناديلَ والسرجَ والستورَ، ويذبحون عندها ولها، ويتمسحون، ويتطورُ الحالُ حتى يتخذونها أعياداً ومنسكاً فلا حول ولا قوةَ إلا بالله.

أيها الإخوةُ: وصورةٌ جديدةٌ من صورِ الخللِ في التوحيدِ باءتْ بها فئاتٌ من المنتسبين إلى الإسلامِ تزعمُ الثقافةَ والاستنارةَ لا ترضىٰ بحكم اللهِ ولا تسلمُ له، بل إنَ في قلوبِها لحرجاً، وفي صدورِها لغيظاً وضيقاً؛ إذا أقيمَ حدٌّ من حدودِ اللهِ ارتعدت فرائصُهم، واشمأزتْ قلوبُهم، قاموا وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، ولهم إخوانٌ يَمدُّونَهم في الغيِّ، يزعمون الحفاظَ على حقوقِ الإنسانِ، وما ضاعتْ حقوقُ الإنسانِ وحقوقُ الأممِ إلا بهم وبأمثالِهم.

الإسلامُ عندهم ظلمَ المرأةَ وهضمَ حقوقَها، والحدود قسوةٌ وبشاعةٌ وتخلفٌ، وحكمُ الردةِ تهديدٌ لحريةِ الابداعِ والفكرِ، وأحكامُ الشرعِ كلُّها عودةٌ إلى عصورِ الظلامِ والتعصبِ والانغلاقِ؛ بل لقد أدخلوها في نفقِ الإرهابِ المقيتِ. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

اللهُ أكبرُ: التوحيدُ صعبٌ على الأذلاءِ ومَنْ سِيمُوا الخسفَ

والذُّلَّ والتبعية: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

صعبٌ على من استمرؤا الفسادَ وولغوا في الأوحال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

إنهم لا يعرفون التوحيدَ، ولا يعرفون صفاءَ الدين مستعبدَون في فكرِهم، مشركون في تفكيرِهم. وكأنهم قالوا للذين كفروا وكرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعضِ الأمرِ، بل في كلِّ الأمرِ، إنهم حين لم يعرفوا التوحيدَ ولم يحقِّقوه أصبحوا وكأنهم فئةٌ منفصلةٌ عن أمةِ الإسلام بفكرِها وسمتِها ورؤيتِها وغايتِها، مشدودةٌ من خارجِها من الشرقِ والغربِ في السياسةِ والاقتصادِ الاجتماع والأدبِ. وقد تجلىٰ ذلك في تجاهلِهم بل تمردِهم على تاريخِ الأمةِ وأصالتِها وتراثِها.

وبعدُ أيها الإخوةُ: فإن نعمةَ التوحيدِ يخرجُ بها قلبُ العبدِ من ظلماتِ الشركِ وجهالاتِه إلى نور الإيمانِ باللهِ وتوحيدِه، يخرجُ من التيهِ والحيرةِ والضلالِ والشرودِ إلى المعرفةِ واليقينِ والطمأنينةِ والرضا والهدايةِ يخرجُ من الدينونةِ المذلةِ لأربابٍ متفرقين إلى الدينونةِ الموحِّدةِ لرب الأربابِ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

توحيد الله أولاً

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ ولا نعبدُ إلا إياه، مخلصين له الدينَ ولو كره الكافرون. أحمدُه سبحانه وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفره، له الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ وله الحكمُ وإليه ترجعون. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُ اللهِ ورسولُه حمىٰ حِمىٰ التوحيدِ وسدَّ كلَّ طريقٍ يوصلُ إلى الشركِ، فأظهر اللهُ به دينَه على الدينِ كلِّه ولو كره المشركون. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها المسلمون: تحقيقُ التوحيدِ يحتاجُ إلى يقظةٍ قلبيةٍ دائبةٍ دائمةٍ تنفي عن النفسِ كلَّ خاطرةٍ تقدحُ في عبوديةِ العبدِ لربِّه، وتدفعُ كلَّ خالجةٍ شيطانيةٍ في كلِّ حركةٍ أو تصرفٍ، ليكون ذلك كلُّه خالصاً لله وحده دون من سواه.

ومع شديد الأسف ـ أيها الإخوةُ ـ فإن قوادحَ التوحيدِ ومنقصاتِه صارت عند كثيرٍ من الناس من أخفى المعاصي معنىً وإن كانت من أجلاها حُكماً فلظهَورِ حكمِها ترىٰ المسلمين عامَّتَهم يتبرأون منها ويغضبون كلَّ الغضبِ إذا نُسبوا إليها وهم في هذا الغضبِ محقون، ولكن لخفاءِ معناها وقعَ فيها من وقعَ

وهم لا يشعرون.

ولقد قررَ أهلُ العلمِ أن الخوضَ في قوادحِ التوحيدِ والحديثَ عن مظاهرِ الشركِ هي طريقةُ القرآن. وذلكَ من أجلِ تحذير المسلمين وليس الحكمَ عليهم به؛ فأهلُ السنةِ والجماعةِ لا يكفِّرون أحداً من أهلِ القبلةِ بذنبٍ ما لم يستحلَّه، ولا يزالَ أهلُ العلمِ يتكلمون عن أحكام الردة وأسبابِها، وطرقِ الزيغِ والضلالِ، ومسالكِ الابتداعِ والتحذيرِ منها، فمن عَلِمَ العقائدَ الصحيحةَ وعَلَّمها ودلَّ عليها ونبَّه إلى طرقِ الزيغِ والكفرِ والبدعِ فقد سلكَ مسلكَ حقٍّ، ونهجَ منهجَ نُصحٍ.

وإن مما ينبغي التنبيهَ إليه أن من الخطأ في المنهجِ وعدمِ التوازنِ في العرضِ وطرقِ التعليم أن ترىٰ كثيراً من الكتبِ والمؤلفاتِ تُفصِّلُ في الفروعِ وأحكامِ المسائلِ حتى النادرَ منها وبعيدَ الوقوعِ؛ وهذا شيءٌ في بابه حسنٌ، ولكنهم لا يعنون بالأصولِ مما يحتاجُه الناسُ والناشئةُ فلا يُفصِّلون في التوحيدِ وأنواعِه وحقوقِه ولا يبينون ضدَّه من الشركِ وأنواعِه ومظاهرِه وأسبابِه.

وثمَّتَ خطأ منهجيٌّ آخرُ وهو أن المتقدمين رحمهم اللهُ سلكوا في بابِ العقائدِ مسالك كلاميةً ومصطلحاتٍ منطقيةً فخفي على الناس كثيرٌ من مهماتِ العقائدِ وأصولِ الدين، ولو سلكوا مسلكَ القرآنِ في البيانِ لكان المتعلمون والناسُ أحرىٰ بهدايةِ اللهِ وفضلِه في هذا البابِ..؟؟..!!

يقولُ ابنُ حجرٍ الهيثمي رحمه الله: (ينبغي منعُ من يُشهرُ علمَ

الكلامِ بينَ العامةِ لقصورِ أفهامِهم ولأنه لا يؤمنُ بهم إلى الزيغِ والضلَالِ، ولابدَّ من أخذِ الناسِ بفهمِ الأدلةِ على ما نطقَ به القرآنُ ونبَّه عليه، إذ هو بيِّنٌ واضحٌ يُدرَكُ ببداهةِ العقلِ).

ألا فاتقوا الله رحمكم الله: وأخلصوا دينكم لله، وحققوا توحيدَكم واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

حديث عن القرآن

الخطبة الأولى

الحمد للهِ ذي الطولِ والمنِّ والاحسانِ، فضَّلَ دينَنَا على سائر الأديانِ، أحمده سبحانه وأشكرُه وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، أنزل عليه القرآنَ معجزةً محفوظةً، وحجةً باقيةً على تعاقبِ الأزمان، صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعـدُ:

فـأوصيكـم أيُّهـا النـاسُ ونفسـي بتقـوىٰ اللهِ، فـاتقـوه واعملـوا وأخلصوا، وجدوا واجتهدوا، واعلموا أنكم ملاقوه، وتوبوا إلى اللهِ ربِّكم وأنيبوا إليه واستغفروه.

أيها المسلمون: لئن كانَ من المناسبِ أن يتحدثَ المتحدثُ عن الصيام في هذه الأيام فإن قرينَ الصيام هو القرآنُ. في شهرِ الصيامِ تنزَلَ القرآنُ، والقرآن لم يسمِّ شهراً بعينِه سوى شهرِ رمضانَ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ٣] ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: ١].

ولئـن تحـدَّثَ المتحـدثـون عـن غـزوةِ بـدرٍ الكبرىٰ وأحـداثِهـا

وعبرِها، فإنهم يتحدثون عما أنزلَ اللهُ على عبدِه يومَ الفرقان: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] والقرآن كلُّه فرقانٌ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أيها الإخوة: تجتمعُ هذه المناسباتُ والملاءماتُ وتتعاضدُ، ولكنَّ القرآنَ العظيمَ - قبلَ ذلكَ وبعدهُ - حديثُ كلِّ مناسبةٍ.

أمةَ القرآنِ: إنَّ كلَّ ما يحتاجُه المسلمون من إصلاحٍ وصلاحٍ وحسنِ معاشٍ ومعادٍ محصورٌ في هدي القرآنِ وهديٍ من كانَ خلُقُه القرآنَ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ.

إن أمةَ الإسلامِ في كثيرٍ من مواقِعها وأحوالِها تحتاجُ إلى أن تراجعَ نفسَها في موقفِها من قرآنِ ربِّها.

إن كثيراً منهم وكثيراً يجهلون أن للقرآنِ العظيمِ تأثيراً حقيقياً في حياتِهم المعاشيةِ والمدنيةِ، يتشككون ويترددون في أثره في تحقيقِ السعادةِ المنشودةِ في الدينِ والدنيا معاً.

ولكنَّ أهلَ العلمِ والإيمانِ - يقولون في رسوخٍ وشموخٍ - ليس في القاراتِ الخمسِ ولا الستِ وحيٌ من عندِ اللهِ حقٌ إلا هذا القرآنَ العظيمَ، ولَن يُعرفَ اللهُ معرفةً صحيحةً ولن يصحَّ إيمانُ عبدٍ إلا عن طريقِ هذا القرآنِ.

كتابٌ استوعب هديَ موسىٰ وعيسىٰ والنبيين من قبلِهما عليهم أجمعين وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسلامُ.

اجتمع في هذا القرآن ما تفرقَّ في الرسالاتِ قبله، حفظَ حقائقَ النبواتِ الأولى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ

وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٨ ـ ١٩]. حفظها وجمَعها وهيمَن عليها: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

إن وثائقَ النقلِ لتتظافرُ، وإن براهين الإثباتِ لتتواترُ على أن هذا الكتابَ عزيزٌ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

كتابٌ محفوظٌ لم ترقَ إليه شبهةٌ، ولم يختلطْ به كلامُ بشرٍ، ما شانه نقصٌ ولا شابَهُ زيادةٌ.

كتابٌ خاصٌ لمحمدٍ ولاتباعِ محمدٍ ﷺ، لم يقعْ لصاحبِ رسالةٍ قبله أن أقامَ بكتابه دولةً سارتْ في حياتِه مسيرتَها نحوَ المشارقِ والمغاربِ وبلغْت من بعدِه دعوتُها ما بلغَ الليلُ والنهارُ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص: ٤٩].

كتابٌ كريم أودعَ اللهُ قوَّتَهُ في ذاتِه، حاولَ الأعداءُ قديماً وحديثاً عربٌ جاهليون وغربٌ مستشرقون العبثَ به، والتشويشَ في صدقِه، فأجلبوا وتنادوا ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦]. شككوا في تنَزُّلِه، وطعنوا في جمعِه وتدوينِه، ونالوا من قراءاتِه وحروفِه، ولكنها محاولاتٌ هزيلةٌ، رجعوا على أعقابهم خاسئين.

استمعوا إلى القرآنِ وهو يسجل هذه الدعاوى المخزيةِ في أسلافِهم وأخلافِهم: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥] ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا

يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ﴿وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ٢] ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [القصص: ٣٦].

ولما عجزوا واندحروا رضوا لأنفسهم بالدنيّةِ والنقيصةِ فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [النساء: ١٥٥] ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

أيُّها الإخوةُ: الأمةُ تحتاجُ إلى أن تراجعَ مواقفَها من قرآنِها، القرآنُ حقٌّ من عندِ اللهِ، من بين دفتَيْه انطلقتْ خيرُ أمةٍ أخرجتْ للناس: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]. أمة خيِّرةٌ تربتْ على مائدةِ القرآنِ، أخذتْ كتابَ ربِّها بقوةٍ، وسارتْ على نهجِه بعزمٍ، خضعتْ لتعاليمِه بإيمانٍ فهداها للتي هي أقومُ.

لقد كان هذا القرآنُ خيراً عاماً، تآختْ عليه شعوبُ الإسلامِ ونشأتْ به مدنيةٌ كانتْ زينةَ الأرضِ وضياءَها ورحمتَها وعدلَها.

هؤلاءِ الأسلافُ من الروَّادِ قرأوا القرآنَ فأحيوا به ليلَهم رهباناً، وعمروا به نهارَهم فرساناً، تفيضُ أعينُهم من الدَّمعِ مما عرفوا من الحقِّ، يغشاهُم الخشوعُ، ويكسوهُم الوقارُ، كان القرآنُ ربيعَ قلوبِهم، ونورَ صدورِهم، وجلاءَ أحزانِهم، تأدبتْ به أخلاقُهم، وعمَرتْ بالتقوىٰ مسالكُهم، قوةً في الحق، وورعاً في المطاعمِ والمشاربِ وبصراً بأهل الزمان: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

لهم من قرآنِهم ما يحثُّ عزائِمَهم إذا كلَّتْ، ويحفزُ هِمَمَهم إذا

ضعفتْ؛ ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

يا أهلَ القرآن: الأمةُ تحتاجُ إلى أن تراجعَ مواقفَها من كتاب ربِّها؟؟؟.

فالقرآنُ عمدَةُ الملةِ، وكليةُ الشريعةِ، وينبوعُ الحكمةِ، وآيةُ الرسالةِ، لا طريقَ إلى اللهِ سواهُ، ولا سبيلَ إلى النجاةِ بغيرِه، هل يُدعىٰ إلى اللهِ بغيرِ كتابِ اللهِ؟ وهل يُرجىٰ صلاحُ عبادِ اللهِ بغيرِ كتابِ اللهِ؟.

هو التبيانُ والفرقانُ، والروحُ والذكرُ، هدىً للمتقين، ورحمةٌ للمؤمنين، آياتٌ بيناتٌ في صدورِ الذين اوتوا العلمَ، وذكرىٰ لمن كان له قلبٌ، أحسنُ الحديثِ، وأصدقُ الكلامِ، وشفاءٌ لما في الصدورِ. نعمةُ اللهِ السابغةُ، وحجتُهُ الدامغةُ، نورُ الأبصارِ والبصائرِ. أنزلَه ربُّنا وصرَّفَهُ، وعداً ووعيداً، وأمراً وزجراً، وحُكْماً وعلماً، ورحمةً وعدلاً.

كتابٌ لا تفنىٰ عجائِبُه، وبحرٌ لا يُدركُ غَوْرُه، وكنزٌ لا تنفدُ دررُه، وغيثٌ لا تُقْلِعُ عن المدرارِ سحائِبُه.

أنزله ربُّنا لنقرأَه تدبراً، ونتأمَّلَه تبصُّراً، ونسعدَ به تذكراً، ونلتزمَ بأوامرِه طمعاً، ونجتنبَ نواهيَه خوفاً.

تحيا القلوبُ بمواعظه، وتطمئنُّ النفوسُ بترتيله، وتقومُ الحياةُ بأحكامِهِ، وتعمُّ السعادةُ بآدابه، أسلوبُه رفيعٌ ونَظْمُه بديعٌ، لفظُه معجزٌ، ونظمُه باهرٌ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

لم تشُبْ بيانه غموضٌ، لم يعبْ لفظَهُ ضَعفٌ، ولم يدخلْ معانيَهُ قصورٌ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

الأمةُ تحتاجُ إلى أن تُراجِعَ نفسَها في مواقِفِها من قرآنها.

أصدقُ ما تثبتُ به عقائدُ الإيمان، وأوضحُ دليلٍ إلى المعارفِ والعلومِ. وأقربُ سبيلٍ إلى بَرْدِ الطمأنينةِ في القلوبِ، وأفضلُ حديثٍ تناجي به مولاكَ في الأسحار.

ولكن ـ أيها الإخوةُ ـ حين عزَّ هذا المنهجُ، وطالَ الأمدُ، واشتغلت الأمةُ بغيرِه أو تشاغلتْ دبَّ في جسمِها دبيبُ الضعفِ، وهجرتْ فئامٌ منها القرآنَ هجراً غيرَ جميلٍ.

هجروا براهينَ القرآن في العقائدِ والإيمان، وسلكون طرائقَ محدَثة واصطلاحاتٍ مبتدعةً زاعمين أن أدلةِ القرآن لا تفيدُ القطعَ واليقين فحادوا عن الطريقِ وتاهوا، أمَّا في ألوانِ العباداتِ والتعبداتِ فركنوا إلى أحزابٍ مصنوعةٍ، وأورادٍ متكلفةٍ، وتعاويذَ منحرفةٍ، ورُقىً غيرِ مشروعةٍ، وأخذوا بأنساكِ الأعجامِ من غيرِ أهلِ الإسلامِ.

وثمَّتَ أقوامٌ حظُّهم من القرآنِ القراءةُ في المقابرِ والمآتِم، وفتحِ الأيدي والأفواه للاستجداءِ والمسألةِ.

أين مكانُ القرآنِ في الحكمِ؟ وأين موقعُه من مناهجِ التربيةِ ومقرراتِ الدراسةِ؟؟.

هل ضاق كتابُ اللهِ وعلومُ القرآنِ عن أن يعطيَ حكماً في نازلةٍ

أو يرسمَ منهجاً في تربيةٍ؟؟ وهل لا تنبتُ المناهجُ ولا تصحُّ الدساتيرُ إلا في غيرِ ديارِ المسلمين؟؟.

نعم أيها الإخوةُ: لقد أحسنت الأمةُ إذ حفظتْ قرآنها حروفاً ومخارجَ ومدوداً وغُنَنَاً وأداءً وتغنياً، ولكن يجبُ أن ينضمَّ إلى حسنِ التلاوةِ وإجادةِ القراءةِ وظيفةُ التدبِّر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩].

لقد وصفَ اللهُ عزَّ شأنه أمماً سابقةً بإنهم أميون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيَّ. إنهم أميُّون؛ أميَّةَ عقلٍ وفهمٍ، وأمُّيةَ تدبرٍ وعملٍ. يرددون كتابَهم تلاوةً من غيرِ فقهٍ ولا عملٍ. وأميَّةُ العقلِ والفكرِ عنوانُ حالاتِ الضعفِ والتبعيةِ.

ولقد أوضحَ ذلك رسولُ اللهِ ﷺ حين حدَّث أصحابَه يوماً فذكر لهم أشياءَ قال فيها: «**وذاك عند ذهابِ العلم**» فقام زيادُ بنُ لبيدٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه فقال: يا رسولَ اللهِ كيفَ يذهبُ العلمُ ونحنُ قرأنا القرآنَ ونُقرئُه أبناءَنا، وأبناؤنا يُقرئون أبناءَهم؟ فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**ثكلتك أمُّك يا لبيد؟؟ إن كنتُ لأراكَ من أفقه رجلٍ في المدينةِ؟؟ أوليس هذا اليهودُ والنصارىٰ بأيديهم التوراةُ ولا ينتفعون بما فيها بشيءٍ؟؟**»(١). أخرجه الأمامُ أحمدُ في مسندِه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٠)، والترمذي (٥/ ٣١ ـ ح٢٦٥٣) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٤ ـ ح٤٠٤٨)، وقال في الزوائد: هذا إسناده صحيح، رجاله ثقات إلا أنه منقطع، ولكن أخرجه الحاكم من عدة طرق وقال: حديث صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته وأقره الذهبي انظر المستدرك (١/ ٩٩، ١٠٠).

والترمذيُّ في سننِهِ وقالَ حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

ومصداقُ ذلك في كتابِ الله: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦] يقولُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: هؤلاءِ أهلُ الكتابِ أقبلوا على الآراء المختلفةِ، والأقوالِ المؤتفكةِ، وقلَّدوا الرجالَ في دينِ اللهِ، فعند ذلك قستْ قلوبُهم لا يَقبَلونَ موعظةً، ولا يخشون وعيداً، ولا يرجون لله وقاراً.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، واعلموا أن ميدانَ القرآنِ: معهدٌ ومسجدٌ، وبيتٌ ومدرسةٌ، وسوقٌ ومعركةٌ، وروحٌ وعقلٌ. يُتلىٰ من المصاحفِ والصدورِ، في المساجدِ والمنازلِ، في الصلواتِ والخلواتِ، على ألسنةِ المتعبدينَ والمتعلمينَ، تلهجُ به الجيوشُ في زحفِها، وتقطِّعُ به الجنوبُ المتجافيةُ ليلُها في محاريبِها، جعلته دستورَها كما جعلته ذكرَها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

[طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

حديث عن القرآن

الخطبة الثانية

الحمد للهِ الكريمِ الجوادِ، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وأتوب إليه وأستغفره، من تمسك بكتابِه عزَّ وسادَ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله هدىٰ إلى سبيل الرشادِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يومِ المعاد.

أما بعـدُ:

أيها المسلمون: كتابُ اللهِ هو الحياةُ والروحُ، والغذاءُ والشفاءُ وهو العصمةُ والنجاءُ.

قفوا عند حلالِه وحرامِه، واجعلوا لبيوتِكم وخلواتِكم حظاً من قراءَتِه، فالذي ليس في جوفِه شيءٌ من القرآن كالبيتِ الخربِ[1]، والذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السفرةِ الكرامِ البررةِ، ومن قرأه وهو عليه شاقٌ فله أجران[2].

قوموا بحقِّ النصحِ لكتابِ اللهِ، تفكروا في عجائبِه، واعملوا

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٥/ ١٦٢ ـ ح٢٩١٣)، وأحمد (١/ ٢٢٣).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٨/ ٥٦٠ ـ ح٤٩٣٧)، ومسلم (١/ ٥٥٠ ـ ح٧٩٨) واللفظ له.

بمُحْكَمِه، وآمنوا بمتشابِهِه، انشروا علومَه، وادعوا إلى سبيلِه، ومن أحبَّ أن يعلَمَ حالَه ويختبرَ عملَه فليعرضْ نفسَه على كتابِ اللهِ.

يقولُ الحسنُ البصريُّ رحمه الله: «رحم اللهُ امرءاً عرضَ نفسَهُ وعملَه على كتابِ اللهِ، فإن وافقَ كتابَ اللهِ حمدَ اللهَ وسأله المزيدَ، وإن خالفَ أعتَبَ[1] نفسَه وحاسبَها ورجعَ من قريبٍ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ فخيرُ الحديثِ كلامُ اللهِ وخيرُ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرُّ الأمورِ محدثاتُها.

---

(١) أعتب أي لام وحاسب.

الإسلام دعوة عالمية

الخطبة الأولى

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ومنَّ علينا باتباعِ سيدِ الأنامِ جعلنا خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس، تأمرُ بالمعروفِ وتنَهَىٰ عن المنكرِ ونؤمنُ باللهِ. وتدعو إليه. رضَينا باللهِ ربًّا وبالإسلامِ ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً. اللهم لك الحمدُ بالقرآن ولك الحمدُ بالإسلام ولك الحمدُ بالإيمانِ. سبحانك لا نحصي ثناءً عليك. وأشهدُ إلاَ إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبداللهِ ورسولِه، المبعوث بالهدي ودين الحقِ. أظهر الله دينه على الدين كلِّه ولو كره المشركون. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، فتحوا الفتوحَ، ومصَّروا الأمصارَ، ونشروا دينَ اللهِ من المهاجرين والأنصار والتابعين ومن تبعهم بإحسان وعلى هديهم اقتفىٰ ونهجهم سار.

أما بعد فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فاتقوه حقَّ تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واتقوه ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، إنه من يتقِ ويصبرْ فإن اللهَ لا يضيع أجر المحسنين.

أيها المسلمون: إن ما يعانيه عالمُ اليوم من تفككٍ وتمردٍ وارهابٍ واضطرابٍ ما كان إلا لطغيانِ المادةِ وعجزِ المبادىءِ

المعاصرةِ عن ضبطِ الإنسانِ في سلوكه، والتوازنِ في اشباعِ حاجاتِه ومتطلباتِه. إن المعاصرين أخطأوا كثيراً، وضلوا ضلالاً بعيداً حين زعموا الفصلَ بين العلم ومكتشفاتِه ومخترعاتِه وبين مبادىءِ الدينِ الحقِّ وسامي الخلُقِ ومقدساتِ الأديانِ.

العلمُ بمفهومِه المعاصرِ حاول بسطَ احتكارِه وسطوتِه وطغيانِه على العقولِ والمفاهيمِ. انفصلَ عن الدينِ، بل ألغىٰ الدينَ واحتقره وتنكرَ للهِ ولوجودِه واستحقاقِه للعبادةِ سبحانه عز شأنه.

إن انفصالَ العلم والتقنيةِ عن القيمِ وموازينِ الأخلاقِ ومبادىءِ الأديانِ بلغَ حداً مُرِيعاً مُفزعاً.

إن إنسانَ اليوم في حضارةِ اليوم لم يعدْ إنساناً سوياً لأنه متأثرٌ بحضارةٍ غيرِ سويةٍ فهو لا يتصورُ العيشَ إلا قوياً ظالماً أو ضعيفاً مظلوماً.

مدنيةُ اليوم حولتْ البشرَ إلى عبيدٍ للدنيا والترابِ، جعلت جماهيرَ غفيرةً تحيا ليومِها وشهواتِها وأهوائِها وملذاتِها وتذهلُ عن مصيرِها. تكدحُ لمآرَبِها القريبةِ ولا تفكرُ تفكيراً جاداً في مرضاةِ اللهِ والعملِ الصالحِ ولا إلى أين المصير؟.

بل مع الأسفِ لقد طوعوا التقدمَ العلميَّ المحمودَ طوعوه لخدمةِ غرائزَ خسيسةٍ بل هيؤا العالمَ فيه لحروبٍ طاحنةٍ متلاحقةٍ لا يخرجُ من واحدةٍ إلا ويستعدُّ لأخرىٰ في مشكلاتٍ داخليةٍ واقليميةٍ وعالميةٍ.

تعلقت القلوبُ بأطماعٍ غيرِ متناهيةٍ، الناسُ تأكلُ ولا تشبعُ، وتشربُ ولا ترتوي. حياةٌ تدفعُ الأفرادَ والدولَ إلى حِراكٍ مسعورٍ،

يدورُ المرءُ فيه حولَ نفسِه ولا يزالُ يدورُ ويلهثُ حتى يدركَه التعبُ والإعياءُ ثم يسقطُ عجزاً وهلاكاً وشقاءً.

أيها الإخوةُ: ومن أجلِ الخلاصِ من هذا البلاءِ بل من هذا العذابِ المهينِ وهذا الدمارِ الماحقِ. فهذا نداءٌ مخلصٌ موجَّهٌ لأصحابِ القرارِ في العالم، خطابٌ صادقٌ لكلِّ مؤثرٍ في مسارِ العالـمِ والحياةِ، دعـوةٌ رقيقـةٌ للسيـاسيين والاقتصـاديين، والإعلاميين والمربين، ورجال الدين في الأمم الأخرىٰ؛ بل إنه نداءٌ للناسِ جميعاً إنه نداءٌ موجهٌ لكلِّ من كانَ في موقعِ توجيهٍ وتأثيرٍ.

إنه دعوةٌ بدعوةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وبدعوةِ رسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥] أسلموا تسلموا يؤتِكم اللهُ أجرَكم مرتين والسلام على من اتبع الهدىٰ.

أيها العقلاءُ يا أصحابَ الفكرِ الرشيدِ: إننا نخاطبُ فيكم عقولَكم السليمةَ، وأفهامَكم السديدةَ ونظرَكم العادلَ في طلبِ الحقِّ، وسعيَكم الصادقَ في ابتغاءِ السعادةِ.

إنه لا يقدرُ على اطفاءِ هذا اللهيبِ وايقافِ هذا اللهاثِ إلا الإسلامُ الذي يوقفُ الإنسانيةُ كلَّها راغبةً راهبةً أمام ربِّها الإله الواحدِ

الأحدِ الفردِ الصمدِ الذي لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكن له كفواً أحدٌ.

أيها العقلاء: الإسلامُ حقيقةٌ قديمةٌ غيرُ جديدةٍ، إنه الدينُ الذي بلغه رسلُ اللهِ جميعاً، فلا خلافَ بين ما قاله آدمُ ونوحٌ وإبرهيمُ وموسىٰ وعيسىٰ ومحمدٌ وغيرُهم من أنبياءِ الله عليهم جميعاً صلواتُ اللهِ وسلامُه.

إنها وحدةٌ دينيةٌ يقررُها قرآنُنا ودستورُنا: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

إنها الوحدةُ الدينيةُ التي تؤآخي بين الأنبياءِ، وتوقِّرُ الصحيحَ من صحائِفهم، وتحققُ في هذا العالم أهدافَهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

إنها رسالاتُ اللهِ إلى أنبيائِه، نورٌ كلُّها تكشفُ الباطلَ، وتُحقُّ الحقَّ، وتمنحُ الحريةَ، وتأبىٰ العبوديةَ إلا للهِ وحده لاشريكَ له.

أيها الناسُ: إن دينَ الإسلامِ يحتِّمُ على أهلِه البلاغَ والبشارةَ والانذارَ. إنه يحرمُ كتمانَ الحقِّ، ومن كتم الحقَّ فهو متوعدٌ عند اللهِ باللعنِ والطردِ والعذابِ الشديدِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

إن الدعوةَ إلى الإسلام إرشادٌ إلى أنفس حقٍّ في الوجودِ، وتوجيهٌ إلى خيري الدنيا والآخرةِ جميعاً. الإسلامُ انقاذٌ من أسبابِ الهلاكِ الذي يتهددُ البشريةَ في العاجلةِ والآجلةِ. إنه تمكينٌ للأممِ لمعرفةِ سبيل الهدىٰ والرحمةِ والنجاةِ.

عباد الله: تعاليمُ الإسلام هي التي قلمتْ أظافرَ الكهنةِ، وأبطلتْ صكوكَ الغفرانِ، وهذبتْ طقوسَ العُبَّادِ، وألزمتْ رجال الدينِ أن يرفعوا وصايتِهم عن نشاطِ العقلِ الإنسانيِّ.

دينُ الإسلامِ هو الخلاصةُ النقيةُ السهلةُ التي جمعتْ الحقَّ كلَّه في أسلوبٍ من القولِ والبيانِ، بريءٍ من اللغوِ والتعقيدِ. وهو الهدىٰ المغني عن تجاربِ الخطأ والصوابِ، وهو الصراطُ الحقُّ الواقي من الكبوةِ والعثارِ. دينُ الإسلام له نظرتُه المتكاملةُ المتسقةُ لاحترامِ العالمِ والناسِ والحياةِ والأحياءِ.

ما من شيءٍ يصونُ الأفئدةَ ويضمنُ سلامتَها، ويضبطُ الشهواتِ ويمنعُ ضرواتَها، ويحفظُ الفطرةَ ويستبقي أصالتَها إلا والإسلامُ قد ضمِنَه ودلَّ عليه.

في الإسلامِ لا يختلفُ صحيحُ النقلِ مع صريحِ العقلِ، ولا يتناقضُ فيه الوحيُ مع سليم الفكرِ، فصراطُ اللهِ واحدٌ مستقيمٌ لا يتعددُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إذا كان الأمرُ كذلك أيها الإخوةُ فهذه إشاراتٌ إلى بعضِ مبادىءِ الدينِ الكبرىٰ وآثارِ الإيمانِ العليا.

فالتوحيدُ هو أصلُ دينِ الإسلام وهو ارتباطٌ باللهِ وحدَه وتجريدٌ للتعلقِ به وحدَه دون ما سواه، نبذٌ للأندادِ والشركاءِ، لأنهم لا ينفعون ولا يضرون وليس لهم من الأمر شيءٌ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ [الأنعام: ٧١]، خضوعٌ لله بالطاعةِ، وتصديقٌ بما أخبرَ، وإيمانٌ به وبرسلِه وكتبِه ورسالاتِه.

خضوعُ الخلائقِ كلِّها للملكِ الديانِ. أوجدهم بقدرتِه، وأمدَّهم بقوتِه، ورباهم بنعمتِه، فاستسلموا لِحُكمِه وحِكمتِه، ورضوا بقضائِه وقدرِه.

وهو سبحانُه ذو الكمالِ المطلقِ في ذاتِه ووحدانيتِه وأسمائِه وصفاتِه؛ هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ المبدىءُ المعيدُ الحكمُ العدلُ عالمُ الغيبِ والشهادةِ، لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ. ليس كمثلِه شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ.

توحيدُ اللهِ والإيمانُ به هو أسسُ الفضائلِ، ولجامُ الرذائلِ، وقِوامُ الضمائرِ، وسندُ العزائمِ، وبلسمُ الصبرِ عند المصائبِ، وعمادُ الرضا والقناعةِ بالحظوظِ، ونورُ الأملِ في الصدورِ، وسكنُ النفوسِ إذا أوحشتْها الحياةُ، وعزاءُ القلوبِ إذا نزلَ الموتُ أو دنتْ أيامه وبدتْ علاماتُه.

نعم واللهِ إن فيه الكفايةَ التي تُشبعُ الأزماتِ الروحيةَ والفكريةَ التي يعاني منها كثيرٌ من الناسِ، فيه الوقايةُ من متاعبِ الحيرةِ والشرودِ.

أما القرآنُ الكريمُ فهو دستورُ الأمةِ؛ كتابُ هدايةٍ جامعةٍ

للسلوكِ الإنسانيِّ الصحيح، جمع كلَّ شيءٍ، وما فرَّطَ من شيءٍ، أوضحَ كلَّ ما يقربُ إلى اللهِ، وبيَّن كلَّ ما يبعدُ عنه. قرآنٌ كريمٌ وصَّافٌ للكونِ، جوَّابٌ مع الأفلاكِ، متحدثٌ عن سكنِ الليلِ وسبحِ النهارِ، فيه القصصُ المتتبعُ للأحداثِ، والراوي لأحوالِ الأولَين وتاريخِهم ومصائِرهم من أجلِ أن يعتبرَ أولو الأبصارِ.

ونبيُّ الإسلام محمدٌ ﷺ صادقٌ مصدوقٌ لا يستطيعُ عاقلٌ يحترمُ نفسَه ينظرُ في سيرتِه ثم يزعمُ أنه يريدُ برسالتِه بسطةً في مالٍ، أو منزلةً من جاهٍ، أو حظاً من حظوظِ الدنيا، ليس في دعوتِه ألبتةَ أثارةٌ لمجدٍ شخصيٍّ أو تطلعٌ لغايةٍ دنيويةٍ. حاشاه ثم حاشاه، فسيرتُه منقولةٌ محفوظةٌ مضبوطةٌ في القرآنِ والسنةِ عليه الصلاةُ والسلامُ.

والسنةُ هي أقوالُ رسولِ اللهِ ﷺ وأفعالُه وتقريراتهُ لأصولِ صحابتِه وعصرِه ، نُقلتْ إلينا نقلاً دقيقاً مفصلاً مثبوتاً، لايوجدُ لدى أمةٍ من الأممِ مثلُها. وهي الشرحُ والتفسيرُ للقرآنِ والبسطُ للأحكامِ والتعاليمِ.

أما فرائضُ الإسلامِ الكبرىٰ فالصلاةُ مناجاةٌ للهِ، وصلةٌ بين العبدِ وربِّه تنتظمُ بها جماعةُ المصلين في قلوبِهم وأبدانِهم، مستويةً صفوفُهم، متحدةً حركاتُهم ركوعاً وسجوداً وقياماً وقعوداً، كلُّهم يقومون لله قانتين، في ذكرٍ وقرآنٍ ودعاءٍ وتمجيدٍ.

والزكاةُ حقٌّ في المالِ معلومٌ، برٌّ وإحسانٌ، وطهارةٌ وتزكيةٌ، وصورةٌ للتعاطفِ والتكافلِ.

والصيامُ في وقتٍ معلومٍ من العامِ، شهرٌ هلاليٌّ، يضبطُ

الإرادةَ، ويحكمُ الشهوةَ، ومشاركةٌ للجماعةِ في الاحساس والوجدانِ واتحادٌ في ساعاتِ الامساكِ والافطارِ ومشاركةٌ في الجوعِ للمجموعِ.

والحجُّ هو الركنُ الخامسُ من أركانِ الإسلامِ صورةٌ لجماعةِ المسلمين، يفدون من أنحاءِ الدنيا إلى عاصمةِ الإسلام بلدِ اللهِ الحرامِ مكةَ المكرمةِ؛ في عبادةِ اللهِ، موحدةٍ في شعائرِها ومشاعرِها ولباسِها وتطهرِها.

أما الإنسانُ في الإسلامِ فهو مخلوقٌ مكرمٌ استخلفه اللهُ في الأرضِ ليعمرُها، خلقه لعبادتِه، وسخر له ما في السمواتِ وما في الأرضِ. محاسبٌ على تصرفاتِه كلِّها من خيرٍ وشرٍّ. خلقَ فيه الغرائزَ، وجعلَ فيه من الملكاتِ والمواهبِ ما يستعينُ به على العبادةِ الصحيحةِ والعمارةِ الصالحةِ، وبعث له الرسلَ مبشرين ومنذرين، يخبرونه عن ربِّه، ويبينون له وظيفتَه في الحياةِ ومصيرَه في الآخرةِ.

والبشرُ لا تفاضلَ بينهم؛ أكرمُهم عند اللهِ أتقاهم، وأكبرُ النعم عليهم نعمةُ الهدىٰ، وهم متصلون بربِّهم مباشرةً بلا واسطةٍ، ليس بينهم وبينه في حاجاتِهم وعباداتِهم حجابٌ. وكلُّهم محفوظةٌ دماؤُهم وأعراضُهم وأموالُهم.

والمسلمون على اختلافِ أجناسِهم واتساعِ ديارِهم أمةٌ واحدةٌ يؤمنون بعقيدةٍ واحدةٍ وفكرٍ واحدٍ، وكلُّ من اعتقدَ عقيدتَهم فهو منهم.

لأول مرةٍ في تاريخِ البشريةِ سمعت الدنيا في مجتمعٍ عربيٍّ

لم تقُمْ الرابطةُ فيه إلا على أساسِ القبليةِ والفخرِ بالمضريةِ والقرشيةِ، سمعوا سيدَ مضرٍ وقريشٍ سمعوه يقولُ لفارسيٍّ تداولته الأيدي بالاسترقاقِ والسُّخرةِ: «**سلمان منا أهل البيت**»[1]. وخليفةُ خليفتِه عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه الذي هابه كسرى وقيصرُ يقول لعبدٍ حبشيٍّ أجحف به الضربُ والإهانةُ في الجاهلية: (سيدُنا بلال).

والإسلامُ يمتدحُ القوةُ ويحبُّها في شتى الميادين، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ وفي كلٍّ خيرٌ. ولكنها قوةٌ لا ليعيشَ بها ظالماً ولكن ليمنعَ الظلمَ ويبسطَ الأمنَ وينشرَ الأمانَ. ومن أجلِ هذا كان الجهادُ في سبيلِ اللهِ ذروةَ سنام الإسلامِ. وما كان ذروةً إلا حين كان في سبيلِ اللهِ طلباً للآخرةِ وابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، وليس اغتصاباً للدنيا، ولا سرقةً للأرضين، ولا استعباداً للناس، ولا استبداداً بالخيراتِ والثرواتِ، حاشا وكلا: «**من قاتلَ لتكون كلمةُ اللهِ هي العليا فهو في سبيلِ اللهِ**»[2] ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤].

وحقوقُ الإنسانِ التي يفاخرُ بها عالمُ اليوم ويحاسبُ الناسَ عليها حساباً ظالماً ما كانت إلا ترديداً مختصراً للوصايا والمبادىءِ الكريمةِ التي تلقاها المسلمون عن نبيِّهم وسيدِهم

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٥٩٨) وسكت عنه وضعفه الذهبي وانظر مجمع الزوائد (٦/١٣٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبي موسى أخرجه البخاري (١/٢٦٨ ـ ح١٢٣)، ومسلم (٣/١٥١٣ ـ ح١٩٠٤).

وإمامِهم النبيِّ الخاتِم محمدٍ ﷺ «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[1] ويضافُ إليها حقوقُ الحيوانِ والجمادِ لمن يبتغون المزيدَ.

وقاعدةُ الثوابِ والعقابِ في الإسلام مربوطةٌ بحسنِ القصدِ وحسنِ العملِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ . .﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إن الإنسانُ يؤجرُ عند اللهِ بمقدارِ ما يقيمُ من حقٍّ ويهدمُ من باطلٍ، وما يسوقُ من خيرٍ ويمنعُ من شرٍ، وما يسترُ من عورةٍ ويؤمِّن من روعةٍ، وما يصونُ من مصالحَ ويدرءُ من مفاسدَ. منزلتُه عند ربِّه بمقدارِ ما ينافسُ في الخيراتِ وحسنِ المعتقد: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ سياجُ متينٌ تقومُ به الأمةُ لتحفظَ دينَها، ويدومَ خيرُها، فتحفظَ الصالحَ من أمورِها وشؤونِها وتقضي على السيءِ والفاسدِ من أحوالِها وأوضاعِها.

واليومُ الآخر آتٍ لا محالةَ، واللهُ يبعثُ من في القبورِ ليجازيَ كلاً بعملِه إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ فلابدَّ من جزاءٍ للمحسنين الأخيارِ وعقابٍ عادلٍ للمجرمين الأشرارِ.

وبعدُ أيها الناسُ. فالإسلامُ عقيدةٌ في القلبِ، وعبادةٌ للهِ،

---

(١) أخرجه أبوداود (٤/ ٣٣١ ـ ح٥١١٦)، وأحمد (٢/ ٣٦١، ٥٢٤) وله شاهد عند الترمذي (٥/ ٣٦٣ ـ ح٣٢٧٠).

وشريعةٌ في الحكمِ، ومنهجٌ للحياةِ شاملٌ لكلِّ ما تحتاجُ البشريةِ في معاملاتِها وتنظيم أسرِها وبيوتِها وفضِّ منازعاتِها وحلِّ خلافاتِها في تفاصيلَ دقيقةٍ مبسوطةٍ قريبةِ المنالِ.

هذه دعوةُ الإسلام وهذه مبادئُه فـ ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١ ـ ٣٢].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥].

الإسلام دعوة عالمية

الخطبة الثانية

الحمد للهِ حببَ لمن شاءَ من خلقه الإيمانَ وزيَّنه في قلوبِهم، وكرَّه إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ وجعلهم من الراشدين. أحمدُه سبحانُه وأشكرُه على سوابغِ نعمِه، واستزيدُه من سحائبِ جودِه وكرمه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، بلغ الرسالةَ وأدى الأمانةَ وأوضحَ المحجةَ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فاتقوا اللهَ أيها الناسُ دهرَكم، وأخلصوا له سرَّكم وجهرَكم، اتقوه وآمنوا برسولِه يؤتكم كفلين من رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به ويغفرْ لكم.

أيها الناسُ: الإسلامُ دينُ اللهِ الذي وضعَ ضوابطَ دقيقةً للروحِ والجسدِ والعقلِ والقلبِ والفردِ والجماعةِ والدنيا والآخرةِ، ضوابطَ تعانقُها الفطرُ السليمةُ والأفكارُ النيرةُ، وتتقبلُها النفوسُ المتجردة.

والسعادةُ الحقةُ لمن ينشدُها لا تكون إلا في صدقِ الإيمانِ ونورِ الإسلام، والارتباطِ الصادقِ المخلصِ باللهِ الواحدِ الديانِ. إيمانٌ يصحبُ المرءَ في حياتِه كلِّها، يصبغه بصبغةٍ ثابتةٍ يظلُّ معه

في صحواتِه وغفلاتِه، وبيعِه وشرائِه، وحلِّه وترحالِه، وصداقاتِه وخصوماتِه، في فرحِه وترحِه، ووحدتِه وعِشْرتِه. والله سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

أيها الإخوةُ: هذه مبادىءُ من مبادىءِ الإسلام، وأثارٌ من آثارِ الإيمانِ ولكن ديننا قد شُوِّهتْ صورتُه من أَعداءَ مغرضين، شوهوه وشوهوا اتباعَه، لفَّقوا فيهم التهمَ، اتهموهم باستغلالِ الدين والعصبيةِ العرقيةِ والارهابِ العالميِّ.

نعم لقد ابتلي الإسلامُ بتلفيقاتٍ صارخةٍ تمسُّ الإسلامُ ذاتَه، وتنالُ نبيَّه محمداً ﷺ، وتطالُ القرآنَ العزيزَ حتى وصلَ بهم الحال إلى أن قالوا أن القضاءَ على الإسلامِ فريضةٌ محتمةٌ.

ألم تلحظوا أقواماً فتانين يسلكون مسالكَ خطيرةً، وأساليبَ معوجةً باسمِ الإصلاحِ ودعوىٰ الحقِّ. إنهم يدعون أرساءِ قواعدِ الإسلام يزرعون الفِتنَ التي تؤدي إلى المجازرِ والحروبِ، وبدعوىَ رخاء البشرية يُفقرون الغالبيةَ على حسابِ الأقليةِ، وبدعوىٰ حمايةِ البيئةِ يلوثون الرمالَ والجبالَ والغاباتِ والأنهارَ والمحيطاتِ والبحارَ والهواءَ والغذاءَ.

هذه صورةٌ من الحالِ المخزي. ومن أجل هذا فإننا نربأ بذوي العقلِ والحجا والرشادِ والحكمةِ أن يركنوا إلى الذين يَلبسون الحقِّ بالباطلِ ويمزجون بعض المعارفِ الصحيحةِ بالأكاذيبِ المفتراةِ ليقدموها في سياقٍ يبدو وكأنه بحثٌ محايدٌ أو نشاطٌ علميٌّ متجردٌ.

لماذا لا تكون هناك آذانٌ صاغيةٌ للنداءاتِ المتبرمةِ من

استعمارٍ كالح متعصبٍ يسرقِ الأقواتَ والعقائدَ، ويسممُ الأفكارَ ويفتنُ الناسَ؟ لماذا يُكره أقوامٌ على الكفرِ، ويُجبرون على تعليمٍ يزدري الدينَ ويهينُ المقدساتِ، ويرفضُ حكمَ اللهِ وشرعهِ.

هذا هو النصفُ وهذا هو داعي الرشدِ والعقلِ وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيدٌ والسلامُ على من اتبعَ الهدىٰ.

التوكل

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ القاهرِ بقدرتِه، الظاهرِ بعزّتِه، الغالبِ بقوتِه، خلقَ الخلقَ على غيرِ مثالٍ. هو الأولُ ليس قبلَه شيءٌ، وهو الآخرُ ليسَ بعده شيءٌ، وهو الظاهرُ ليس فوقه شيءٌ، وهو الباطنُ ليس دونَه شيءٌ. المنشىءُ لما شاءَ بمشيئتِه، ولما سبق عندَه في علمه، إذا أراد شيئاً فإنما يقولُ له كنْ فيكون. سبحانه جلَّ ثناؤُه وتقدَّستْ أسماؤه على ما يستحقُّ ذلك من خلقِه وكما هو أهلٌ لذلك في كبريائه وعظمتِه وجلالِه. وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، ولا ربَّ لنا سواه، و لانعبدُ إلا إياه. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه بعثه اللهُ للعالمين هدىً ورحمةً، وجعلَ رزقَه تحت ظلِّ رمحِه، والعزةَ والنصرَ لمن أطاعه واتبعه، والذلةَ والصغارَ لمن خالفَ أمرَه. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحابتِه الغرِّ الميامين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ. فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجل، فاتقوه رحمكم اللهُ، واعتصموا بحبلِه حقَّ الاعتصام، واستمسكوا بالعروةِ الوثقىٰ التي ليس لها انفصامُ. حبلُ اللهِ الاقرارُ بتوحيدِه، وأداءُ فرائضِه، وإقامةُ حدودِه، والتصديقُ بوعدِه ووعيدِه؛

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

أيها المسلمون: طلبُ الرزقِ غريزةٌ عند كلِّ الأحياءِ، فما أن تبدو بوادرُ الصباحِ حتى يستغدَّ الفلاحون والتجارُ، وأصحابُ الصنائعِ والحرفِ، وأربابُ الوظائفِ والإداراتِ، يستعدون للدخولِ في كدحٍ طويلٍ كي يحرزَ كلُّ امرئٍ منهم قوتَه وقوتَ عياله.

وهذا الكدحُ الطويلُ والسعيُ الحثيثُ محكٌّ قاسٍ للأخلاقِ والمسالكِ، والثباتِ واليقينِ، والطمأنينةِ والرضىٰ.

إن اللهفَ على تأمينِ العيشِ، واللهاثَ من أجلِ سدِّ أفواه الصغارِ والضعافِ قد يلجىءُ بعضَ النفوس إلى الختْلِ والتلونِ، والكذبِ والحيفِ، والتدليس والغشِّ. وربما وُجدَ ضعافٌ يتملقون أقوياءَ، وأذلاءُ يذوبونَ في أعتابِ كُبراءَ.

إن إلحاحَ الرغبةِ في طلبِ الكفافِ أو طلبِ الثراءِ مع وعورةِ الطريقِ، وطولِ المراحلِ والمنازلِ في هذه الحياةِ، وشعورِ المرءِ بالحاجةِ إلى ناصرٍ ومؤنسٍ مع ما قد يلاقي من أعداءَ ومتربصين؛ كلُّ ذلك قد يدفعُ إلى اللؤمِ والذلةِ وسلوكِ المسالكِ الملتويةِ.

ولكن دينَ الإسلام يأبىٰ ثم يأبىٰ أن يكونَ الكدحُ وراءَ الرزقِ مزلقةً لهذه الآثامِ كلِّها، وينهىٰ ويكرهُ أن يلجأَ المسلمُ أبداً إلى غشٍ أو ذُلٍ أو ضَيمٍ ليجتلبَ به ما يشاءُ من حطامٍ.

وفي سدِّ هذا الطريقِ يقولُ عليه الصلاةُوالسلامُ: «**لا يحملنَّكم استبطاءُ الرزقِ أن تأخذوه بمعصيةِ اللهِ فإن اللهَ لا يُنالُ ما عندَه إلا**

بطاعتِه»[1].

إذن ما هو المخرجُ؟ وما هو الحلُّ من هذه المعضلةِ التي يعيشُها فئامٌ من الناسِ على ظهرِ هذه البسيطةِ؟ يتهارشون ويأكلُ بعضُهم بعضاً، ويظلَمُ بعضُهم بعضاً؟؟ وفي عصرنا شاهدٌ كبيرٌ وأنموذجٌ ماثلٌ على هذه الصورةِ المزريةِ!!.

اسمعوا إلى هذا الحديثِ من نبيِّكم محمدٍ ﷺ؛ عن عمرَ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**لو أنكم تتوكلون على اللهِ حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بطاناً**»[2].

وابن مسعودٍ رضي الله عنه يقولُ: (إن من ضعفِ اليقين أن ترضيَ الناسَ بسخطِ اللهِ وأن تحمدَهم على رزقِ اللهِ وأن تذمَّهم على ما لم يؤتِكَ الله؛ إن رزقَ اللهِ لا يجرُّه حرصُ حريصٍ ولا تردُّه كراهيةُ كارهٍ، وإن اللهَ بقسطِه وعدلِه جعلَ الرَّوْحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعلَ الهمَّ والحَزَنَ في الشكِّ والسَّخَطِ.

أيها الإخوةُ: إنه التوكلُ على اللهِ. التوكلُ شعورٌ ويقينٌ بعظمةِ اللهِ وربوبيتِه وهيمنتِه على الحياةِ والوجودِ والأفلاكِ والأكوانِ. فكلُّ ذلك محكومٌ بحولِه وقوتِه سبحانه.

---

(١) رواه البزار وقال: رواته ثقات إلا قدامة بن زائدة بن قدامة فإنه لا يحضرني فيه جرح ولا تعديل انظر الترغيب والترهيب (٢/ ٥٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٩٥ ـ ح٢٣٤٤) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤ ـ ح٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠) واللفظ له، والحاكم (٤/٣١٨) وقال: صحيح الاسناد وسكت عنه الذهبي.

التوكلُ قطعُ القلبِ عن العلائقِ، ورفضُ التعلقِ بالخلائقِ، وإعلانُ الافتقارِ إلى محوِّلِ الأحوالِ ومقدِّر الأقدارِ لا إله إلا هو. إنه صدقُ اعتمادِ القلبِ على اللهِ عزَّ وجلَّ في استجلابِ المصالحِ ودفعِ المضارِّ ولا ينفعُ ذا الجدِّ منه الجدُّ.

التوكلُ صدقٌ وإيمانٌ، وسكنيةٌ واطمئنانٌ، ثقةٌ بالله في اللهِ، وأملٌ يصحبُ العملَ، وعزيمةٌ لا ينطفيءُ وهجُها مهما ترادفتْ المتاعبُ. بالتوكلِ تُرفعُ كبواتُ البؤس، وتُزجرُ نزواتُ الطمع. لا يكبحُ شرهَ الأغنياءِ ولا يرفعُ ذلَّ الفَقراءِ سوى التوكلِ الصادقِ على الحيِّ الذي لا يموت.

يقولُ سعيدُ بن جبيرٍ رحمه الله: التوكلُ على اللهِ جماعُ الإيمانِ. المتوكلُ على اللهِ ذو يقظةٍ فكريةٍ عاليةٍ ونفس مؤمنةٍ موقنةٍ. قال بعضُ الصالحين: متى رضيتَ بالله وكيلاً وجدّتَ إلى كلِّ خيرٍ سبيلاً.

وقال بعضُ السلفِ: بحسبِك من التوسلِ إليه أن يعلم من قلبِك حُسنَ توكلكَ عليه.

التوكلُ إيمانٌ بالغيبِ بعد استنفادِ الوسائلِ المشروعةِ في عالمِ الشهادةِ. تسليمُ للهِ بعدَ أداءِ كلِّ ما يرتبطُ بالنفسِ من مطلوباتٍ وواجباتٍ.

أيها الإخوةُ: وأولُ بواعثِ التوكلِ ومصادره توحيدُ اللهِ وإفرادُه بالعبادةِ؛ فالربُّ المعبودُ سبحانه: له الأسماءُ الحسنىٰ والصفاتُ العلا ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ . .﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٣] ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا

يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٨٥]. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

التوكلُ أجمعُ أنواعِ العباداتِ، وأعلى مقاماتِ التوحيدِ، وأعظمُها وأجلُّها. وما ذلك إلا لما ينشأ عنه من الأعمالِ الصالحةِ، والرضىٰ العميقِ، واليقين الثابتِ.

ولقد جاءَ الأمرُ به في كتابِ اللهِ في أوجهٍ مختلفةٍ، وسياقاتٍ متعددةٍ، ومناسباتٍ متكاثرةٍ. بل لقد جعلَه شرطاً للإسلامِ والإيمانِ فقال سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]. قال أهلُ العلمِ: فدل ذلك على انتفاءِ الإسلامِ والإيمانِ بانتفائه.

وقال عن أنبيائِه ورسلِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢] وقال لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩]. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣]. ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١]. ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩].

وقال عن أصحاب نبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال في صفاتِ المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال في جزاءِ المتوكلين: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣] ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى: ٣٦].

أيها الإخوةُ: هذا هو التوكلُ في حقيقتِه، وأثرِه، وجزائِه، وصفاتِ أهلِه لكنه ما كان تواكلاً ولا اتكاليةً، وما كان ضَياعاً ولا اهمالاً للسننِ والأسبابِ.

إن تحقيقَ التوكلِ لا ينافي السعيَ والأخذَ بالأسبابِ البتَّةَ. إن السعي في الأسبابِ بالجوارحِ طاعةٌ للهِ، والتوكلَ على اللهِ بالغيبِ إيمانٌ بالله.

إن المتوكلين في كتابِ الله هم العاملون: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

وإمامُ المتوكلين نبيُّنا محمدٌ ﷺ، وسيرتُه جليةٌ محفوظةٌ؛ فقد اختفىٰ في الغارِ عن الكفارِ، وظاهرَ في بعضِ غزواته بين درعين[(١)]، وتعاطىٰ الدواءَ، وقال: «**من يحرسنا الليلة**»[(٢)] وأمر بغلقِ البابِ واطفاءِ النارِ عند المبيتِ[(٣)] وقال لصاحب الناقة:

---

(١) أي لبس درعين فوق بعضهما زيادة في الوقاية والتحصين.

(٢) أخرجه أبوداود (٣/ ٩ ـ ح٢٥٠١)، وأحمد (١/ ٣٩١).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٩١ ـ ح٥٦٢٣)، ومسلم (٣/ ١٥٩٤ ـ ح٢٠١٢).

«اعقلها وتوكل»[1].

وقال سبحانه لنبيِّه لوطٍ عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥] وأوحىٰ إلى نبيِّه موسىٰ: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢]. ونادىٰ أهلَ الإيمانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

فليس التوكلُ بإهمالِ العواقبِ واطراحِ التحفظِ، بل ذلك عند العقلاءِ والعلماءِ عجزٌ وتفريطٌ يستحقُّ صاحبُه التوبيخَ والاستهجانَ.

ولم يأمرْ اللهُ بالتوكلِ إلا بعدَ التحرزِ واستفراغ الوسعِ فقال عز شأنه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن العبدَ المؤمنَ ليجمعَ بين فعلِ الأسبابِ والاعتصامِ بالتوكلِ، فلا يجعل عجزه توكلاً، ولا توكلَه عجزاً. إنْ تعسرَ عليه شيءٌ فبتقديرِ اللهِ وإن تيسرَ له شيءٌ فبتيسيرِ اللهِ.

يقولُ سهلٌ التُّستَري: من طَعَنَ في الحركةِ والسعي فقد طعنَ في السنةِ، ومن طعنَ في التوكلِ فقد طعنَ في الإيمانِ. فالتوكلُ حالُ النبيِّ ﷺ، والكسبُ سنتُه فمن عملَ على حالِه فلا يتركنَّ سنتَه.

والمسلمُ المتوكلُ يخرجُ من بيتِه متوجهاً إلى عملِه ومهنتِه، تزدلفُ قدمُه من عتبةِ بابِه وهو يقول: **«باسم اللهِ، توكلتُ على اللهِ، لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، اللهمَّ إني أعوذ بك أن أزِلَّ أو**

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٥٧٦ ـ ح٢٥١٧).

أُزَلَّ، أو أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَظلمَ أو أُظْلَم أو أجهلَ أو يُجهلَ عليَّ»[1].

وقد كان من ذكرِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**اللهم لكَ أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليكَ توكلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، أعوذُ بعزتِك، لا إله إلا أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ، والجنُّ الأنسُ يموتون**»[2].

ومن قال: باسم اللهِ توكلتُ على اللهِ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ يقالُ له حينئذٍ كُفيتَ ووُقيتَ وهُديتَ، وتنحىٰ عنه الشيطانُ[3]. وهو يقولُ لشيطانٍ آخر: ما تريدُ من عبدٍ قد هُديَ وكُفيَ وحُفظ؟؟. وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل: ٩٩].

أيها الإخوةُ: وثَمتَ موطنٌ من مواطنِ العملِ لا يكونُ على وجهِهِ، ولا تتحققُ غايتُه إلا حينما يكونُ التوكلُ لبَّه وعمودَه. إنه موطنُ الصبرَ والحقِّ الذي يحملُ عبئَه أنبياءُ اللهِ عليهم السلامُ ومن اقتفىٰ أثرَهم من أهلِ العلمِ والإيمانِ والصلاحِ والإصلاحِ. إن كلَّ أولئك يتعرضون لمخاوفَ مزعجةٍ، لا يثبتونَ على الرَّوعِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٧ ـ ح٣٤٢٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأبوداود (٤/ ٣٢٥ ـ ح٥٠٩٤)، والنسائي (٨/ ٢٦٨)، وأحمد (٦/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥ ـ ح١١٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦ ـ ح٢٧١٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٦ ـ ح٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأبوداود (٤/ ٣٢٥ ـ ح٥٠٩٥) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٨ ـ ح٣٨٨٦).

والغبنِ إلا لأملِهم في اللهِ واستنادِهم إليه، لا يثبتون إلا بالتوكلِ الذي ينيرُ أمامهم ظلماتِ حاضرِهم، ويعينُهم على مواجهةِ الأخطارِ بعزمٍ وثقةٍ واطمئنانٍ.

وما يلاقيه الأنبياءُ شيءٌ عظيمٌ يجسدُه قولُ موسىٰ وأخيه عليهما السلامُ وقد أمرهما ربُّهم أن يذهبا إلى فرعونَ فقالا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٥]. فجاءهما الدواءُ البلسمُ ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦].

إنه الشعورُ الكبيرُ والعميقُ بمعيةِ اللهِ وعنايتِه، ذلكم هو المؤنسُ في الموحشاتِ، والمشجعُ في الرهباتِ. وهذا هو هو أبوبكرٍ الصديقُ رضي الله عنه يقولُ: نظرتُ أقدامَ المشركين ونحنُ في الغارِ وهم على رؤوسنا فقلتُ يا رسولَ اللهِ لو أن أحدَهم نظرَ تحتَ قدميه لأبصرنا؛ فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما**»[١]. والله عز وجل يقول في محكم كتابِه: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وحينما﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣].

جاء الجوابُ على لسان خطيبِ الأنبياءِ شعيبٍ عليه وعلى نبيِّنا وعلى جميع أنبياءِ الله الصلاةُ والسلامُ ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١١ ـ ح٣٦٥٣)، وأحمد (١/ ٤) واللفظ له.

﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: ٨٩].

إنه المجدُ الشامخُ لا يخطُّه إلا نفرٌ من المؤمنين المتوكلين ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٩﴾ [الملك: ٢٩].

التوكل

الخطبة الثانية

الحمد للهِ لا شريكَ له في مُلكِه، ولا مانعَ له في أمرِه، ولا مقاومَ له في عزِّه، هو المتفردُ بالأمرِ كلِّه. سبحانه وبحمدِه جلَّ ثناؤُه، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ١٢٣].

وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه بعثه بالهدىٰ ودينِ الحقِّ ليظهرَه على الدينِ كلِّه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد أيها المسلمون: من كان باللهِ وصفاتِه أعلمَ وأعرفَ كان توكلُه أصحَّ وأقوىٰ... ومن لم يكنْ كذلك فهو يظنُّ أن حظوظاً عمياءُ هي التي تقررُ مصائرَ الحياةِ والأحياءِ.

إن المقطوعين عن اللهِ هم عبيدُ الحظوظِ الشاردةِ والأسبابِ المبتورةِ.

وقد قال بعضُ أهلِ العلم: أن الفلاسفةِ والماديين لا يصحُّ منهم توكلٌ كما لا يكونُ ذلكَ من القدريةِ النفاةِ الذين يعتقدون أنه يقع في ملكِ اللهِ ما لا يريدُ ولا يشاءُ، تعالىٰ اللهُ عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً.

إن التوكلَ على اللهِ لا يعرفُه العاطلون البطالون.

ضعيفُ التوكلِ لا هو عند الوجودِ يشكرُ رتبتَه، ولا هو عند العدم يرضىٰ حالته.

وإن من الجهلِ باللهِ وصفاتِه وضعفِ الإيمانِ بوعدِه ووعيدِه أن يتوقعَ أحدٌ الخذلانَ والضياعَ وهو مرتبطٌ بربِّه معتمدٌ عليه، واللهُ يقول: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزمر: ٣٦ ـ ٣٧].

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

والمحرومُ لن يدركَ مهما طلبَ، والمرزوقُ سوف يأتيه رزقُ مهما قعدَ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم الله، وأجملوا في الطلبِ، ولا تفرطوا في السببِ، وتوكلوا على اللهِ فإن اللهَ يحبُّ المتوكلين.

الكهنة والمشعوذين

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ أهلِ الحمدِ والثناء، يُضلُّ بعدلِه ويهديْ بفضلِه، من اهتدىٰ من عبادِه فلنفسِه سعىٰ، ومن عذابِ اللهِ نجا، ومن أعرضَ وأبىٰ فعلى نفسِه جنىٰ، وإن الجحيم هي المأوىٰ، وأشهد ألا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له له الحمدُ في الآخرة والأولىٰ، وأشهد أن سيدَّنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، أنقذ به من الضلالةِ، وهدىٰ به من العمىٰ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أئمةِ الهدىٰ، ومصابيحِ الدجىٰ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وعلى طريقِهم اقتفىٰ.

أما بعدُ فيا أيُّها الناسُ اتقوا اللهَ ربّكم، فهو سبحانه أحقُّ أن يطاعَ فلا يعصىٰ، ويذكرَ فلا يُنسىٰ، ويشكرَ فلا يكفرُ.

أيُّها المسلمون: ربُّنا اللهُ الذي في السماءِ تقدسَ اسمُه، ولا إله غيرُهُ. من اعتصمَ به هُديَ إلى صراطٍ مستقيم، ومن استعان به واستعاذَ أوىٰ إلى ركنٍ شديدٍ. نزَّلَ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين. أعظمُ ما تتعلقُ به القلوبُ رجاؤه. وأعذبُ ما تلهجُ به الألسنُ ذكرُه ودعاؤه. سبحانُه وتقدسَ وتباركَ لاشفاءَ إلا شفاؤُه.

خلقَ الأجسادَ وعِلَلَها، والأرواحَ وأسقامَها، والقلوبَ

وأدواءَها، والصدورَ ووَسْوَاسَها.

أيها الإخوةُ: صلاحُ الجسدِ مرتبطٌ بصحةِ المعتقدِ، بل متى يصلحُ الجسدُ إذا لم يصلحْ المعتقدُ؟؟.

حين يضعفُ وازعُ الإيمانِ، ويختلُّ ميزانُ الاعتقادِ تختلطُ الحقائقُ بالخرافةِ، وتنتشرُ الخزعبلاتُ والأوهامُ، ويفشو الدجلُ والشعوذةُ. ويضيعُ الحقُّ بين فريقين؛ ضلَّالٌ ماديون ينكرون الغيبَ وعالَمَه ويكفرون بما جاءَت به رسلُ اللهِ من الحقِّ، وكلُّ ما عدا المادةَ فهي عندهم أساطيرُ وأوهامٌ من معتقداتِ المجتمعاتِ البدائيةِ، أساطيرُ تخطَّاها الإنسانُ المتحضرُ. الإيمانُ بالغيبِ عندهم ردةٌ حضاريةٌ إلى عصورِ الظلامِ.

يقابلهم فريقٌ آخرُ عششتْ الخرافاتُ في رؤوسِهم وامتلأتْ بالخزعبلاتِ صدورُهم، تعلقت قلوبُهم بالسحرِ والكهانةِ، ارتبطتْ مصائرهم بالتنجيمِ والعِرافَة، ضربٌ بالكفِّ والرملِ، ونظرٌ في الوَدَعِ والخَرَزِ، واستشفاءٌ بالأنواءِ.

وكلا الفريقين قد سلك مسلكَ الجاهليةِ. أما الأولون فجاهليتُهم الإعراضُ عن العلمِ المتنزلِ على رسلِ اللهِ، ورفضُ ما جاء به المرسلون. فلاسفةٌ وملاحدةٌ وزنادقةٌ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

وأما الآخرون فاعتمدوا على التقاليدِ الفاسدةِ وبنوا حياتَهم على الظنونِ والتخرصاتِ وتعلقوا بأهلِ الكهانةِ والسحرِ والتنجيم فهم في لونٍ آخرَ من الجاهليةِ الجهلاءِ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ

﴿مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

أيُّها المسلمون: إن الإنسانَ جسدٌ وروحٌ، فكما يتأثرُ بالمادةِ وأسبابِها من طعامٍ وشرابٍ، وحرٍ وقرٍ، وغذاءٍ ودواءٍ، فإنه يتأثرُ بالمؤثراتِ الروحيةِ بإذنِ اللهِ.

فالشيطانُ وجنودُه جعل اللهُ لهم تسلطاً على بني آدمَ؛ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤] ﴿ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧].

وأخبرَ نبيُّكم محمدٌ ﷺ «أنه ما من أحدٍ من بني آدمَ إلا وقد وُكِّلَ به قرينُه من الجنِّ، قالوا: وإياك يا رسولَ اللهِ، قال: **وإيّايَ إلا أن اللهَ أعانني عليه فأسلمَ فلا يأمرُني إلا بخيرٍ**»[1] أخرجه مسلم. وفي خبرٍ عند مسلمٍ أيضاً: «**إن الشيطان يحضرُ أحدَكم عند كلِّ شيء من شأنه**»[2].

بل إن هذا التأثيرَ ـ أيها الإخوةُ ـ منه ما هو وسوسةٌ وإيحاءٌ، ومنه ما هو محسوسٌ وملموسٌ.

وتظهر الوسوساتُ والإيحاءاتُ في صورٍ وأحوالٍ من الدوافعِ والانفعالاتِ ففي هاجس الفقرِ وحبِّ المالِ ومسالكِ الفحشاءِ: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وفي

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٧ ـ ح٢٨١٤)، وأحمد (١/ ٤٦٠).
(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٠٧ ـ ح٢٠٣٣).

حب الأولاد والعواطف: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] «**والنظرة سهم من سهام إبليس**»[1]. وفي انفعالاتِ الغضبِ يتغلغلُ الشيطانُ ليخرجَ المرءُ عن طورِهِ المعتدلِ فيسبُّ ويشتمُ ويقطعُ الرحَم ويُطلِّق. وفي الحديث: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»[2] متفق عليه.

حتى انفعالات الغيرةِ النسائيةِ أيها الأخواتُ المسلماتُ للشيطانِ فيها نصيبٌ. فحينما افتقدتْ عائشةُ رضي الله عنه حبيبَها محمداً ﷺ ذات ليلةٍ أدركتْها الغيرةُ. فقال لها عليه الصلاةُ والسلامُ: «**أو قد جاءك شيطانُك**؟ فقالت: أو معي شيطانٌ؟ **قال: نعم**. قالت: ومع كلِّ إنسانٍ؟ **قال: نعم**»[3]. رواه مسلم.

بل إن الشيطانَ قد يَبثُّ المخاوفَ في النفس، ويهزُّ القلوبَ بالقلقِ والحَزَنِ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المجادلة: ١٠].

ويترقى ذلك إلى بثِّ النزغاتِ العداونيةِ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وفي الخبرِ الصحيح: «**إن الشيطان يئس أن يعبدَهُ المصلون في جزيرةِ العربِ ولكنه لم**

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني والحاكم انظر الترغيب والترهيب (٣/ ٣٤)، وقد أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٣)، وقال: صحيح الاسناد ولكن الذهبي تعقبه فقال: (اسحاق واه، وعبدالرحمن هو الواسطي ضعفوه).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (١٠/ ٥٣٥ ـ ح٦١١٥)، ومسلم (٤/ ٢٠١٥ ـ ح٢٦١٠) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢١٦٨ ـ ح٢٨١٥)، وأحمد (٦/ ١١٥).

ييأس في التحريشِ بينهم»[1].

أما التأثيرُ المحسوسُ الملموسُ فقد أخبر عليه الصلاةُ والسلامُ «**أن كل بني آدمَ يُطعنُ في جنبِه باصبعِه حين يُولد ـ أي بإصبع الشيطان ـ**»[2]. رواه البخاري، وقال أيضاً: «**إن عدوَّ اللهِ إبليسَ جاء بشهابٍ من نارٍ ليجعلَه في وجهي**»[3]. رواه مسلم.

وهذه الآثارُ ـ أيُّها الأحبةُ ـ معنويُّها وحسيُّها لها علاجُها ووقايتُها إذا رُزقَ العبدُ إرادةً قويةً مؤمنةً متعلقةً بربِّها واثقةً به: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩ـ١٠٠].

جيء إلى النبيِّ ﷺ بصبي به مسٌّ من الشيطانِ فنفثَ عليه الصلاةُ والسلامُ في فيه ثلاثاً وقال: «**بسم الله أنا عبدُالله اخسأْ عدوَّ اللهِ**»[4].

واشتكىٰ ابنُ أبي العاصِ إلى النبيِّ ﷺ شيئاً يأتيه يصرفُهُ عن صلاتِهِ، فقال ﷺ: «**ذاك شيطانٌ ثم ضربَ على صدرِ ابن أبي العاصِ وقال: أخرجْ عدوَّ اللهِ (ثلاثا)**»[5] رواه ابن ماجه بسندٍ صحيح.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٦٦ ـ ح٢٨١٢)، والترمذي (٤/ ٢٩١ ـ ح١٩٣٧) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢/ ١٠١٥ ـ ح٣٠٥٥)، وأحمد (٥/ ٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٨٨ ـ ح٣٢٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٣٨٥ ـ ح٥٤٢)، والنسائي (٣/ ١٣).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٨) وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي، وأحمد (٤/ ١٧٠) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١١٧٤ ـ ح٣٥٤٨).

وإذا تثاءبَ أحدُكم فليمسكْ بيده على فيهِ فإن الشيطانَ يدخلُ[1]. وإذا استيقظَ أحدُكم من منامِه فليستنثرْ فإن الشيطانَ يبيتُ على خيشومِه[2].

إذا كانَ الأمرُ كذلك ـ أيُّها المسلمون ـ فلتعلموا أن الناسَ تختلفُ في ضعفِ نفوسِها، وقوةِ إرادتِها، وصدقِ يقينِها وتعلقِها بربِّها، وقوةِ تأثيرِ الوساوسِ عليها.

فأهلُ الإيمان والتقوىٰ: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] تذكروا ورجعوا إلى ربِّهم، موقنينَ أنه النافعُ الضارُّ الحكيمُ المدبِّرُ: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ يهديهم ربُّهم بإيمانِهم، فيعتدل حالُهم ويستقيمُ مَزاجُهم، اتقوْا ربَّهم فجعلَ لهم نوراً يمشون به: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. إنهم مؤمنون غيرُ متذبذبين، مُتَّزِنون غيرُ مترددين، إيمانٌ راسخٌ، ومعتقدٌ ثابتٌ لاتُقْعِدُهم الضغوطُ، ولا تستفزُّهم الأوهامُ، شيطانُهم في وسواسِهِ خناسٌ. نفوسٌ طيبةٌ بذكرِ اللهِ مطمئنَّةٌ، ترضىٰ بربِّها، وتؤمنُ بما جاءَ من عندِه، مُتطهرةٌ من الغلِّ صادقةٌ في التعاملِ.

وثمَّتَ نفوسٌ ذاتُ ترددٍ وتعجُّلٍ، وقلةِ صبرٍ وقلقٍ، متسرعةٌ

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١٠/ ٦٢٦ ـ ح٦٢٢٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٣ ـ ح٢٩٩٥).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٦/ ٣٩١ ـ ح٣٢٩٥)، ومسلم (١/ ٢١٣ ـ ح٢٣٨).

في مواقفِها، متقلبةٌ في انفعالاتِها، تتعرضُ للمزعجاتِ النفسيةِ، والمقلقاتِ الداخليةِ، يتلبَّسُها الخوفُ والاضطرابُ، والعدوانُ والغضبُ، ضعيفةُ الإبصارِ، مهتزةُ الجنانِ: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٢] سرعانَ ما ينساقون وراءَ الأوهامِ، بل ينجرُّون إلى ألوانٍ من الانحرافاتِ والمعاصي، فيكثرُ وَسْواسُهم، ويعظم بغير اللهِ تعلقُهم، ويشتدُّ بالخزعبلاتِ اهتمامهم فيما يسمعون، وفيما يرون، وفيما يُعْطَون.

أيها الأحبةُ: إن عقيدةَ المسلم في كتابِ اللهِ واضحةٌ وفي سنةِ رسولِ اللهِ بينةٌ. القرآنُ لهذه الأدواءِ هو الشفاءُ ولكنه لأهلِ الإيمانِ خاصةً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

علاجُ أدوائِكم في قرآنِكم وفي سنةِ نبيِّكم محمدٍ ﷺ. وطلبُ العلاجُ مشروعٌ، والأخذُ بالأسبابِ المباحةِ مطلوبٌ، فقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أن لكلِّ داءٍ دواءاً، فإذا أصابَ الدواءُ الداءَ برأ بإذن اللهِ**»[1] وقال أيضا: «**ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاءً**»[2] هذا هو لفظ البخاري، وزاد أحمدُ: «**علِمَهُ من عَلِمَهُ وجهله من جهله**»[3]. وهذا الدواءُ لا يكونُ ولن يكونَ فيما حرَّمَ اللهُ ورسولُه، فتداووْ عبادَ اللهِ ولاتتداووْ بحرامٍ.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١٠/ ١٤١ ـ ح٥٦٧٨)، ومسلم (٤/ ١٧٢٩ ـ ح٢٢٠٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ١٤١ ـ ح٥٦٧٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٥ ـ ح٢٠٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٣٨ ـ ح٣٤٣٩).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧).

«وليس منا من تطيَّرَ أو تُطُيِّرَ له، أو تكهَّنَ أو تُكهِّنَ له، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له»[1]، **«ومن أتىٰ كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزلَ على محمدٍ ﷺ»**[2].

وحصولُ البرءِ والشفاءِ بيدِ اللهِ وإذنِه، فلا يأسَ من رَوْحِ اللهِ، ولا استبعادَ لفرجِ اللهِ، **«وعجباً لأمرِ المؤمنِ، وأمرُهُ كلُّه خيرٌ، إن أصابته سراءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابتهُ ضراءُ صبر فكان خيراً له ولا يكون ذلك إلا لمؤمن»**[3].

هذه هي العقيدةُ وهذا هو المنهجُ، ولكن أين العقيدةُ من أناسٍ خفافيشِ القلوبِ ضعافِ النفوسِ تعلَّقوا بالدَّجالينَ، ولحقوا بركابِ المشعوذينَ؟ ضلُّوا في متَاهاتِ الكذبِ والكهانةِ، فسادُ معتقدٍ، وضياعُ مالٍ، ودوامُ مرضٍ.

إنكم تعلمون والمرضىٰ يعلمون أنهم قل ما يجدون عند هؤلاء الدجاجلةِ شفاءً، ولكنهم قد يجدون عندَهم راحةً نفسيةً لفترةٍ قصيرةٍ، ثم لا يلبثون أن ينتكِسُوا إلى حالٍ أشدَّ، فلا شُفِيَ لهم مريضٌ، ولا ارتفعتْ عنهم حيرةٌ. أضاع نفسَهُ وخسِرَ مالَه، وهل سلِمَ له دينُه؟.

غَرِقُوا في دَجَلٍ وشعوذاتٍ وعُقَدٍ وهمْهمَاتٍ وعزائمَ وطلاسمَ

---

(١) قال الهيثمي (٥/١١٧): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا اسحاق بن الربيع وهو ثقة.

(٢) أخرجه أبوداود (٤/١٥ ـ ح٣٩٠٤)، والترمذي (١/٢٤٢ ـ ح١٣٥) وأشار إلى ضعفه، وابن ماجه (١/٢٠٩ ـ ح٦٣٩)، وأحمد (٢/٤٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٥ ـ ح٢٩٩٩)، وأحمد (٤/٣٣٣).

وتلطخ بالنجاساتِ، في المقابرِ والخرباتِ وبيوتِ الخلاءِ، يعقدونَ الخيوطَ، وينفثون العُقَدَ، ويوقدونَ المباخرَ، ونعوذ بالله من شرِّ النفاثاتِ في العقدِ. كثيرٌ منهم معالِجون ذوو قلةٍ في الديانةِ، وخبثٍ في النفسِ، وشرٍ في العملِ، وفتنةٌ للذين في قلوبِهم مرضٌ.

ناهيكَ بما يظهرُ من مخالفاتٍ في الدينِ بينةٍ، في تكاسلٍ عن الصلاةِ، وخللٍ في السلوكِ، وجُرأةٍ على الحرماتِ، وأكلٍ لأموالِ الناسِ بالباطلِ، وخلواتٍ بالنساء محرمةٍ، بل قد يباشرُ ما لا يحلُّ له مِن نظرٍ ومَسٍّ.

إن ضررَ هؤلاءِ يتعاظمُ، وخَطْبَهم يشتدُّ، فحقٌ على أهلِ العلم والإيمانِ أن يشتدَّ نكيرُهم، وإن الله ليزعُ بالسلطانِ ما لا يزعُ بالقرآن، فعلى ولاةِ أمورِ المسلمين أن يُخلِّصُوا هؤلاء الضعافَ العامةَ من أشباهِ الرجالِ والنساءِ والصبيانِ، يُخلِّصُوهم من براثنِ الأفَّاكين الأكالين لأموالِ الناس بالباطلِ، عبدةِ الدرهم والدينارِ، الذين ينازعون اللهَ ربَّ العالمَين ما اختصَّ به من الربوبيةِ وعلمِ الغيبِ، ويُضبطُ ذلك وينظمُ بضوابطِ الشرعِ وما ينفعُ الناسَ.

ولقد حَمِدَ كلُّ صاحب سنةٍ ودينٍ ما قام به ولاةُ أمورِ هذه البلادِ وفقهم اللهُ من متابعةٍ لهؤلاءِ المشعوذين[١] والدجالين، وإنزالِ العقابِ الرادعِ بهم بما تقضيْ به الشريعةُ المطهرةُ، سدد اللهُ الخطىٰ، وباركَ في الجهودِ وزادهم إحساناً وتوفيقاً وحفظ اللهُ على أمةِ الإسلامِ دينَها وحُسْنَ معتقِدِها وأصلحَ بالَها إنه سميعٌ مجيبٌ.

---

(١) وافق ذلك إقامة حد على ساحر بالقتل.

في الكهنة والمشعوذين

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ كفىٰ وشفىٰ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَّنا ونبيِّنا محمداً عبدُه ورسولُه النبي المصطفىٰ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ البرِّ والوفاءِ والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على هديهم واقتفىٰ.

أما بعد فيا أيُّها الناسُ: من تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه، فمن تعلَّق بربِّه ومولاه ربِّ كلِّ شيءٍ ومليكِه كفاه ووقاهُ وحفظه وتولاه، فهو نعمَ المولىٰ ونعمَ النصير، ومن تعلَّق بالكهنةِ والسحرةِ والشياطينِ والمشعوذين وغيرِهم من أفَّاكي المخلوقين وكلَه اللهُ إلى من تعلَّقَ به.

والتعلقُ يكونُ بالقلبِ وبالفعلِ ويكون بهما جميعاً، فالمتعلقون بربِّهم المُنْزِلون حوائِجَهم به، المفَوِّضون أمورَهم إليه، يكفيهم ويحميهم يقرِّبُ لهم البعيدَ، وييسرُ لهم العسيرَ، ومن تعلقَّ بغيرِ ربِّه، وسكن إلى رأيه وعقلِه واعتمدَ على دوائِه وتمائمه وكَلَه إلى ما تعلَّق به وخذله.

يقول عطاءٌ الخراسانيُّ: لقيتُ وهبَ بنَ منبِّهٍ وهو يطوفُ بالبيتِ، فقلتُ: حدِّثنيْ حديثاً أحفظُه عنكَ في مقامي هذا

وأوجزْ، قال: نعمْ. أوحىٰ اللهُ تباركَ وتعالىٰ إلى نبيِّه دوادَ؛ يا دوادُ: أما وعزِّتي وعظمتي لا يعتصمُ بي عبدٌ من عباديْ دونَ خلقي أعرفُ ذلك من نيَّتِه فتكيدُهُ السمواتُ السبعُ ومن فيهنَّ، والأرضون السبعُ من فيهنَّ إلا جعلتُ له من بينهنَّ مخرجاً، أما وعزِّتي وعظمتي لا يعتصمُ عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك من نيَّته إلا قطعتُ أسبابَ السماءِ من يدِه، وأسختُ الأرضَ من تحتِ قدمِهِ ثم لا أبالي بأيِّ أوديتِها هلكَ.

ألا فاتقوا اللهَ ربَّكم. وأحسِنوا به الظنَّ والمعتقدَ وأحسنوا العملَ، فربُّكم سبحانه ربُّ الأربابِ ومسببُّ الأسبابِ، وتداووا ولا تداووا بحرامٍ.

النفاق والمنافقون

الخطبة الأولى

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضاه، وأشكره وأثني عليه لعظيم فضلِه وجزيلِ عطاياه، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله، وخليله ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجه واقتفاه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعدُ: أيُّها المسلمون: المرءُ جوهرٌ ومظهرٌ، فجوهرهُ ما يجتمعُ فيهِ من حقائق الإيمانِ والأخلاقِ، ومدركاتِ العقلِ والعلمِ، وخبراتِ العملِ والانتاجِ.

أمَّا مَظهرُهُ فصفاته الجسميةِ وممتلكاتُه الماديةُ ووجاهتُه الظاهريةُ مما لا يتصلُ ببنائِه. ديناً وعقلاً، وتربيتِهِ خُلقاً وفكراً.

ومن غيرِ المنكورِ أن للمظهرِ تأثيراً في المخبرِ، فبينهما ترابطٌ

وتجاذبٌ، وتلازمٌ وتناسقٌ. وذلك شيءٌ يقره الدين ولا تُغْفِلُه التربية، ولأجلِ هذا أُمِرَ المسلمون بالانضباطِ وحسنِ المظهرِ في صلواتِهم وتسويةِ صفوفِهم وقيامِهم لربِّهم قانتين. ولمثلِ هذا جاءَ الأمرُ بالتطهُّرِ والتنظفِ والتطيبِ وحُسْنِ الملبس. وفي الجهادِ تكون صفوفُ المجاهدين كالبنيانِ المرصوص طاعَةً وانقياداً.

ولكنَّ المشكلةَ تظهرُ وتَتَبيَّنُ حينما تَختلُّ في ذلك المقاييسُ وتضطربُ الموازينُ. ذلك أن للشكلِ الظاهرِ وصورِ المظاهرِ سلطاناً قوياً في التأثيرِ، وانتزاعِ الاعجابِ، وانبهارِ الألبابِ.

ولقد نبَّه نبيُّنا محمدٌ ﷺ أصحابَه إلى ضرورةِ الدقةِ في النظرِ وعدم الاغترارِ بالظاهرِ المجرَّدِ.

جاء في الحديثِ الصحيح أن رجلاً مرَّ على النبيِّ ﷺ وهو جالسٌ مع أصحابِه، فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**ما تقولون في هذا؟** قالوا: حريٌّ بهِ إنْ خطبَ أن يُنْكحَ، وإنْ شفعَ أنْ يشفَّعَ، وإن قال أنْ يُستمعَ إليه.

ثم جاءَ رجلٌ آخرُ فقال: ما تقولونَ في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطبَ ألا يُنكحَ، وإنْ شفعَ إلا يُشفَّعَ، وإن قال ألا يُستمعَ إليه؛ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلَ هذا**»[1].

ولكم أن تتساءَلوا: هل قيمةُ المرءِ ما يحسنُه ويتقنُه ويُثَمِّرُه؟ أو أن قيمتَهُ ما يملُكُه ويجمعُه ويستهلكُه؟؟.

إذا كان الأمرُ كذلكَ ـ أيها المسلمون ـ فهل لنا أن نقفَ

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣٥ ـ ح٥٠٩١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٩ ـ ح٤١٢٠).

وقفاتٍ مع كتابِ اللهِ في تقريرِ هذا الميزانِ، وتجسيدِ صُورِ من الانحرافِ في من يُخسِرون الميزان؟؟.

أيُّها الإخوةُ الأحبةُ: تأملوا هذه الآياتِ الكريماتِ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

وقوله عز وشأنه: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ . .﴾ [المنافقون: ٤].

الإعجابُ بالظواهرِ لمجرَّدِها مُوقعٌ في الهلكةِ. إعجابٌ بكثرةِ الأولادِ، وصحةِ الأجسادِ، ووفرةِ الأموالِ، وطلاقةِ الألسنةِ، وأحاديثِ الدنيا، وشؤون المادةِ. إعجابٌ يزيدُ النفوسَ الضعيفةَ اضطراباً واكتئاباً، ويحسَبُون أنها تغني عن الإيمانِ، أو تهدي إلى الحقِّ، أو تقودُ إلى الصلاحِ والإصلاحِ.

أيُّها الإخوةُ: وأعظمُ مظهرٍ يتجلىٰ فيه خَللُ الميزانِ، وأكبرُ صورةٍ يتبيَّن فيها انتكاسُ العقلِ وارتكاسُ الفطرةِ وضلالُ البصيرةِ النفاقُ والمنافقون.

إن النفاقَ وأهلَه وصفاتِ المنتمين إليه يطرَحُ قضيةً خطيرةً في حياةِ الإنسانيةِ بعامةٍ، وحياةِ المسلمين بخاصةٍ، إنها علاقةُ

المَخْبَرِ بالمظهرِ، والباطنِ بالظاهرِ، والعقيدةِ بالسلوكِ، والقولِ بالعملِ. إنهم الطابورُ الخامسُ كما يقولُ المعاصرون.

ولقد انتدبَ القرآنُ الكريمُ بآياتِه وسورِه لفضحِ هذه الفئةِ، وهتكِ أستارِها، فجلَّىٰ دخائِلِ نفوسِها، وخلجاتِ ضمائِرِها، وسوءَ فِعالِها وأقوالِها؛ في اضطرابِ المعتقدِ، والإعراضِ عن الهدىٰ والحقِّ، ونقضِ العهودِ، واخلافِ الوعودِ، والخداعِ والكذبِ، والتلَوُّنِ والتقلُّبِ، والصدِّ عن سبيلِ اللهِ وإيذاءِ المؤمنين والمؤمناتِ.

وأما أهلُ العلم رحمهم اللهُ فقسَّموا النفاقَ إلى نوعين: نفاقٌ كفرٌ، مخرجٌ من الملةِ، وهو نفاقُ العقائدِ، يُظهْرُ صاحبهُ الإيمانَ باللهِ ورسلِه وكتبِه واليوم الآخرِ وهو يُبْطِنُ الكفرَ بذلك كلِّهِ أو بعضِهِ لا مُخْلِصٌ في إيمانِه ولا مُعْلِنٌ في كفرِهِ.

ونفاقٌ دون ذلك في الفروعِ والأعمالِ.

وصفاتُ المنافقين كبائرُ موبقةٌ، وجرائمُ مرديةٌ، لا تصدرُ عن مؤمنٍ ملأ الإيمانُ قلبَهُ، من جمعها كان منافقاً خالصاً، ومن اتصفَ ببعضِها لازمتْه حتى يدَعَها.

النفاقُ أيها الإخوةُ: عمدتُه ثلاثُ خصالٍ كبرىٰ؛ خوفٌ في داخلِ النفسِ، وكذبٌ في الأقوالِ، وخداعٌ في الأعمالِ.

المبتلىٰ بالنفاقِ خائفٌ مضطربٌ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] يخافُ من انكشافِ الحالِ وافتضاحِ الأمرِ، ومن ثَمَّ فإن خوفَهُ يُنبتُ الجبنَ والهلعَ. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٧] الحقُّ والقوةُ والشجاعةُ

والبسالةُ إنما تكونُ في اليقينِ والثباتِ من نورِ الفطرةِ، وصفاءِ القلبِ، وضياءِ الإيمانِ. وأهلُ النفاقِ منغمسون في ظلماتِ صفاتِ النفوس، محتجبون بلذائذِ المادياتِ والشهواتِ، يزعزهم الشكُّ، ويقلقهُم الريبُ، فيغلبُهم الجبنُ والخورُ، ويلجأون إلى التخذيل والفتنةِ. ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

المبتلىٰ بالنفاقِ رأسُ مالِه الكذبُ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١] ورائجُ بضاعتِهم المخادعةُ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] إذا وعدوا أخلفوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ترددوا ثم أعرضوا وتوقَّفوا وتحرجُوا.

وفي الحديثِ الصحيح عنه ﷺ: **«آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا ائتمنَ خان»**[1] زاد مسلم في روايتِهِ **«وإن صلىٰ وصامَ وزعمَ أنه مسلمٌ»**[2].

يَبْلُغُ به التهتُّكُ في النفاقِ والفسادِ في الأخلاقِ أن يَظْهرَ بوجهين، ويتكلمَ بلسانين، ويمشي بين الفريقين كالشاةِ عائرةً بين القطيعين، تميلُ إلى هذا القطيع تارةً وتميلُ إلى ذاكَ أخرىٰ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينِهم من صُنَّاعِ الفسادِ وأنصارِ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٥/ ٣٤٢ ـ ح٢٦٨٢)، ومسلم (١/ ٧٨ ـ ح٥٩).
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧٨، ٧٩ ـ ح٥٩).

الباطلِ ودعاةِ الفتنةِ قالوا: إنا معكم إنما نحنُ مستهزوءن. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

اللهُ أكبرُ قد يبلغُ النفاقُ ببعضِ أهلِه إلى أن يتَّصلوا بأعداءِ اللهِ وأعداءِ المؤمنين، ويودُّون لو تولَّى العدوُ أمرَ المسلمين، وتصرفَ في شؤونِهم: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧].

الأيمانُ الكاذبةُ مركبُهم، والحلفَ الفاجرُ وقايتُهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤] ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢].

ولكن ما الباعثُ على هذه الأيمانِ الفاجرةِ؟ وما الداعي لهذه التصرفاتِ المتقلبةِ؟ إن النفاقُ حينما يستشريْ في بعضِ النفوس فتحسَبَ اللؤمَ قوةً؟ والمكرَ السيءَ براعةً، وما هذا وربِّكَ إلَا ضعفٌ وخسةٌ، وخورٌ وسفهٌ، فالقويُّ بحقٍ لا يكون لئيماً ولا خدَّاعاً ولا متلوِّناً، ولكنَّ الذين لا يُخلِصونَ للهِ سرائرَهم يتعذرُ عليهم ان يشعروا بفسادِ أعمالِهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١٢] بل ولا يعلمون افتضاحَ أمرِهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣] لماذا؟ لأن ميزانَ الخيرِ والشرِ والصلاحِ والفسادِ يتأرجحُ عندهم مع الأهواءِ الذاتيةِ

والمصالحِ الشخصيةِ، يزعمون أنهم مصلحون وهم يأمرون بالمنكرِ وينهون عن المعروفِ ويقبضون أيديهم.

منافقونَ مذبذبونَ يأتون بظواهرِ العباداتِ وقد قامَ بهم الرياءُ وهو أقبحُ مقام، وقعَدَ بهم الكسلُ وهو بئس القعيدُ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التوبة: ٥٤] تكاسلاً وثُقلاً، وشحاً وبخلاً، لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً.

ومن مراتبِ النفاقِ الكبرىٰ أن يجلسَ جالسُهم مجلساً يَسمعُ فيه آياتِ الله يكفرُ بها ويُستهزأ بها فيسكتُ ويتغاضىٰ ملتمساً لنفسِه أعذاراً ومسوغاتٍ من التسامح واللباقةِ والدهاءِ والكياسةِ وسعةِ الأفقِ وحريةِ الرأي، وما درىٰ أن هذه هي الهزيمةُ تدبُّ في أوصالِه وتنخَرُ في فؤادِه وما فرَّق بين حريةِ الفكرِ وجريمةِ الكفرِ: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠].

أهلُ النفاقِ لا يعتبرون من الفتنِ، ولا يرجعون عند الكوارثِ ولا يستفيدون من الحوادثِ: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التوبة: ١٢٦].

ولقد قالَ اللهُ في ساعاتِ البلاءِ والتمحيص: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ

قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ . . ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

عبادَ الله: إن بليةِ الإسلام بهم ـ كما يقولُ الإمامُ شمسُ الدين ابنُ القيم رحمه اللهُ ـ شديدةٌ، لأنهم منسوبون إليه وهم أعداؤه على الحقيقةِ، يُخرجُون عداوتَه في كلِّ قالَبٍ، حتى ليظنَّ الجاهلُ أنهم على علمٍ وإصلاحٍ، فلله كممن معقلٍ للإسلامِ قد هدموه، وكم من حصنٍ قد قلعوا أساسه وخربوه، وكم من علم قد طمسوه، وكم من لواءٍ مرفوعٍ قد وضعوه، وكم ضربوا بمعاولِ الشُّبَهِ في أصولِ غراسِهِ ليقلَعوها. استعان بهم الشيطانُ على الفتنِ والتحريشِ في تاريخِ الإسلام العريضِ. وما كثر القتلُ وتعددتْ الأهواءُ، وانتشرتْ المذاهبُ الباطلةُ، والسبلُ الضالةُ إلا بما وضعوه من التفسيراتِ المنحرفةِ والتأويلاتِ المتعسفةِ، وما عبثوا به من المصطلحاتِ وزيفوا من المبادىء. وفي أخبارِ الزنادقةِ ومن لفَّ لفَّهم من يُظهرِ الإسلامَ ويبطنُ الكفرَ ما يدلُّ على عظيمِ البلاءِ وخطرِ الابتلاءِ. فلا يزالُ الإسلامُ وأهلُه منهم في محنةٍ وبليةٍ، ما أكثرهم وهم الأقلون، وما أجبرَهم وهم الأذلون، وما أجهلهم وهم المتعالمون: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: ٥٦].

فالله وحدَه المستعانُ على ما يصفون، وعليه التكلانُ فيما يجترؤن.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال: ٤٩].

النفاق والمنافقون

الخطبة الثانية

الحمد للهِ القاهرِ فوقِ عباده عزاً وسلطاناً، أحمده سبحانه وأشكرُه على ما عمَّ به من الجودِ والفضلِ كرماً منه وإحساناً، سبحانه وبحمده هدى إلى النجدينِ فمنتحلٌ من العباد كفراً ومنتحلٌ إيماناً. فطوبىٰ لمن ذُكِّروا بآياتِ ربهم فزادتهم إيماناً، وويلٌ ثم ويلٌ لمن ذكروا بآياتِ ربِّهم فخروا عليها صماً وعمياناً.

وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه دعىٰ إلى دينِ اللهِ سراً وإعلاناً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه كانوا على الحق أنصاراً وأعواناً.

أما بعدُ. أيها المسلمون؛ ولِعظَم خطرِ هذا المسلكِ ودقتِهِ وشناعةِ جرمِ أصحابِه فقد تقطعتْ قلوبُ السلفِ الصالحِ خوفاً من الوقوعِ فيه، لقد ساءتْ ظنونُهم بأنفسهم حتى خشوا أن يكونوا منهم. فهذا عمرُ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه الفاروقُ الذي إذا سلكَ فجاً سلك الشيطانُ فجاً غيره[1] يقولُ لحذيفةَ رضي الله عنه: نَشدتُك باللهِ هل سمَّاني رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا؛

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه من رواية سعد بن أبي وقاص أخرجه البخاري (٧/ ٥١ ـ ح٣٦٨٣)، ومسلم (٤/ ١٨٦٤ ـ ح٢٣٩٦).

ولا أزكي بعدك أحداً. ويقول ابن أبي مليكةَ: أدركتُ ثلاثين من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ كلُّهم يخافُ النفاقَ على نفسِه، ما منهم أحدٌ يقول إن إيمانَه كإيمان جبريل وميكائيلَ.

وبلغَ من حذرِهم رحمهمُ اللهُ أن قالوا: من لم يخفِ النفاقِ فهو منافقٌ. فلا حول ولا قوةَ إلا بالله.

أيها الإخوةُ ولفظاعةَ هذا الجرمِ وشدةِ أثرِه على أهلِ الدينِ والدنيا فقد لعنَ اللهُ أصحابَه وذمَّهم، وبالعذابِ المقيم توعدَّهم، وفي الدركِ الأسفلِ من النارِ حشرَهم: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨] ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

ولكنَّ الله البرَّ الرحيمَ ذا الفضلِ العظيم شرعَ البابَ مفتوحاً لمن رجعَ وأنابَ مهما كانتْ شناعةُ الفعلِ ومهما كان كِبَرُ الذنبِ إذا أصلح عمله واعتصمَ بربِّه وأخلص للهِ دينَه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء: ١٤٦]. ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

حياة القلوب وأمراضها

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ. خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً وهو العزيزُ الغفورُ. أحمده سبحانه وأشكره وأتوبُ إليه وأستغفرُه يجدِّدُ الأيامَ والشهورَ، ويصرِّفُ الأعوامَ والدهورَ، وأشهدُ ألا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، الشافعُ المشفعُ يومَ النشورِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آلِه وأصحابِه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ حيثما كنتم، وقوموا بالأمرِ الذي من أجلِه خُلقْتُم؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أيها المسلمون في مستفتح العامِ يحسنُ التذكيرُ. وما يتذكرُ إلا من ينيبُ، من غفلَ عن نفَسِه تصرمتْ أوقاتُه، واشتدتْ عليه حسراتُه. لابدَّ من وقفةٍ صادقةٍ مع النفس في محاسبةٍ جادةٍ، ومساءلةٍ دقيقةٍ، فواللهِ لتموتنَّ كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتُجْزَوُنَّ بما كنتم تعلمون. هل الأعمارُ إلا أعوامٌ؟

وهل الأعوامُ إلا أيامٌ؟ وهل الأيامُ إلا أنفاسٌ؟ وإن عمراً ينقضي مع الأنفاسِ لسريعُ الانصرامِ؟؟.

أفلا معتبرٌ بما طوتْ الأيامُ من صحائفِ الماضين؟ وقلَّبتْ الليالي من سجلاتِ السابقين؟ وما أَذهبتْ المنايا من أماني المسرفين؟ كلُّ نَفَسٍ من أنفاسِ العمرِ معدودٌ. وإضاعةُ هذا ليس بعدَه خسارةٌ في الوجودِ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

هذه يدُ المنون تتخطفُ الأرواحَ من أجسادِها. تتخطفُها وهي راقدةٌ في منامِها. تعاجلُها وهي تمشي في طرقاتِها. تقبضُها وهي مكبةٌ على أعمالِها. تتخطَّفُها وتعاجلُها من غير إنذارٍ أو إشعارٍ. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل: ٦١].

ها هو ابنُ آدمَ يُصبحُ سليماً معافا في صحتِه وحُلَّتِه، ثم يُمْسِي بين أطباقِ الثرىٰ قد حيلَ بينَه وبينَ الأحبابِ والأصحابِ.

ويلٌ للأغرارِ المغترين. يأمنون الدنيا وهي غرارةٌ. ويثقون بها وهي مكارةٌ. ويركنون إليها وهي غدارةٌ. فارقهم ما يحبون، ورأوا ما يكرهون. وحيل بينهم وبين ما يشتهون. ثم جاءهم ما يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

إنها الدنيا: تُبكي ضاحكاً، وتُضحكُ باكياً. وتُخيفُ آمنا، وتُؤمِّنُ خائفا، وتُفقرُ غنياً، وتُغني فقيراً. تتقلبُ بأهلها، لا تُبقي أحداً على حالٍ. العيشُ فيها مذمومٌ، والسرورُ فيها لا يدومُ، تُغيِّر صفاءَها الآفاتُ، وتنوبُها الفجيعاتُ، وتَفجع فيها الرزايا،

وتسوقُ أهلَها المنايا. قد تنكرت معالمُها، وانهارتْ عوالمُها.

أيها الإخوةُ: لا يعرف حقيقةَ الدنيا بصفوها وأكدارِها، وزيادتِها ونقصانِها إلا المحاسبُ نفسَه. فمن صفَّىٰ صُفِّي له، ومن كدَّرَ كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليلِه كُوفيءَ في نهارِه، ومن أحسنَ في نهارِه كُوفيءَ في ليلِه. ومن سرَّه أن تدومَ عافيتُه فليتقِ اللهَ ربَّه، فالبرُّ لا يَبلىٰ، والإثمُ لا يُنْسىٰ، والديانُ لا يموتُ، وكما تدينُ تدانُ. وإذا رأيتَ في عيشِك تكديراً وفي شأنِك اضطراباً، فتذكرْ نعمةً ما شُكِرتْ، أو زلةً قد ارتُكبتْ. واحذرْ من زوالِ النعمِ، وفجاءةِ النقمِ، ولا تغترَّ بسعةِ حلمِ الحليمِ. فجَوْدةُ الثمارِ من جُودِ البِذارِ، ومن زَرعَ حصدَ، وليس للمرءِ إلا ما اكتسبَ، وهو في القيامةِ مع من أحبَّ.

يقولُ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمه اللهُ: من عرفَ أنه عبدٌ للهِ وراجعٌ إليه فليعلمْ أنه موقوفٌ. ومن علم أنه موقوفٌ فليعلمْ أنه مسؤولٌ، ومن علم أن مسؤولٌ فليُعدَّ لكلِّ سؤالٍ جواباً. قيل: يرحمك اللهُ فما الحيلةُ؟ قال: الأمرُ يسيرٌ. تحسنُ فيما بقي يغفرْ لك ما مضىٰ. فإنك إن أسأتَ فيما بقي أُخِذتَ بما مضىٰ وما بقي.

أيها الإخوةُ: وهذه وقفةُ محاسبةٍ مع النفسِ، بل مع أعزِّ شيءٍ في النفسِ، مع ما بصلاحِه صلاحُ العبدِ كلِّه، وما بفسادِه فسادُ الحالِ كلِّه. وقفةٌ مع ما هو أولىٰ بالمحاسبة وأحرىٰ بالوقفاتِ الصادقةِ. يقولُ نبيُّكم محمدٌ ﷺ: **«ألا وإن في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ»**[1]. ويقول عليه الصلاةُ والسلامُ: **«لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ**

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير. أخرجه البخاري (١/ ١٥٣ ـ =

حتى يستقيمَ قلبُه»[1].

ويقولُ الحسنُ رحمه اللهُ: داوِ قلبَك؛ فإن حاجةَ اللهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبُهم، ولن تحبَّ الله حتى تحبَّ طاعتِه.

أيها المسلمون: من عرفَ قلبَه عرفَ ربَّه، وكم من جاهلٍ بقلبِه ونفسِه، واللهُ يحولُ بين المرءِ وقلبِه. يقولُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: هلك من لم يكنْ له قلبٌ يعرفُ المعروفَ وينكرُ المنكرَ.

أيها الإخوةُ: لابدَّ في هذا من محاسبةٍ تَفُضُّ مغاليقَ الغفلةِ، وتوقظُ مشاعرَ الإقبالِ على اللهِ في القلبِ واللسانِ والجوارحِ جميعاً.

من لم يظفرْ بذلك فحياتُه كلُّها واللهِ همومٌ في هموم، وأنكارٌ وغمومٌ، وآلامٌ وحسراتٌ. بل إن اللهَ لم يبعثْ نبيَّه محمداً ﷺ إلا بالمهمتينِ العظيمتينِ: علم الكتابِ والحكمةِ وتزكيةِ النفوس. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

بل لقد علَّقَ اللهُ فلاحُ عبدِه على تزكيةِ نفسِه وقدَّم ذلك وقرَّرَهُ بأحدَ عشرَ قسماً متواليةً؛ اقرأوا إن شئتم وتأمَّلوا: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

= ح٥٢)، ومسلم (٣/١٢١٩ ـ ح١٥٩٩).

(١) أخرجه أحمد (٣/١٩٨).

وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

أيها الإخوةُ: إن في القلوبِ فاقةِ وحاجةً لا يسدُّها إلا الإقبالُ على اللهِ ومحبتُه والإنابةُ إليه، ولا يَلُمُّ شعثَها إلا حفظُ الجوارحِ، واجتنابُ المحرماتِ، واتقاءُ المشتبهاتِ.

معرفةُ القلبِ من أعظمِ مطلوباتِ الدينِ، ومن أظهرِ المعالمِ في طريقِ الصالحين. معرفةً تستوجبُ اليقظةَ لخلجاتِ القلبِ وخفقاتِه، وحركاتِه ولفتاتِه، والحذرَ من كلِّ هاجسٍ، والاحتياطَ من المزالقِ والهواجسِ، والتعلقَ الدائمَ باللهِ؛ فهو مقلبُ القلوبِ والأبصارِ. جاءَ في الخبرِ عند مسلمٍ رحمهُ اللهُ من حديثِ عبدِالله بن عمروٍ رضي الله عنهما قال: «سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **إن قلوبَ بني آدمَ كلَّها بين أصْبعُين من أصابعِ الرحمن عزَّ وجلَّ كقلبٍ واحدٍ يصرفُه حيثُ يشاءُ. ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: اللهمَّ مصرفَ القلوبِ صرِّفْ قلوبَنا على طاعتِك**»(١).

ولا ينفعُ عند اللهِ إلا القلبُ السليمُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. ومن دعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: «**وأسألُك قلباً سليماً**»(٢).

والقلوبُ ـ أيها الإخوةُ ـ أربعةٌ: قلبٌ تقيٌّ نقيٌّ فيه سراجٌ منيرٌ فذلك قلبُ المؤمنِ، وقلبٌ أغلفُ مظلمٌ؛ فذلك قلبُ الكافرِ:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٥ ـ ح٢٦٥٤)، وأحمد (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٤٤ ـ ح٣٤٠٧)، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه، والنسائي (٣/ ٥٤)، وأحمد (٤/ ١٢٣).

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة:٨٨]. وقلبٌ مرتكسٌ منكوسٌ؛ فذلك قلبُ المنافقِ، عرفَ ثم أنكرَ، وأبصرَ ثم عَمِي: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء: ٨٨]. وقلبٌ تَمدُّه مادتان؛ مادةُ إيمانٍ، ومادةُ نفاقٍ فهو لما غلبَ عليه منهما. وقد قال اللهُ في أقوامٍ: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٦٧].

وفي القلبِ قوتان: قوةُ العلمِ في إدراكِ الحقِّ ومعرفتِه والتمييزِ بينه وبين الباطلِ. وقوةُ الإرادةِ والمحبةِ في طلبِ الحقِّ ومحبتِه وإيثارِه على الباطلِ. فمن لم يعرفْ الحقَّ فهو ضالٌّ، ومن عرفَه وآثرَ غيرَه فهو مغضوبٌ عليه. ومن عرفَه واتبعَه فهو المُنعَمُ عليه السالكُ صراطَ ربِّه المستقيمَ. يقول ابنُ القيم رحمهُ الله: وهذا موضعٌ لا يفهمُه إلا الألبّاءُ من الناس والعقلاءِ، ولا يعملُ بمقتضاه إلا أهلُ الهممِ العاليةِ والنفوسِ الأبيةِ الزاكيةِ.

ورجلُ الدنيا وواحدُها هو الذي يخافُ موتَ قلبِه لا موتَ بدنِه، وأكثرُ الخلقِ يخافون موتَ أبدانِهم، ولا يبالونَ بموتِ قلوبِهم.

إذا كان الأمرُ كذلك أيها الأحبةُ. فاعلموا أن صاحبَ القلبِ الحيِّ يغدو ويروحُ، ويُمسي ويصبحُ وفي أعماقِه حسٌّ ومحاسبةٌ لدقاتِ قلبِه، وبصرِ عينِه، وسماعِ أذنِه، وحركةِ يدِه، وسيرِ قدمِه، إحساسٌ بأنَّ الليلَ يدبرُ، والصبحَ يتنفسُ، والكونَ في أفلاكِه يسبحُ بقدرةِ العليمِ وتدبيرِ الحكيمِ؛ ﴿ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان: ٢٩]. قلبٌ حيٌّ تتحقُ به العبوديةُ للهِ على وجهِها وكمالِها، أحبَّ اللهَ وأحبَّ فيه. يترقىٰ في درجاتِ الإيمانِ

والإحسانِ فيعبدُ اللهَ على الحضورِ والمراقبةِ، يعبدُ اللهَ كأنَّه يراهُ، فيمتلىءُ قلبُه محبةً ومعرفةً، وعظمةً ومهابةً وأُنساً وإجلالاً. ولا يزالُ حبُّه يَقوىٰ، وقربُه يدنو حتى يمتلىءَ قلبُه إيماناً وخشيةً، ورجاءً وطاعةً، وخضوعاً وذِلةً؛ **«ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه»**[1]. كلما اقتربَ من ربِّه اقتربَ اللهُ منه: **«من تقربَ إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً»**[2]. فهو لا يزالُ رابحاً من ربِّه أفضلَ مما قدمَ، يعيشُ حياةً لا تشبهُ ما الناسُ فيه من أنواعِ الحياةِ: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. **«من ذكرني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منه»**[3]. من بذلَ شيئاً للهِ عوَّضَه اللهُ خيراً منه، وجازاه أفضلَ مما قدَّمَ.

أصحابُ القلوبِ الحيةِ صائمون قائمون، خاشعون قانتون، شاكرون على النعماءِ، صابرون في البأساءِ، لاتنبعثُ جوارحُهم إلا بموافقةِ ما في قلوبِهم، تجردوا من الأثرةِ والغشِّ والهوىٰ. اجتمع لهم حسنُ المعرفةِ مع صدقِ الأدبِ، وسخاءُ النفسِ مع مظانةِ العقلِ. هم البريئةُ أيديْهم، الطاهرةُ صدورهم، متحَابون بجلالِ اللهِ، يغضبون لحرماتِ اللهِ، أمناءُ إذا ائتمنوا، عادلون إذا حكموا، منجزون إذا وعدوا، مُوْفون إذا عاهدوا، جادُّون إذا عزموا، يَهُشُّون[4] لمصالحِ الخلقِ، ويَضيقون بآلامِهم، في سلامةٍ من الغلِّ، وحسنِ ظنٍ بالخلقِ، وحملِ الناسِ على أحسنِ

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٤٨ ـ ح٦٥٠٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٩٥ ـ ح٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١ ـ ح٢٦٧٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٣/ ٣٩٥ ـ ح٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١ ـ ح٢٦٧٥).
(٤) يهشون: تنشرح صدورهم سروراً بها.

المحاملِ. كسروا حظوظَ النفسِ، وقطعوا الأطماعَ في أهلِ الدنيا.

جاءَ في صحيح مسلم من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «**يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدةِ الطيرِ**»(١) فهي سليمةٌ نقيةٌ، خاليةٌ من الذنبِ، سالمةٌ من العيبِ. يحرصون على النصح والإخلاصِ، والمتابعةِ والإحسانِ. همَّتُهم في تصحيح العملِ أكبرُ منها في كثرةِ العملِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أوقفهم القرآنُ فوقفوا، واستبانتْ لهم السنةُ فالتزموا، ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

رجالٌ مؤمنون، ونساءٌ مؤمناتٌ، بواطنُهم كظواهرِهم بل أجلىٰ، وسرائرُهم كعلانيتِهم بل أحلىٰ، وهمُمهم عند الثريا بل أعلىٰ. إنْ عُرِفوا تنكَّروا، تُحبُّهم بقاعُ الأرضِ، وتفرحُ بهم ملائكُ السماءِ.

هذه حياةُ القلوبِ وهذه بعضُ آثارِها.

أما القلوبُ المريضةُ فلا تتأثرُ بمواعظَ، ولا تستفزُّها النُذرُ، ولا توقظُها العبرُ. أين الحياةُ في قلوبٍ عرفتْ اللهَ ولم تؤدِّ حقَّه؟؟ قرأتْ كتابَ اللهِ ولم تعملْ به. زعمتْ حبَّ رسولِ اللهِ وتركتْ سنَّتَهُ. يريدون الجنةَ ولم يعملوا لها، ويخافون من النارَ ولم يتقوها.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٨٣ ـ ح٢٨٤٠).

رُبَّ امرئٍ من هؤلاء. أطلقَ بصرَه في حرامٍ فحُرِمَ البصيرةَ، ورُبَّ مطلقٍ لسانَه في غيبةٍ فحُرِمَ نورَ القلبِ، وربَّ طاعمٍ من الحرامِ أظلَمَ فؤادُه، لماذا يُحرمُ محرومون قيامَ الليلِ؟ ولماذا لا يجدونَ لذةَ المناجاةَ؟ إنهم باردوا الأنفاسِ، غليظوا القلوبِ، ظاهروا الجفوةِ؟؟.

القلبُ الميتُ: الهوىٰ إمامُه، والشهوةُ قائدُه، والغفلةُ مركبُه، لا يستجيبُ لناصحٍ، يتَّبُع كلَّ شيطانٍ مريدٍ. الدنيا تُسخطُه وتُرضيْه، والهوىٰ يَصمُّه ويُعميه. ماتتْ قلوبُهم ثم قُبرتْ في أجسادِهم، فما أبدانُهم إلا قبورُ قلوبِهم. قلوبٌ خربةٌ لا تؤلمُها جراحاتُ المعاصي، ولا يوجعُها جهلُ الحقِّ. لا تزال تتشربُ كلَّ فتنةٍ حتى تسودَّ وتنتكسَ، ومن ثَمَّ لا تعرفُ معروفاً ولا تنكرُ مُنكراً.

عبادَ اللهِ. غفلةُ القلوبِ عقوبةٌ، والمعصيةُ بعد المعصيةِ عقوبةٌ، والغافلُ لا يحسُّ بالعقوباتِ المتتاليةِ ولكن ما الحيلةُ؟ فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤ ـ ٢٥].

حياة القلوب وأمراضها

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ المستحقِّ للحمدِ والثناءِ، له الخلقُ والأمرُ، يحكمُ ما يريدُ ويفعلُ ما يشاءُ، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وأتوبُ إليه وأستغفرُه وأعوذ به من حالِ أهلِ الشقاءِ. وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له له الأسماءُ الحسنىٰ، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله، أفضلُ الرسلِ وخاتمُ الأنبياءِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه البررةِ الأتقياءِ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها الناسُ: من خافَ الوعيدَ قصُرَ عليه البعيدُ، ومن طالَ أملُه ضعُف عملُه. وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ، وما شغلَ عن اللهِ فهو شؤمٌ.

التوفيقُ خيرُ قائدٍ، والإيمانُ هو النورُ، والعقلُ خيرُ صاحبٍ، وحسنُ الخلقِ خيرُ قرين.

يقولُ الحسنُ رحمه الله: المؤمنُ قوَّامٌ على نفسِه، يحاسبُ نفسَه للهِ. وإنما خفَّ الحسابُ يومَ القيامةِ على أقوامٍ حاسبوا أنفسَهم في الدنيا. وشقَّ الحسابُ على أقوامٍ يومَ القيامةِ أخذوا هذا الأمرَ على غيرِ محاسبةٍ. فحاسبوا أنفسَكم رحمكم الله وفتشوا في قلوبِكم.

عن حذيفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«تعرضُ الفتنُ على القلوبِ كعَرْضِ الحصيرِ عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكتَتْ فيه نكتةٌ سوداءُ. وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكتَتْ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى تعودَ القلوبُ على قلبين قلبٍ أسودَ مرباداً كالكوزِ مُجخياً لا يعرفُ معروفاً ولا ينكرُ منكراً إلا ما أُشرِبَ هواه، وقلبٍ أبيضَ لا تضرُّه فتنةٌ ما دامتْ السمواتُ والأرضُ»**(١).

يقولُ بعضُ الصالحين: يا عجباً من الناس يبكون على من مات جَسدُه، ولا يبكون على من مات قلبُه. شَتانَ بين من طغىٰ وآثر الحياةَ الدنيا، وبين من خافَ مقامَ ربِّه ونهى النفسَ عن الهوىٰ.

تُمرضُ القلوبُ وتموتُ إذا انحرفتْ عن الحقِّ وقارفتْ الحرامَ؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]. تُمرضُ القلوبُ وتموتُ إذا افُتِنَتْ بآلاتِ اللهوِ وخليعِ الصورِ؛ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

كلُّ الذنوبِ تميتُ القلوبَ، وتُورثُ الذلةَ، وضيقَ الصدرِ، ومحاربةَ اللهِ ورسولِه.

يقولُ الحسنُ رحمه الله: ابنَ آدمَ: هل لكَ بمحاربةِ اللهِ من طاقةٍ؟ فإن من عصىٰ اللهَ فقد حاربَه، وكلَّما كان الذنبُ أقبحَ كان في محاربةِ اللهِ أشدَّ. ولهذا سمىٰ اللهُ أكلةَ الربا وقطاعَ الطريقِ محاربين للهِ ورسولهِ لِعظَمِ ظُلمِهم وسعيِهم بالفسادِ في أرضِ اللهِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٢٨ ـ ح١٤٤).

قال وكذلك معاداةُ أوليائِه فإنه تعالى يتولّىٰ نصرةَ أوليائِه ويحبُّهم ويؤيدُهم فمن عاداهم فقد عادىٰ اللهَ وحاربَه.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، وتوبوا إلى ربّكم وأصلحوا فسادَ قلوبِكم.

فتنة المسيح الدجال

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ خالقِ كلِّ شيءٍ، ورازقِ كلِّ حيٍّ، أحاط بكلِّ شيء علماً، وكلُّ شيءٍ عنده بأجل مسمَّىٰ، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوبُ إليه وأستغفرُه وهو بكلِّ لسانٍ محمودٌ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له وهو الإله المعبودُ. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، صاحبُ المقامِ المحمودِ، والحوضِ الموروِدِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الركعِ السجودِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى اليومِ الموعودِ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ فاتقوا الله ما استطعتم، واسلكوا بالنفوس مسالكَ الاعتبار: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٤٠].

أيها المسلمون: لقد اعتنىٰ أهلُ السنةِ بتحقيقِ المسائلِ عاليةِ الرتبِ، فكان النصيبُ الأكبرُ والحظُّ الأوفرَ لمسائلِ الاعتقادِ التي هي سبيلُ النجاةِ في الدنيا ويومِ المعادِ. تنوَّعتْ في ذلكَ أساليبُهم، وتعددتْ تآليفهم. سطروها بكلامٍ رصين، وتدوينٍ متين، قائمٍ على الأدلةِ الجليةِ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه محمدٍ ﷺ، في نقولٍ موفقةٍ، وأقوالٍ محققةٍ.

أيها الإخوةُ: إن الإيمانَ بما صحَّ به النقلُ واجبٌ متحتمٌ، فيما شهدناه أو غابَ عنا، نعلمُ أنه صدقٌ وحقٌّ، سواء في ذلك ما عقلناه وما لم نطلع على حقيقتِه ومعناه من أنباءِ الإسراءِ والمعراجِ، وأشراطِ الساعةِ، وأماراتِ القيامةِ، وأحوالِ اليوم الآخرِ، وأهوال يومِ الحشرِ، وكلُّ ذلك مما صحتْ به الأخبارُ من آي الكتابِ وبينَهُ نبيُّنا محمدٌ ﷺ ووضحه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ [محمد: ١٨] ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١] ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: «لقد خطبنا النبيُّ ﷺ خطبةً ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعةِ إلا ذكره، عَلِمَه من علمه، وجهله من جهله، إن كنتُ لأرىٰ الشيءَ قد نسيتُه فأعرفه كما يعرفُ الرجلُ الرجلَ إذا غابَ عنه فرآه يعرفه»[1]. متفق عليه واللفظ للبخاري.

وعند البخاريِّ أيضا تعليقاً مجزوماً به من حديث عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما قال: «قام فينا النبيُّ ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدءِ الخلقِ حتى دخلَ أهلُ الجنةِ منازلَهم وأهلُ النارِ منازلَهم حفظَ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه»[2].

أيها الإخوةُ: وما كان أمر الساعةِ شديداً، وهولها مزيداً،

---

(١) متفق عليه من حديث حذيفة أخرجه البخاري (١١/٥٠٣ ـ ح٦٦٠٤)، ومسلم (٤/٢٢١٧ ـ ح٢٨٩١).
(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٦/ ٣٣١ ـ ح٣١٩٢).

وأمرُها قريباً ليس بعيداً كان الاهتمامُ بشأنها أكبرَ، وبيانُ النبيِّ ﷺ لها أجلَىٰ وأبينَ، فقد أكثرَ عليه الصلاةُ والسلامُ من بيانِ أشراطِها وأماراتِها وأخبر عما بين يديها من الفتنِ القريبةِ والبعيدةِ، ونبَّه أمتَه وحذَّرها ليتأهبوا لتلكَ العقبةِ العظيمةِ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢].

عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالتْ: «استيقظَ النبيُّ ﷺ ليلة فزعاً يقول: **سبحانَ الله ماذا أنزلَ اللهُ من الخزائنِ، وماذا أنزل اللهُ من الفتنِ، من يوقظُ صواحبَ الحجراتِ ـ يعني زوجاتِه من أجل الصلاةِ من الليلِ ـ ربَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة**».

أيها الإخوةُ: إن بين يدي الساعةِ فتناً مخيفةً، وأموراً مدلهمةً لا تختصُّ بالظالمين بل قد تنالُ الصالحين: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٢٥].

غير أن هناك فتنةً هي أعظمُ الفتنِ ليس فتنةٌ صغيرةٌ ولا كبيرةٌ إلا تَصْغُر أمامَها، وما تكونُ فتنةٌ ولا تكون حتى تقومُ الساعة أكبرَ من فتنتها. إنها فتنةُ المسيحِ الدجالِ؛ (ونعوذ بالله من فتنةِ المسيح الدجال).

لقد تواترتْ الأخبارُ، وتكاثرتْ الأحاديثُ عن نبيِّكم محمدٍ ﷺ في التحذيرِ منه، وبيانِ أوصافِه، وعِظَمِ فتنتِه.

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال«**إنه لم يكنْ نبي إلا وقد أنذرَ الدجالَ قومَه إني أنذرُكموه إنه أعورُ**

ذو حدقةٍ جاحظةٍ لا تخفىٰ»[1].

وعن عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما قال: «قام رسولُ اللهِ ﷺ في الناسِ فأثنىٰ على اللهِ بما هو أهلُه ثم ذكرَ الدجالَ فقال: **«ألا أنذُركموه، ما من نبيٍّ إلا وقد أنذرَ قومَه ولكني سأقولُ لكم فيه قولاً لم يقلْه نبيٌّ لقومه: إنه أعورُ وإن ربّكم ليس بأعور»**[2] زاد مسلمٌ: **«مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ يقرآهُ من كره عملَه، أو يقرأهُ كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ»**.

وتكاثرتْ الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ بهذا الدعاءِ: **«اللهم إني أعوذ بك من عذابِ جهنمَ، ومن عذابِ القبرِ، ومن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومن شرِّ فتنةِ المسيحِ الدجالِ»**[3]. متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

إن فتنتَه لعظيمةٌ حتى قال عليه الصلاةُ والسلامُ: **«من سمعَ بالدجالِ فلينأ عنه، فواللهِ أن الرجلَ ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمنٌ فيتّبعُه مما يُبعث معه من الشبهاتِ»**[4].

أيها الإخوةُ الأحبةُ: ومن المخيفِ وعظيمِ الفتنةِ أنه يخرجُ في

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار وفيه الحجاج بن أرطاة وهو مدلس وعطية ضعيف وقد وثق انظر مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٩٦ ـ ح٧١٢٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٨ ـ ح٢٩٣٣)، والترمذي (٤/ ٤٤٠ ـ ح٢٢٣٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٨٤ ـ ح١٣٧٧)، ومسلم (١/ ٤١٣ ـ ح٥٩٠) واللفظ له.

(٤) أخرجه أبوداود (٤/ ١١٦ ـ ح٤٣١٩)، وأحمد (٤/ ٤٣١، ٤٤١)، والحاكم (٤/ ٥٣١) وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

خفَّةٍ من الدينِ، وادبارٍ من العلمِ، واختلافٍ بين الناسِ وفرقةٍ.

وإن لقربِ وقتِه وإبَّان خروجِه علاماتٍ وأسباباً وهناتٍ يتلو بعضُهن بعضاً حذوَ النعلِ بالنعلِ؛ من التهاونِ بالصلواتِ واضاعةِ الأماناتِ، وفتنٍ يكون فيها الظلمُ فخراً، ويكثرُ الفجرةُ والخونةُ، والظلمةَ والفسقةُ، ويفشو الزنا، ويظهرُ الربا، وتقطَّع الأرحامُ، وتتخذُ القيناتُ - أي المغنيات - وتشربُ الخمورُ، وتنقضُ العهودُ، ويأكلُ الناسُ الرشوةَ، ويستخفون بالدماءِ، ويتطاولُ السفهاءُ، وتَتَّجرُ المرأةُ مع زوجها حرصاً على الدنيا، ويشبُه النساءُ الرجالَ ويشبه الرجالُ النساءَ، ويلبسون جلودَ الضأنِ على قلوبِ الذئابِ، وتكون القلوبُ أمرَّ من الصَّبر، والألسنةُ أحلىٰ من العسلِ، والسرائرُ أنتنَ من الجيفِ، ويُلتمسُ الفقهُ لغير الدينِ، وتُنقضُ عُرىٰ الإسلام عروةً عروةً، وتكون الدنيا بيدِ لُكعِ بن لُكعٍ وهو الأحمقُ اللئيمُ. وترى الحفاةَ العراةَ العالةَ رِعاءَ الشاءَ يتطاولون في البنيانِ ويتقلبون في أعطافِ النعيمِ. وإن اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعاً ينتزعُه من صدورِ الرجالِ ولكنَ يقبضُ العلمَ بموتِ العلماءِ، ثم تبقىٰ مقاماتهم فارغةً لا يملؤُها إلا مَنْ دونهم، ولا يخلُفُهم إلا من لا يصلح أن يكونَ تلميذاً من تلاميذِهم، يتقاربُ الزمانُ، ويُلقىٰ الشحُّ، ويكثرُ الهرجُ وهو القتلُ. يتطاولون على الطعنِ في الإسلامِ والتشكيكِ في الدينِ. ومن أعظم الفتنِ أنه لا يخرجَ الدجالُ حتى يذهلَ الناسُ عن ذكرِه وحتى تتركَ الأئمةُ ذكره على المنابرِ[1]، هكذا ورد الخبرِ مرفوعاً.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٧٢) وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٥).

في هذه الأجواءِ المدلهمةِ يبعثُ اللهُ عليهم الدجالَ فيسلِّطَ عليهم حتى ينتقمَ منهم، وينحازَ المؤمنون إلى بيت المقدسِ.

الدجالُ منبعُ الكفرِ والضلالِ، وينبوعُ الفتنِ والأوجالِ، انذرتْ به الأنبياءُ أقوامَها، وحذرت منه الرسلُ أمَمها، ونعتتْه بالنعوتِ الظاهرةِ، ووصفتْه بالأوصافِ البينةِ، وحذَّر منه نبيُّنا المصطفىٰ، وذكر له نعوتاً وأوصافاً لا تخفىٰ.

واسمعوا إلى هذا الحديثِ الجامعِ الذي أخرجه الإمامُ مسلمٌ رحمه الله في صحيحِه عن النواسِ بن سمْعان رضي الله عنه قال: «ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ الدجالَ ذاتَ غداةٍ فخفضَ فيه ورفعَ، حتى ظننَّاه في طائفةِ النخلِ، فلما رُحْنا إليه عرفَ ذلك فينا فقال: **ما شأنكم؟** قلنا: يا رسولَ الله ذكرتَ الدجالَ غداةً فخفضتَ فيه ورفعتَ حتى ظنناه في طائِفةِ النخلِ. فقال: **غيرُ الدجالِ أخوفُني عليكم؟؟ إنْ يخرجْ وأنا فيكم فأنا حجيجُه دونكم، وإن يخرجْ ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِهِ، واللهُ خليفتي على كلِّ مسلمٍ؛ إنه شابٌ قَطِطٌ ـ يعني: جعدَ شعرِ الرأسِ ـ عينُه طافئةٌ، كأنِّي أشبِّهُه بعبد العزَّىٰ بن قَطَنٍ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتحَ سورةِ الكهفِ، إنه يخرجُ من خَلَّةٍ بين الشامِ والعراقِ، فعاثَ يميناً وعاثَ شِمالاً يا عبادَ اللهِ فاثبتوا.** قلنا: يا رسولَ اللهِ وما لبثُه في الأرضِ؟ قال: **أربعون يوماً؛ يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كجمعةٍ، وسائِرُ أيامِه كأيَّامكم.** قلنا: يا رسولَ اللهِ؛ فذلك اليومُ الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةُ يومٍ؟ قال: **لا؛ اقدُرُوا له قدَرَهُ.** قلنا: يا رسولَ اللهِ؛ وما إسْراعُه في الأرضِ؟ قال: **كالغيثِ استدبرتْه الريحُ. فيأتي على القومِ فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له،**

فيأمرُ السماءَ فتمطرُ، والأرضَ فتنبتُ، فتروحُ عليهم سارحتُهم[(١)] أطولَ ما كانتْ ذُراً[(٢)]، وأسبغه ضروعاً، وأمدَّه خواصرَ[(٣)]. ثم يأتي القومَ فيدعوهم فيردُّون عليه قولَه، فينصرفُ عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيءٌ من أموالِهم. ويمرُّ الخربةَ فيقولُ لها: أخرجي كنوزَكِ؛ فتتبعُه كنوزُها كيعاسيبِ النحلِ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربُه بالسيفِ فيقطعُه جزلتين رميةَ الغرضِ[(٤)] ثم يدعوه فيقبلُ ويتهلَّلُ وجهُه يضحكُ؛ فبينما هو كذلك إذ بعثَ اللهُ المسيحَ بنَ مريمَ فينزلُ عند المنارةِ البيضاءِ شرقيِّ دمشقَ بين مَهْروْدَتين ـ أي ثوبين ـ واضعاً كفيْه على أجنحةِ ملكين إذا طأطأ رأسَه قطَر، وإذا رفعَه تحدَّر منه جمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نَفَسه إلا ماتَ، ونَفَسُه ينتهي حيثُ ينتهي طرْفُه، فيطلبُه حتى يدركَه ببابِ لدٍّ فيقتلُه. ثم يأتي عيسى بنَ مريمَ قومٌ قد عصمهم اللهُ منه فيمسحُ عن وجوهِهم ويحدِّثُهم بدرجاتِهم في الجنةِ»[(٥)].

هذا هو الدجالُ ـ أيها الإخوةُ ـ وهذا شيءٌ من خبرِه، نعوذ بالله من فتنتِه ومن جميعِ الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطن.

يقولُ أبوبكر بن العربي رحمه الله: الذي يظهرُ على يدِ الدجالِ

---

(١) سارحتهم: السارحةُ: هي الماشية التي تسرح، أي تذهب أول النهار إلى المرعىٰ.

(٢) ذرا: الذرا الأعالي والأسنمة جمع ذروة بالضم والكسر.

(٣) أسبغه ضروعاً وأمده خواصر: أسبغه: أي أطوله لكثرة اللبن وكذا أمده خواصر: لكثرة امتلائها من الشبع.

(٤) رمية الغرض: أي يجعل بين الجزلتين مقدار رمية.

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٥٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٢٥٣ـ ح٢١٣٧).

من الآياتِ من إنزالِ المطرِ والخِصْبِ على من يصدِّقُ، والجدبِ على من يكذِّبُه، واتباع كنوزِ الأرضِ له، وما معه من جنةٍ ونارٍ ومياهٍ وأنهارٍ، يجري كلُّ ذلك محنةٌ من اللهِ واختبارٌ ليهلكَ المرتابُ وينجوَ المتيقنُ، وذلك كلُّه أمرٌ مخوفٌ ولهذا قال ﷺ: «**لا فتنةَ أعظمَ من فتنةِ الدجالِ**»[1] وكان ﷺ يستعيذُ منها في صلاتِه تشريعاً لأمَّتِه ﷺ. اهـ.

أيها الإخوةُ: كلُّ ذلك من أنباءِ الغيبِ نؤمنُ به لِما قامَ عليه من الدليلِ والبرهانِ، ولو غابَ عن شواهدِنا وقَصُرَتْ عنه حواسُّنا، ولكنه حاضرٌ بأدلتِه القطعيةِ وبراهينِه العلميةِ.

وإنكم لتعلمون أن المادِّيين من أهلِ هذا العصرِ والعلمانيين هم من أشدِّ الناسِ تجاهلاً للساعةِ وأشراطِها، وأكثرُ الناسِ صدوداً عنها، وما كانوا في مراكزِ التوجيهِ والإعلامِ والتربيةِ في كثيرٍ من الأقطارِ إلا دعاةً لعبادةِ الجسدِ وعبادةِ الدنيا ما يذكرون اللهَ ربَّهم في جليلٍ ولا خطيرٍ، ولا يذكَّرون بلقائِه لا في الليلِ ولا في نهارٍ. لقد تواطأ على ذلك ملاحدةُ الشرقِ والغربِ شيوعيُّوهم وزنادقتُهم، إنهم لم يرفعوا أيديَهم إلى السماءِ قطُّ. لقد ولَّوا وجوههم عن الآخرةِ؛ في قلوبٍ فارغةٍ، وعقائدَ خربةٍ. عصرٌ ماديٌّ طافحٌ بالرغباتِ الجامحةِ والغرائزِ المدلَّلةِ.

ومن العجبِ أيها الإخوةُ: أن أكثرَ أتباعه اليهودُ. والمتأملُ في

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات وفي بعضهم ضعف لا يضر انظر مجمع الزوائد (٧/٣٣٦)، والحاكم (٤/٥٢٨) وقال: صحيح على شرط البخاري وسكت عنه الذهبي.

حياتِهم قديماً وحديثاً يجدُهم قد رتَّبوا معايشَهم على أن الدنيا حقٌّ، والآخرةُ وهمٌ، ولقد توجَّه إليهم كِتابُنا بهذا التحدي: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٦].

وما النزعاتُ الماديةُ النَّزِقةُ التي تسودُ الحضارةَ المعاصرةَ إلا صدىً لتغلغلِ اليهودِ فيها. إنه أثرٌ بيِّنٌ في إخلادِهم إلى الأرضِ وفي صياغةِ تفكيرِهم الماديِّ، فالدنيا هي جنتُهم وهي نارُهم.

إن التقدمَ الماديَّ الكبيرَ الذي أحرَزه أهلُ هذا العصرِ في مضمارِ العلومِ التجريبيةِ زعزعَ عندهم كثيراً من العقائدِ الإيمانيةِ والمعتقداتِ الغيبيَّةِ.

لكن لماذا ينكرون هذه الأشراطَ والعلاماتِ والأماراتِ؟ وفي علومِ العصرِ ومعارفِه ومكتشفاتِه ومخترعاتِه ومواصلاتِه واتصالاتِه ما يجعلُ هذه الأشياءَ جديرةً بالتصديقِ، ممكنةَ الوقوعِ، معقولةَ التصورِ مما لم يدركْه السابقون أو يعرفُه المتقدمون.

وما العجبُ وقد رأى أهلُ هذا العصرِ ما قرَّبَ البعيدَ وطوىٰ المسافاتِ وقاربَ الزمنَ، بل إن هناكَ آياتٍ في الأنفسِ من أمراضٍ لم تكنْ معروفةً فيمن سبقَ وكثرةِ موتِ الفَجأةِ، والحوادثِ والحروبِ والفتنِ والصراعِ على مواردِ المياهِ وما يسمَّونُه بالسلعِ الاستراتيجيةِ والمواردِ الطبيعيةِ.

ألم يكن في الأشراطِ والأماراتِ والمتغيراتِ المتسارعاتِ ما يذكِّرُ أهلَ الغفلةِ والاغترارِ ويزيدُ في بَصَرِ أولي البصائرِ والأبصارِ؟؟

لعلهم أن ينتهوا من الذنوبِ، وتلينَ منهم قاسياتُ القلوبِ، ويغتنموا المهلةَ قبلَ الوهلةِ.

ولكن ما أشدَّ جحود الجاحدين؟؟ وما أعظمَ انكارِ المنكرين؟؟ ينعمون بفضلِ الله وجودِه وينكرون عبوديتَه وجودَه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وبعدُ أيها الإخوةُ: فإن أهلَ العلمِ والإيمانِ يؤمنون بما جاءَ من عند ربِّهم وأخبر به نبيُّهم، تطمَئنُّ به قلوبهم، وتنشرحُ به صدورُهم، سواء أدركتْه عقولُهم أو لم تدركْه: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فتنة المسيح الدجال

الخطبة الثانية

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ. أحمدُه سبحانه وأشكره له الحمدُ في الآخرةِ والأولىٰ. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه ذو الشرفِ الأسنىٰ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها المسلمون: لقد كان السلفُ الصالح رضوانِ اللهِ عليهم يداومون على تعليم تلكَ الأخبارِ والأحاديثِ، يذكِّرون بها الناسَ لما لها من الأثرِ الكبيرِ في اصلاحِ الأعمالِ وحياةِ القلوبِ، وإن التقصيرَ في العلمِ بها والاطلاعِ عليها يورثُ الغفلةَ، ويوقع في سوءِ العملِ. ومن ثم تُنسىٰ تلكَ الحقائقُ على طولِ الزمنِ. بل لقد كان السلفُ رحمهم اللهُ يعلِّمونها أولادَهم في المدارس والكتاتيبِ؛ يقولُ ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يعلِّمنا هذا الدعاءَ كماً يعلِّمنا السورةَ من القرآن. يقول: **قولوا اللهمَّ إني أعوذُ بك من عذابِ جهنمَ، وأعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، وأعوذُ بك من فتنةِ المسيحِ الدجالِ، وأعوذ بك من فتنةِ المحيا والمماتِ**»[1]. قال مسلمُ بنَ الحجاجِ رحمه اللهُ: بلغني أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٢٨٤ ـ ح١٣٧٧)، ومسلم (١/ ٤١٢ ـ ح٥٨٨).

طاووساً وهو راوي هذا الحديثِ عن ابن عباس قال: لابنه: دعوتَ بها في صلاتِك؟؟ فقال: لا. قال: أعدْ صلاتك. قالوا: وإنما أمرَ طاووسُ ابنَه بإعادةِ الصلاةِ لأنه يرىٰ وجوبَ الدعاءِ في الصلاةِ بهذه الدعواتِ الأربعِ. ولهذا جزمَ الإمامُ ابن حزم الظاهريُّ رحمه الله في المحلّى بفرضيةِ قراءةِ هذا التعوذِ بعد الفراغِ من التشهدِ.

والإمامُ السفارينيُّ رحمه الله يقول: ينبغي لكلِّ عالمٍ أن يَبُثَّ أحاديثَ الدجالَ بين الأولادِ والنساءِ والرجالِ؛ قال: ولا سيما في هذا الزمانِ الذي اشرأبَّتْ فيه الفتنُ، وكثرتْ فيه المحنُ، واندرستْ فيه معالمُ السُّننِ، وصارتْ السننُ فيه كالبدعِ والبدعةُ شِرعةً تُتَّبعُ.

واعلموا أن نبيَّكم عليه الصلاةُ والسلامُ قال: «**من حفظَ عشرَ آياتٍ من سورةِ الكهفِ عُصَم من الدجالِ**»[1]. وفي روايةٍ أخرىٰ: «**من أدركه فليقرأْ فواتحَ سورةِ الكهفِ فإنها جوارُكم من فتنتِه**»[2].

ثم بادروا رحمكم اللهُ بالأعمالِ الصالحةِ كما أرشدَ إلى ذلك نبيُّكم محمدٌ ﷺ «فهل تنتظرون إلا فقراً مُنسياً، أو غنىً مُطغياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرماً مُفنداً، او موتاً مُجهزاً، أو الدجالَ فشرُّ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٥ ـ ح٨٠٩)، وأبوداود (٤/ ١١٧ ـ ح٤٣٢٣)، والترمذي (٥/ ١٤٩ ـ ح٢٨٨٦) وقال: حديث حسن صحيح إلا أنه قال (من قرأ ثلاث...) الحديث، وأحمد (٥/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبوداود (٤/ ١١٧ ـ ح٤٣٢١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٥٢ ـ ح٢١٣٧) دون قوله (فإنها جواركم من فتنته) وكذا الترمذي (٤/ ٤٤٣ ـ ح٢٢٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

غائبٍ يُنتظرُ، أو الساعةَ فالساعةُ أدهىٰ وأمرُّ»[1].

وقانا اللهُ وإياكم فتنتَه وسائرَ الفتنِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٧٨ ـ ح٢٣٠٦) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٤/ ٣٢١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأعله الألباني.

حافظوا على الصلاة

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ شرحَ الصدورَ بالإسلامِ، وهدىٰ البصائرَ بالقرآنِ. عزَّ ربُّنا وتباركَ، نِعمُه لا تحصىٰ، وفضله لا يُحدُّ، فله الحمدُ كما يليقُ بجلالِه وعظيم سلطانِه، ولهُ الحمدُ كما يحبُّ ويرضىٰ. وأشهد ألا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه استقامَ كما أُمِرَ، وقامَ إلى الصلاةِ حتى تفطرتْ قدماهُ، وعبدَ ربَّه حتى أتاهُ اليقينُ، صلى الله وسلم وباركَ عليه وعلى آله وأزواجِه وأصحابِه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، صلاةً وسلاماً دائمين إلى يومِ الدينِ.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجلَّ فهي خيرُ الزادِ ليومِ المعادِ.

أيها المسلمون: ها هو الحجُّ قد قُوِّضتْ خِيامُه. وها هي قوافلُ الحجيجِ قد انطلقتْ موليةً وجوهَها شطرَ ديارِها. امتطتْ ما سخَّرَ اللهُ لها جواً وبراً وبحراً. أحسنَ اللهُ مُنقلَبَنا ومُنقلَبَهم، وبلَّغهم ديارَهم سالمين غانمين مأجورين غيرَ مأزورين.

لقد أتم اللهُ عليهم بفضلِه نعمتَه. حجوا بيتَ ربِّهم وأتموا نُسكَهَم في أمنٍ وأمانٍ، وراحةٍ واطمئنانٍ. فالحمدُ للهِ على ذلك كثيراً.

وماذا بعدُ ـ أيُّها الإخوةُ ـ من أحقُّ بالذِّكرِ والشُّكرِ ممن والىٰ عليه ربُّه نعمةَ وهو يتأملُ ويأملُ في خبرِ المصطفىٰ ﷺ: «**من حج هذا البيتَ فلم يرفثْ ولم يفسقْ رجع من ذنوبِه كيومِ ولدته أمُّه**»[1] بادرَ في تلبيتِه النداءِ، وسارعَ في الإجابةِ (لبيك اللهم لبيك).

يا هذا لقد قالَ ربُّكَ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ليس لطاعةِ ربِّكَ زمنٌ محدودٌ، وليس لتقوىٰ اللهِ موسمٌ مخصوصٌ، العبادةُ حقٌّ على العبادِ للهِ مفروضٌ، يعمرون بها كلَّ أوقاتِهم، ويستعملون فيها كلَّ جوارحِهم، ويخلصون فيها من كلِّ قلوبِهم.

كيفَ سيعودُ الحجاجُ إلى ديارِهم؟ وما هي عزائِمُ الخيرِ التي انعقدتْ عليها قلوبُهم؟ وكيف سيكونُ الكفُّ عن نوازِعِ الشرِّ التي تختلجُ في نفوسِ بعضهم؟؟.

كيفَ يكونُ حالُ مسلمٍ لا يعرفُ ربَّه إلا في أيامٍ معلوماتٍ أو ساعاتٍ محدوداتٍ، ثمَّ ينتكسُ بعدها في رجسِ المعاصي ويرتكسُ في أوضارِ[2] الآثامِ؟؟.

أيُّها الإخوةُ: لئن تفاضلَ بعضُ الأيامِ والشهورِ، وتضاعفتْ في بعضِ المواسمِ الأجورُ، فما ذلك إلَا من أجلِ مزيدِ العملِ وتنشيطِ الهممِ، ليزدادَ فيها حبُّ الطاعةِ ويستيقظَ فيها أهلُ الغفلةِ.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٤/ ٢٥ ـ ح١٨١٩)، ومسلم (٢/ ٩٨٣ ـ ح١٣٥٠).

(٢) الأوضار: الأدران والأوساخ.

ومن أجلِ محاسبةٍ دقيقةٍ ومعالجةٍ لأحوالِ النفسِ صادقةٍ. واختبارٍ للعملِ بيِّنٍ، فهذه وقفةٌ مع فريضةٍ من فرائضِ اللهِ ليست مرتبطةً بموسم، ولا موقوفةً على مناسبةٍ، فريضةٍ ليست في العمرِ مرةً ولا في العامِ مرةً، بل ولا في اليومِ مرةً ولكنها في اليومِ والليلةِ خمسَ مراتٍ.

مفروضةٍ على كلِّ مسلم مكلفٍ الغنيِّ والفقيرِ، والصحيح والمريضِ، والذكرِ والأنثىٰ، والمسافرِ والمقيمِ في الأمنِ والخوفِ لا يستثنىٰ منها مسلمٌ مكلفٌ ماعدا الحائضَ والنفساءَ.

إنها قرةُ عيونِ المؤمنينَ، ومعراجُ المتقينَ، بل إنها قبل ذلك قرةُ عينِ سيدِ المرسلينَ نبيِّنا محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأزكىٰ التسليمِ.

إنها الصلاةُ يا عبادَ اللهِ. الصلاةَ الصلاةَ. أيها المسلمون!! ركنُ الدينِ وعمودُه، **«لا دينَ لمن لا صلاةَ له»**[1]، **«ولا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة»**[2]، **«وليس بين الرجلِ والكفرِ والشركِ إلا تركُ الصلاة»**[3]، **«ومن تركَ صلاةً مكتوبةً متعمداً برئتْ منه ذمةُ اللهِ»**[4].

---

(١) رواه محمد بن نصر موقوفاً على ابن مسعود انظر الترغيب والترهيب (١/ ٣٨٥)، والطبراني الكبير أيضاً موقوفاً، وفيه أبونعيم ضرار بن صرد وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد (١/ ٢٩٥) وحسنه الألباني انظر صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من قول عمر رضي الله عنه (١/ ٣٩ ـ ح٥١).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٨٨ ـ ح٨٢).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن، وأحمد والبيهقي بإسناد صحيح =

وكان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ (لا يرون شيئاً من الأعمالِ تركهُ كفرٌ غيرَ الصلاةِ)[1] هذه كلها أخبار وزواجر وآثار صحت عن نبيِّكم عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام.

من أرادَ أن يحاسبَ نفسَه صادقاً فليتفقدْ نفسَه في صلاتِه وصلتِه مع ربِّه. ومن ضيعها فهو لما سواها أضيعُ، إنها آخر ما يفقدُ العبدُ من دينه فليسَ بعدَ ضياعِها والتفريطِ فيها إسلامٌ. ومن أجلِ هذا فإنها أولُ ما يُسألُ عنه العبدُ يومَ القيامةِ فإن قُبلَتْ قُبِلَ سائرُ العملِ، وإن رُدَّتْ رُدَّ سائرُ العملِ.

الصلاةُ ـ حفظكَ اللهُ ـ أولُ ما فُرض على نبيِّك محمدٍ ﷺ من الأحكام. فُرضتْ في أشرفِ مقامٍ وأرفعِ مكانٍ، لما أرادَ اللهُ أن يتمَّ نعمتَه على عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ، ويظهرَ فضلَه عليه أسرىٰ به من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصىٰ الذي باركَ حولَه، ثم رَفعَهُ إليه وقرَّبَهُ فأوحىٰ إليه ما أوحىٰ، ما كذبَ الفؤادُ ما رأى. أعطاهُ من الخيرِ حتى رَضي، ثم فرضَ عليه وعلى أمتِه الصلواتِ الخمسَ.

هي أولُ ما فُرِضَ وهي آخرُ ما أوصىٰ به النبيُّ ﷺ أمتَهُ وهو على فراشِ الموتِ منادياً: «**الصلاةَ الصلاةَ وما ملكتْ أيمانكم**»[2].

= انظر صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٢٨).

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٥ ـ ح٢٦٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٧٨)، وابن ماجه (١/ ٥١٩ ـ ح١٦٢٥)، وأبوداود (٤/ ٣٣٩ ـ ح٥١٥٦).

أيُّها المحاسبُ نفسَه: الصلاةُ لم يُرخصْ في تركِها لا في مرضٍ ولا في خوفٍ، بل إنها لا تسقطُ حتى في أحْرجِ الظروفِ وأشدِّ المواقفِ في حالاتِ الفزعِ والقتالِ والمسايفةِ والمنازلةِ: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٣٩]. اللهُ أكبرُ رجالاً أو ركباناً، مستقبلي القبلةِ أو غيرَ مستقبلِيها تُومِئون إيماءاً قدْرَ الطاقةِ.

أما المريضُ فليصلِّ قائماً فإن لم يستطعْ فقاعداً فإن لم يستطعْ فعلى جنبِهِ، وإذا عجزَ عن شروطِها من الطهارةِ وسترِ العورةِ واستقبالِ القبلةِ صلى بلا طهارةٍ وبلا سترِ عورةٍ وإلى غيرِ قبلةٍ ـ فالصلاةُ ـ رعاكَ اللهُ ـ لا تسقطُ بحالٍ مادامَ العقلُ موجوداً.

الصلاةُ ـ أيُّها المحاسبُ نفسَهُ ـ أكثرُ الفرائضِ ذكراً في القرآنِ، وإذا ذُكِرَتْ مع سائرِ الفرائضِ قدِّمتْ عليها لا يقبلُ اللهُ من تاركِها صوماً ولا حجاً، ولا صدقةً، ولا جهاداً، ولا أمراً بمعروفٍ ولا نهياً عن منكرٍ، ولا أيَّ عملٍ من الأعمالِ حتى يؤديها. هي فواتحُ الخيرِ وخواتمهُ.

مفروضةً في اليومِ والليلة خمسَ مراتٍ، يفتتحُ المسلمُ بالصلاةِ نهارَه، ويختمُ بها يومَه، يفتتحها بتكبيرِ اللهِ، ويختمُها بالتسليم على عبادِ اللهِ. بها افتُتِحتْ صفاتُ المؤمنينَ المفلحينَ، وبها خُتمتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ ثم قال في آخر صفاتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ ـ ١١].

هذه هي الصلاةُ ـ يا عبدَ اللهِ ـ وإنها لكذلك وأكثرُ من ذلكَ، ولماذا لا تكون كذلك؟ وهي الصلةُ بين العبدِ وربِّه؛ لذةٌ ومناجاةٌ تتقاصرُ دونها جميعُ الملذاتِ، نورٌ في الوجهِ والقلبِ، وصلاحٌ للبدنِ والروحِ، تُطهِّرُ القلوبَ، وتكفرُ السيئاتِ، وتنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ. مصدرُ القوةِ ومَطْردَةُ الكسلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

جالبة الرزقِ والبركة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

خشوعٌ وتعبدٌ يمسحُ آثارَ الغفلةِ والتبلدِ، ونورٌ وهدايةٌ يَحفظُ ـ بإذنِ اللهِ ـ من سُبلِ الضلالةِ والغوايةِ.

أيُّها المحاسبُ نفسَه: يجتمعُ للمصلي شرفُ المناجاةِ وشرفُ العبادةِ وشرفُ البقعةِ في المسجدِ، لا يُقْعِدُه عن الصلاةِ ظلمةُ ليلٍ ولا وعورةُ طريقٍ ولا صوارفُ دنيا: «**بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يومِ القيامةِ**»(١).

قد منَّ اللهُ عليهم فأقاموا الصلاةَ تكبيراً وتسبيحاً وذكراً وقرآناً في قيامٍ قانتٍ، وركوعٍ خاضعٍ، وسجودٍ خاشعٍ، وتشهدٍ موحِّدٍ، سجودٌ ومناجاةٌ يتطلعُ معهاً إلى منزلةِ القربِ من اللهِ العلي الأعلىٰ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩].

الصلاةُ هي المفزعُ إذا حزبَ الأمرُ، وهي الملجأُ إذا مسَّ اللغوبُ؛

---

(١) أخرجه أبوداود (١/ ١٥٤ ـ ح٥٦١)، والترمذي (١/ ٤٣٥ ـ ح٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥٦ ـ ح٧٨١).

«**أرحنا بها يا بلال**»[1]. امتلأت أرجاءُ المصلِّي بالهيبةِ، وسطعتْ جوانحُه بنورِ الإيمانِ، وخالطتْ بشاشةُ الإيمانِ قلبَهُ، يتدبَّرُ في صلاتِه قرآنَه، ويرفعُ إلى مولاه دعاءه، ويخشعُ لربِّه في مناجاتِه، اجتمع همُّه على اللهِ، وقرَّت عينُه بربِّه. فقرَّبَه وأدناه.

مؤمنونَ مفلحونَ، في صلاتِهم خاشعونَ، إذا قاموا إلى الصلاةِ أقبلوا على ربِّهم، وخفضوا أبصارَهم، ونظروا في مواضِع سجودِهم، قد علموا أن اللهَ قِبَلَ وجوهَهم، فهم إلى غيرِ ربِّهم لاَ يلتفتون، لقد دخلوا على ربِّ الأربابِ وملكِ الأملاكِ، كلُّ خيرٍ عندَهُ، وكلُّ أمرٍ بيدِه، إذا أعطىٰ لم يمنعْ عطاءَه أحدٌ، وإذا منعَ لم يعطِ بعدَه أحدٌ.

أيُّها المحاسبُ نفسَهُ ـ هذا حالُ أهلِ الفلاحِ حين ينادِيْهم منادِيْ الصلاةِ والفلاحِ.

أين هؤلاءِ من مصلٍ لاهٍ لا يدري أخمساً صلى أم أربعاً؟؟ تسلَّط عليه الشيطانُ، وعششتْ في رأسِه الصوارفُ ينتقلُ من وادٍ إلى وادٍ، ومن همٍّ إلى همٍّ، يقوم إلى صلاتِه ـ إن قامَ ـ وقلبُه بغيرِ اللهِ متعلقٌ، وفكرُهُ بسواهُ مشغولٌ، يحرِّكُ بلسانه ما لا يعيْ قلبُه.

ويلٌ لهم عن صلاتِهم ساهون، ويلٌ لهم يراءون ويمنعون الماعون، تحولتْ الصلاةُ عندهم إلى عادةٍ، قلَّ عندهم فيها الاكتراثُ، وابتعدوا فيها عن التفقُّهِ والتفقُّدِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٦٤، ٣٧١)، وأبوداود (٤/٢٩٦ ـ ح٤٩٨٥، ٤٩٨٦).

فيالطولِ حسرةِ من ضيَّع صلاتهُ، ويلَهُ ماذا ضيع؟ لقد ضيَّع ركنَ دينِهِ، ويحَهُ ما أعظم خيبتُه، وما أشدَّ غفلَتَهُ، حُرِمَ قرةَ العينِ، وراحةَ البالِ، وبَرْدَ اليقينِ.

أما سمعَ الزواجر؟؟ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٣].

يسمعُ منادي الصلاةِ والفلاح ثم يُدْبِرُ ويتولىٰ وكأنه المعنيُّ بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٤٩].

أيُّها المحاسبُ نفسه: قد علمت أن التكاسلَ والتهاونَ وقلَّةَ الذكرِ والفكرِ صفاتُ المنافقينَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، فلا حظَّ في الإسلامِ لمن تركَ الصلاةَ ومن ضيَّع صلاتَه فهو لما سواها أضيعُ.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

حافظوا على الصلاة

الخطبة الثانية

الحمد للهِ له الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ، أحمده سبحانه وأشكره على نعمه الباطنةِ والظاهرةِ، وأتوبُ إليه وأستغفره يغفرُ كبائِرَ الإثم وصغائِرَهُ. وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنَ سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، جمَّل اللهُ خَلْقَه وخُلُقَهُ، وجمع به القلوبَ المتنافرة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، هم النجومُ السائرةُ والبدورُ السافرةُ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها المسلمون: للصلاةِ في الدينِ المنزلةُ العليةُ، والرتبةُ السنيَّةُ، فهي عمودُ الإسلامِ، وركنُ الملةِ، من أدى حقَّها، وأتمَّ ركوعَها وسجودَها، وأكملَ خشوعَها، ووقفَ بين يديْ ربِّه بقلبِه وقالبِه كانت قرةَ عينِه وحلاوةَ قلبِه وانشراحَ صدرِه. قد حفِظها وحافظَ عليها.

وفي حديثٍ آخرَ: «**خمسُ صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العبادِ فمن جاءَ بهنَّ ولم يضيعْ منهنَّ شيئاً استخفافاً بحقِهنَّ كان له عندَ اللهِ عهداً أن يُدخلَه الجنةَ ومن لم يأتِ بهنَّ فليسَ له عندَ اللهِ عهدٌ أن شاءَ عذَّبَه وإن شاءَ أدخلَه الجنةَ**»[1].

---

(١) أخرجه أبوداود (٢/ ٦٢ـ ٤٢٠)، والنسائي (١/ ٢٣٠)، وابن ماجه =

ومن المحافظةِ عليها إتمامُ اركانِها وشروطِها وواجباتِها وسننِها، والطمأنينةُ فيها، واجتنابُ مسابقةِ الإمامِ أو مقارنتِه في أفعالِها.

يقولُ ابنُ مسعودٍ وسلمانُ رضي الله عنهما: «الصلاةُ مكيالٌ، فمن أوفىٰ استوفىٰ، ومن طفَّفَ فقد علمتم ما قالَ اللهُ في المطففين».

وإن من المحافظة عليها أمرَ الأهلِ بها والأقربين وبخاصةٍ من تحتَ يدِه من البنينَ والبناتِ، والأخذَ على يدِ المفرطِ منهم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

حتى الصبيُّ الذي لم يبلغْ له فيها حقٌّ وعلى وليِّ أمرِه فيها تكليفٌ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر**»[(١)].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، واستقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاةُ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ[(٢)]، و«**أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ الصلاةُ على وقتِها**»[(٣)] بذلك صح الخبر

= (١/ ٤٤٨ ـ ح١٤٠١)، ومالك في الموطأ (١/ ١٢٣ ـ ح١٤)، وأحمد (٤/ ٢٤٤).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٨٧)، وأبوداود (١/ ١٣٣ ـ ح٤٩٤، ٤٩٥)، والترمذي (٢/ ٢٥٩ ـ ح٤٠٧) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (١/ ١٩٧، ٢٠١) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠١ ـ ح٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٢) وهو صحيح بمجموع طرقه. انظر ارواء الغليل رقم ٤١٢ ومشكاة المصابيح بتحقيق الألباني رقم ٢٩٢.

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري ٢/ ١٢ ـ ح٥٢٧)، ومسلم (١/ ٩٠ ـ ح٨٥).

عن نبيِّكم محمدٍ رسول الله الذي قد أمركم ربُّكم بالصلاة عليه والتسليم فصلوا عليه وسلموا كما أمركم الله إن الله وملائكته يصلون على النبي اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله الطيبين وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين.

حديث في السيرة

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ أقامَ على خلقِه الحجةَ، وأوضحَ لهم المحجةَ، بعث نبيَّه محمداً ﷺ في الأميِّينَ على حينِ فترةٍ من الرسلِ وحاجةِ البشرِ. أحمده سبحانه وأشكرُه وأتوبُ إليه وأستغفرُهُ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله أفاضَ على القلوبِ بإذن ربِّه بحكمتِه البالغةِ، فانشرحتْ الصدورُ بعظاتِه المؤثرةِ، ثم أنشأ بمشيئةِ اللهِ أمةً، وبنىٰ بدينِه دولةً، صلاةُ اللهِ وسلامُه ورحمتُه وبركاتُه عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وأصحابه الصادقين المخلصين ومن اقتفا أثرَهم وانتهجَ سبيلَهم إلى يوم الدين.

أما بعـدُ:

فأوصيكم أيُّها الناسُ ونفسي بتقوى اللهِ عز وجلَّ، فزادُ التقوىٰ خيرُ زادٍ، ولباسُ التقوىٰ خيرُ لباسٍ.

أيُّها المسلمونَ: هـذا حديـثٌ تهنأُ بـه النفسُ، وينشـرحُ لـه الصدرُ، ويَنْفَتحُ معه القلبُ ويأخذُ بمجامع اللبِّ. حديثٌ تستريحُ في ظلِّه الخواطرُ، وتتسعُ في رحابِه الأبصارُ والبصائرُ، ولكنه حديثٌ مع الأسفِ لا يكفيهِ من الوقتِ كفايةٌ، ولا يحيطُ به من اللسانِ بيانٌ. مهما تبارتْ القرائحُ لتُنَافِسَ، والأقلامُ لِتُسَطِّرَ،

فستظلُّ مكانَها ولن تبارحَ موقَعها وكأنَّها لم تحركْ بالشفتين حديثاً ولم تُسجلْ باليراعِ كلاماً.

إنهُ الحديثُ عن صاحبِ السيرةِ التي لا ينضبُ معينُها والرسالةِ التي لا يَجفُّ مِدادُها، مُلتقىٰ الأخلاقِ الفاضلةِ ومثالُ الإنسانيةِ الكاملةِ.

لا يوجدُ في سِيَرِ العظماءِ ما يوجدُ في سيرةِ سيِّدِ الأنبياءِ، فلا شرفَ يذكرُ ولا كمالَ يُنعتُ إلا لمحمدٍ ﷺ منه النصيبُ الأوفىٰ والمحلُّ الأسمىٰ. من ذا يستطيعُ أن يأتيَ بحديثٍ منه يَشْفي غليلَ السامعين ويطفيءُ لوعةَ المحبين.

بلْ كيفَ يرومُ بشرٌ أن يَبْلُغَ في الثناءِ عليه وقد أثنىٰ عليه الخلاقُ العليمُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] فسبحان من إلهٍ أعطىٰ ثم أثنىٰ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾. لقد استدرجَ القرآنَ بين جنبيه حتى صارَ خلقُهُ القرآن. صلاةُ اللهِ وسلامُه وبركاتُه على محمدٍ وآلِ محمدٍ وأصحابِ محمدٍ.

إن الذين بهرتْهم عظمتُه لمعذورون، وإن الذين افتدوهُ بأفئدتهم لهم المنصورون. لقد آتاه اللهُ من نِعمِه وأفاضَ عليه من رحمتِه ما جعلَه أهلاً لحملِ رسالتِه، واصطفاه ليكون خاتِمَ أنبيائِه. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

لقد كانت الآياتُ والمعجزاتُ والحُجَجُ والدلائلُ تعيشُ معه حياتَهُ منذ استقبله المهدُ حتى دثَّره اللحدُ، عليه الصلاةُ والسلامُ.

طَوْرُ طفولتِهِ كان معلوماً لدى القومِ، حصل فيه من الآياتِ ما جعلَ الأبصارَ من حولِه تَتَلَفَّتْ، والأَعينَ إليه ترنو. تحدثتْ عن ذلك المراضعُ، وأخبر بذلك الأترابُ، رصدوا ما لحظوا، حيث كانتْ أسراراً كشفتْ عنها الأيامُ لما يريد الله بعبده من كرامته.

وأما شبابُه فيالَطُهرَ شبابِه فقد كان لديهم أكثرَ وضُوحاً وإسفاراً، وأعظمَ أدباً وإكباراً. وليس من المبالغةِ في شيءٍ إذا قيلَ إن صفحةَ حياتِه البيضاءَ النقيةَ كانت ضميرَ مجتمعِهِ النابضِ، وقلبَهُ الحيَّ، ومقياسَهُ العادلَ، يقيسون به سلوكَهَم، ويعرضون عليه أعمالهم. أمانةً وعفةً، وأدباً ونزاهةً، وسمواً وحناناً، وعقلاً وبياناً. لم تخْفَ عليهم من حياتِهِ خافيةٌ.

أيُّها الإخوة: إن آدابَ الظواهرِ عنوانُ آدابِ البواطنِ، وحركاتِ الجوارحِ ثمراتُ الجوانحِ، والأعمالَ ميزانُ الأخلاقِ، وسرائِرَ القلوبِ مغارسُ الأفعال، ومن خشعَ قلبُه خشعتْ جوارحُهْ.

إذن فشمائلُ المصطفىٰ ﷺ وخصَالُه آياتٌ من الآياتِ على نبوتِه وحجةٌ من الحجَجِ على رسالتِه. إنها تطبيقٌ للتعاليمِ بالقدوةِ، وتعليمٌ لأدب النَفسِ بالعملِ، وتنظيمٌ لطبائعِ النفوسَ بالأسوةِ. ماالذي دعا عليةً مَن القومِ وسادةً من ساداتِ القبائلِ أمثالَ أبي بكرٍ بن أبي قحافةَ وطلحةَ بن عبيدِالله والزبيرِ بنِ العوامِ وعثمانَ بنِ عفان وعبدِالرحمن بن عوفٍ وسعدِ بن أبي وقاصٍ، هؤلاء العليةُ والسادةُ يتركون مواقِعَهم، ويبادرونَ في اتِّباعِ النبيِّ الأميِّ راضي بحياةٍ تمورُ بالأعباء موراً وتنوءُ بالصعابِ أثقالاً؟؟؟.

يقابُلهم ضِعَافٌ من القومِ آخرون أمثالُ صهيبٍ وبلالٍ وعمارِ بن ياسرٍ وأمِّه وأبيه، يلوذونَ بحماهُ، ويُهرعون إلى دعوتِه، وهم يبصرونه أعزلَ السِّلاحِ، قليلَ ذاتِ اليدِ ينزلُ به الأذىٰ، ويلاحقُه السفهاءُ، وتتبعُهُ المطَاردةُ، لا يَسْنِدُهُ سلطانٌ، ولا يُؤيِّدُه عسكرٌ ولا يُمَهِّدُ له مال، في تحدٍ رهيبٍ وصبرٍ جميلٍ ثم صفحٍ جميلٍ. ما كانت الدعوةُ في مبدئِها إلا قيظاً وسغباً، وحجارةً في رمضاءَ، ما الذي ملأ قلوبَ كلِّ هؤلاءِ عزماً وإيماناً وتعبداً ويقيناً، إنه سيرةُ محمدٍ وصدقُ محمدٍ وخلُقُ محمدٍ وتأييدُ ربِّ محمدٍ ﷺ.

الله أكبرُ الأتباعُ يزيدون والمؤمنون يتكاثرون وهو يردِّدُ على أسماعهم: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن: ٢١] ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

نعم؛ لقد صدَقَ وصدَّقُوه. إن الدنيا ستُفْتَحُ عليهم أقطارُها، وإن أقدامَهم ستخوضُ في ذهبِ العالمِ وتيجانِه، لقد أنبأَهُم إن هذا القرآن الذين يتلونهُ في استخفاءٍ ستردِدُه الآفاقُ عاليَ الصَّدْعِ، قويَّ الصدىٰ لا في جيلِهم فحسبُ ولا في جزيرتِهم فحسبُ بل في جميعِ الأزمانِ وعبرَ كلِّ البلدانِ، هذا في الدُّنيا أما الآخرةِ فخيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً وخيرٌ وأبقىٰ.

نعم، لقد صدَق وصدَّقوه وهم يرونَ جزيرَتَهم أشتاتاً من غيرِ جامعٍ، وهملاً من غيرِ رابطٍ، يعيشون بلا هدفٍ، صرفوا طاقاتِهم في نزَاعٍ لا ينقطعُ، وصراعٍ لا يفترُ.

لقد جاءَ بالصِّدقِ وجاهدَ بالحقِّ وجالَد بالصبرِ وجادلَ بالحججِ وأبلغَ في البيانِ، في غارِ حراءٍ، وبطاحِ مكةَ، في دارِ الأرقمِ،

ومضاربِ القبائلِ، في جبلِ ثورٍ، ودارِ أبي أيوبَ، وفي مسجدِ طيبةَ، وأسواقِ المدينةِ، في السلمِ والحربِ، والخُلطةِ والعزلةِ، والرخاءِ والشدةِ والسفرِ والإقامةِ فكان رسولَ اللهِ ونبيَّ البلاغِ، وقائدَ المعركةِ، وإمامَ التشريعِ، تحمَّلَ فداحةَ العبءِ وثِقَلَ المسئوليةِ ووعورةَ الطريقِ متقلباً بين أذىٰ المشركينَ وسفهِ الجاهلين وتطاولِ المنافقين.

الصلاةُ والسلامُ على نبيِّ اللهِ ورحمتهُ وبركاتهُ.

بشرٌ يعيشُ حياةَ البشرِ، يأكلُ الطعامَ ويمشيْ في الأسواقِ، يَخْصِفُ نعلَه، ويرقِّع ثوبَه ويخدم في مهنةِ أهلِه. لا يجد من الدَّقلِ ـ وهو رديءُ التمر ـ ما يملأُ بطنَه، ولم يشبعْ من خبزٍ ثلاثةَ أيامٍ تباعاً. رعىٰ غنماً لبعضِ أهلِه، واتَّجر بمالٍ لزوجه، وحفظَ الودائعَ لقومِهِ، يحملُ الكَلَّ، ويُكْسِبُ المعدومَ، ويعينُ على نوائِبِ الحقِّ، لا يَجْزِيْ السيئةَ بالسيئةِ. ولكن يعفو ويصفح، يكرمُ أهلَ الفضلِ، ويتألَّفُ أهلَ الشرفِ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا صخابٍ في الأسواقِ. اجتمع فيه ما تفرَّقَ في الناسِ من خصالِ الرجولةِ وصفاتِ الكمالِ وخلائقِ النبلِ.

ثم ماذا؟ لقد دانت له الجزيرةُ، وفُتحتْ عليه أبوابُ الغنائم والمغانم فلم يزدَدْ إلا زهداً وورعاً وتواضعاً، ينامُ على الحصيرِ حتى أثَرَتْ أعواده في جنبِه الشريفِ عليه الصلاةُ والسلامُ. وينتقلَ إلى الرفيقِ الأعلى ودرعُه مرهونةٌ في طعامٍ لإهلِه. لقد أفنىٰ حياتَهُ مبلِّغاً عن ربِّه البلاغ المبين لا يرجو لنفسِه مغنماً ولا يَجلبُ لشخصِه جاهاً.

وبعدُ أيُّها الإخوةُ: فهذه شذراتٌ بل إلماحاتٌ من حديثِ السيرةِ، ثم لْينظرْ أتباعُ محمدٍ اليومَ ماذا في نفوسِهم من دينِه؟ وماذا في أخلاقِهم من أخلاقِه؟ وماذا في أيديهم من تراثِه؟ لقد أصبحوا وكثيرٌ منهم الأخلاقُ والتراثُ بل الدينُ مقسَّماً بين ثعالبِ الشعوبِ وذُؤبانِ الأممِ، فلْيُفيقوا من النومِ، وليخفِّفوا عن القدرِ اللَّومَ، فإن الله لا يظلِمُ مثقالَ ذرة ولكن الناسَ أنفسَهم يظلمون. من قَتَل في نفسِهِ الطموحَ، ونزعَ من حياتِه الجدَّ ورضي أن يكونَ على هامشِ الحياةِ أثراً بعد عينٍ كقطعةٍ في متحفٍ يدلُّ على ملكٍ قديم وشعبٍ منقرضٍ، من رضيَ ذلك لنفسِهِ فيسيرٌ عليه أن يُفسد دينَهُ العابثونَ وينتقصَ من ديارِه الطامعون ثم يقعدَ في الصفوفِ الخلفيةِ يندبُ حظَّه ويتحسَّرُ على مجدِه ويتعلَّلُ بالأمانيِّ الكواذبِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

[التوبة: ١٢٨ـ ١٢٩].

حديث في السيرة

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ شرحَ صدورَ أهلِ الإيمانِ للهدىٰ، من يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومن يضللْ فلن تجدَ له ولياً مرشداً، أحمده سبحانه وأشكرُه وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له أحصى كلَّ شيءٍ عدداً، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، أكرِمْ به عبداً وسيداً، وأعظمْ به أصلاً ومحتداً صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه مصابيحُ الدجىٰ ونجومِ الهدىٰ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـدُ:

فيا أيُّها المسلمون: إن محمداً ﷺ ليسَ قصةً تُتلىٰ أو سيرةً تُملىٰ في مناسبةٍ أو غيرِ مناسبةٍ، وليس حبُّ محمدٍ ﷺ بتأليفِ مدائحَ أو صياغةِ نعوتٍ تبلغُ الغلوَّ المذمومَ والإطراءَ المحظورَ.

إن رباطَ المسلمِ برسولِه الكريم أقوىٰ وأعمقُ، وما جَنحَ من جنحَ من المسلمينَ إلى هذه الأساليبِ إلا يومَ أن تركوا اللبابَ وأعياهم الحِمْلُ فاكتفوا بالمظاهرِ والرسومِ، وهذا لعمرُ الحقِّ لا يكلِّفُ شيئاً ولا يستدعيْ جهداً، إن الجهدَ الذي يتطلبُ العزمات هو الاستمساكُ بالجوهرِ والعودةُ إلى الدين بكلِّه وبلبِّه، صفاءٌ في العقيدةِ وصحةٌ في المنهجِ، وحينها ينهضُ المسلمُ إلى تقويمِ

نفسِه، وإصلاحِ شأنِه حتى يكونَ أقربَ إلى نهجِ محمدٍ ﷺ وخُلُقِه في معاشِه ومعادِه، وحربِه وسلمِه، وعلمِه وعملِه، وعاداتِه وعباداتِه. إن المسلمَ الذي لا يعيشُ الرسولُ في قلبِه، ولا يظهرُ الاتباعُ في عملِه لا يغني عنه أن يؤلفَ كتاباً أو يسمعَ سيرةً أو يرددَ مديحاً، ألا ما أرخصَ الحبَّ حينما يكون كتابةً وكلاماً وما أغلاه وأنفسه حين يكونُ مسئوليةً وقدوةً وذماماً؟؟؟.

أليس من المتحتمِ دراسةُ سيرةِ نبيِّنا ﷺ لنأخذَ بها أنفسنَا ما وسِعَنا، ونربِّي عليها نشأنا ما استطعنا؟؟؟.

فدرسُ السيرةَ ليخرجَ للناس علماءُ مربون وأهلُ دعوة ومصلحون أكثرُ درايةً بالأساليبِ التي تبلغُ العقولَ والقلوبَ فتنفي عنها الغوايةَ وخواطرَ السوءِ، وتعمرَها بالرغبةِ البالغةِ الصادقةِ في بلوغِ الخيرِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

استقيموا ولا تطغوا

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ سلكَ بأهلِ الاستقامة سبيلَ السلامةِ، أحمده سبحانه وأشكرُه وأتوب إليه وأستغفرُه، بوأَ المتقين عندَه مقعدَ صدقٍ في دارِ المُقامةِ، وأشهد ألا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه شهادةً أدخرُها ليومِ القيامةِ. وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه فازَ من جعَله إمامَهُ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله أصحابه أهلِ الفضلِ والكرامةِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـدُ:

فأوصيكم أيُّها الناسُ ونفسي بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ فاتقوا الله رحمكم الله.

يقول اللهُ عز وجل في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤].

أيها المسلمون: الاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ تأخذُ بمجامعِ الدِّينِ. الاستقامةُ: قيامٌ بين يدي اللهِ بما أمرَ اللهُ، والتزامُ بالصدقِ مع اللهِ والوفاءِ بعهدِ اللهِ. فالاستقامةُ للهِ وباللهِ وعلى أمر اللهِ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾. كما استقاموا إقراراً استقاموا إسراراً.

وكما استقاموا قولاً استقاموا عملاً.

لقد جمعوا بين أصلَيْ الكمالِ في الإسلام الإيمانِ والاستقامةِ، فالإيمانُ باللهِ كمالٌ في القلبِ بمعرفةِ الحقِّ والسيرِ عليه، معرفةٌ بمقام الربوبيةِ والألوهيةِ معرفةٌ باللهِ رباً حكيماً إلهاً مدبراً معظَّماً في أَمرِه ونهيِه. قد عُمر القلبُ بخوفِه ومراقبته، وامتلأ منه خشيةً وإجلالاً، ومهابةً ومحبةً، وتوكلاً ورجاءاً. وإنابةً ودعاءاً. أخلصَ له في القصدِ والإرادةِ، ونبَذَ الشركَ كلَّه، وتبرأَ من التعلقِ بغيرِ ربِّه.

والاستقامةُ اعتدالٌ في داخلِ النفسِ من غيرِ عوجٍ يمنةً أو يسرةً. انتهاجٌ للتقوىٰ والعملِ الصالحَ، والتزامٌ بالصوابِ من الرأي والعلمِ والعملِ، وقيامٌ بأداءِ الفرائضِ واجتنابِ المناهي، وقولٌ بالحقِّ وحكمٌ به. وبعدٌ عن مواضعِ الشُّبَهِ وموارِدِ الفتنِ.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ إذا تمكن ذلك في العبدِ وتحقَّقَ ظهرَ ذلك طمأنينةً في النفسِ ورقةً في القلبِ وقرباً من الربِّ.

إيمانٌ واستقامةٌ ينجلي بها الليلُ البهيمُ لذي البصرِ السقيم، ينسكبُ على القلوبِ الظَّمِئةِ فترتوي، ويغشىٰ النفوسَ العاصيةَ فتستكينُ، ويهيمنُ على العقولِ الشاردةِ فترجعُ وتؤبُ.

بالاستقامةِ أُمر نبيُّنا محمدٌ ﷺ وأصحابُه رضوان الله عليهم.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥]. وبالاستقامةِ أُمرَ النبيَّانِ الكريمانِ موسىٰ وهارونُ عليهما السلام: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

أيها المسلمون: استقيموا كما أُمرتم ولا تطغوا، استقيموا ولا تتبعوا الهوىٰ. استقيموا ولا تتبعوا سبيل الذي لا يعلمون.

أيُّها المسلمون: الاستقامةُ شاقةٌ، فالنفسُ معها تحتاجُ إلى المراقبةِ والملاحظةِ، استقامةٌ لا تتأثرُ بالأهواءِ. استقامة تحققُ العدلَ والتوحيدَ، استقامةٌ بعيدةٌ عن المجاوزةِ والطغيانِ. يقول عمرُ رضي الله عنه: الاستقامةُ أن تستقيمَ على الأمرِ والنهيِ ولا تروغُ روغانَ الثعلبِ. وأوضحُ من ذلك وأبلغُ ارشادُ النبيِّ ﷺ عبدَالله بنَ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما إذ قال له: «**يا عبدَالله بنَ عمروٍ، إن لكلِّ عابد شِرَّة، ولكلِّ شرَّةٍ فترةٌ، فمن كانتْ فترته إلى سنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»[1].

ويقولُ بعضُ السلفِ: «ما أمرَ اللهُ بأمرٍ إلا وللشيطانِ فيه نزغتان، إمَّا إلى تفريطٍ وإمَّا إلى مجاوزةٍ، ولا يبالي بأيِّهما ظفرَ زيادةٍ أو نقصٍ.

الأمرُ خطيرٌ أيها الإخوةُ: فبعضُ الناسِ قد لا يفوتُه علمٌ أو عبادةٌ ولكنْ يفوتُه التوفيقُ والصوابُ، استقَامةٌ في اقتصادٍ، وعملٌ بعد علمٍ، واخلاصٌ في القلبِ ومتابعةٌ للسنةِ. اقتصادٌ يعصمُ عن بدعةِ التفريطِ والإضاعةِ، ويحفظُ من حدِّ الغلوِّ والاسرافِ والمجاوزةِ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/١٥٨)، والترمذي باختلاف يسير (٤/٥٤٨ ـ ح٢٤٥٣) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

ونظراً لِعِظَمِ الأمرِ ودقَّتِه فقد وجَّهكُم نبيُّكم محمدٌ ﷺ بقوله: «**استقيموا ولن تحصوا**»[1]، وبقوله: «**سددوا وقاربوا**»[2]، وأمركم ربُّكم عزَّ شأنُه بقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦].

فالمطلوبُ الاستقامةُ وهي السدادُ والإصابةُ فإن لم يقدِرْ فليجتهدْ في المقاربةِ وليستغفرِ اللهَ، فإن نزَلَ عن ذلك فالخوفُ عليهِ من التفريطِ والإضاعةِ.

استغفارٌ مقارنٌ لمسيرةِ الاستقامةِ جبراً للنقصِ البشريِّ، وتسديداً للقصورِ الإنسانيِّ، استغفارٌ وتوبةٌ تعيدان إلى جادةِ الاستقامةِ وتردان إلى مسلكِ الحقِّ والعدلِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود: ١٤٤ ـ ١١٥]. «**واتبع السيئة الحسنة تمحها**»[3].

استقامةٌ مقرونةٌ باستغفارٍ مما يعني يقظةً دائمةً ومحاسبةً صادقةً وضبطاً للانفعالاتِ البشريةِ.

إذا كان الأمرُ كذلكَ ـ أيها الإخوةُ المسلمون ـ فإن مدارَ

(١) أخرجه ابن ماجه (١/١٠١ ـ ح٢٧٧)، وأحمد (٥/٢٧٧، ٢٨٢) وهو صحيح بمجموع طرقه. انظر ارواء الغليل رقم ٤١٢، ومشكاة المصابيح بتحقيق الألباني رقم٢٩٢.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١/١١٦ ـ ح٣٩)، ومسلم (٤/٢١٧٠ ـ ح٢٨١٦).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٤/٣١٣ ـ ح١٩٨٧)، وأحمد (٥/١٥٣)، والحاكم (١/٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرطهما.

تحقيق الاستقامةِ على وجهها حفظُ القلبِ واللسانِ. فقد جاءَ عند أحمدَ من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُهُ»**[1]. ولقد كان من دعاءِ النبي ﷺ: **«أسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً»**[2].

من صلَحَ قلبُه استقامَ حالُه فلم ينظرْ ببصرِه إلى محرمٍ، ولم ينطقْ لسانُه بمأثمٍ، ولم يبطشْ بيدِه في مظلمةٍ، ولم ينهضْ بقدمِه إلى معصيةٍ.

«والأعضاءُ كلُّها تكفرُ اللسانَ وتقولُ لهُ في مَطْلَعِ كلِّ صباحٍ: اتقِ اللهَ فإنما نحنُ بكَ فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججتَ اعوججنا»[3]. بهذا جاءَ الخبرُ عن رسولِ اللهِ ﷺ مرفوعاً وموقوفاً. وإذا كان الأمرَ كذلكَ فاحقٌّ من يحفظُ حقَّ الاستقامةِ ولاةُ أمورِ المسلمين ورعاياهم، أما ولاةُ أمور المسلمين ففرضٌ عليهم الاستقامةُ على أمرِ اللهِ وتقوىٰ ربِّهم فيما استرعاهم، فمسئوليتُهم عُظمىٰ وأمانتهم كُبرىٰ، يجبُ عليهم أن يقيموا دينَ اللهِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية علي بن مسعدة. وقال محقق المسند: قال في الخلاصة علي بن مسعدة وثقه أبوداود الطيالسي، وقال أبوحاتم: لا بأس به، وقال النسائي: ليس بالقوي. اهـ. وقال في التهذيب: لا بأس به. انظر الفتح الرباني (١٩/ ١٨٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤)، والترمذي (٥/ ٤٤٤ ـ ح٣٤٠٧)، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٢٣ ـ ح٢٤٠٧) موقوفاً ومرفوعاً، وأحمد (٣/ ٩٦)، وابن خزيمة في صحيحه، وحسنه الألباني.

ويحكموا بما أنزلَ اللهُ، ويطبقوا في الناس شريعةِ اللهِ، يأمرون بالمعروفِ وينهون عن المنكرِ، ويقيمونَ العَدلَ في الأمةِ، يرعون المصالحَ، ويتفقدون الأحوالَ، ويرفُقُون بالرعيةِ، ويؤمِّنون السُّبلَ، ويكفُّون المظالمَ، يحفظونَ الدينَ وينفذون الأحكامَ ويقيمون الحدودَ ويولُّون الأكفاءَ.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١].

أما الرعية ففرضٌ عليهم حفظُ حقوقِ ولاةِ أمورِ المسلمين، والتعاونُ معهم في أداءِ المسئولياتِ، وحملِ الأماناتِ، وتكثيرِ الخيرِ وسُبُلِه، وتقليلِ الشرِّ ومواردِه. حقٌّ لولاة الأمورِ السمعُ والطاعةُ، والدعاءُ بالتوفيقِ والتسديدِ، وبذلُ النصحِ والصدقِ فيه بالحكمةِ والرفقِ والكلمةِ الطيبةِ والموعظةِ الحسنةِ مع حفظِ حقِّهم في الإجلالِ والهيبةِ والتعظيم والتوقيرِ والحذرِ من الوقيعةِ في أعراضِهم والجرأةِ عليهم بالتنقُّصِ والدعاءِ عليهم فهذا من أسباب تولُّدِ الضغائنِ والأحقادِ وفشوِّ التنازعِ.

إن الطاعةَ لازمةٌ على المرءِ فيما أحبَّ وكرِه، في اليسرِ والعسرِ والمنشطِ والمكرَهِ إلا أن يؤمرَ بمعصيةٍ فلا سمعَ ولا طاعةً، إنما الطاعةُ في المعروفِ. يقولُ عبادةُ بن الصامتِ رضي الله عنه: «بايعنا رسولَ اللهِ ﷺ على السمعِ والطاعةِ في العسرِ واليسرِ والمنشطِ والمكرهِ، وعلى أثرةٍ علينا، وعلى ألا ننازعَ الأمرَ أهلَه وعلى أن نقولَ الحقَّ أينما كنَّا لا نخافُ في اللهِ لومةَ

لائمٍ»[1] متفق عليه.

ومن رأى من أميره شيئاً يكرهُه من معصيةٍ فليكرهْ ما يأتي من معصيةٍ ولا ينزعْ يداً من طاعةٍ فإن من خرجَ عن الطاعةِ وفارقَ الجماعةَ ماتَ ميتةً جاهليةً[2]. والعاصيْ لا يكْفُرُ بالمعصيةِ إن لم يستحلَّها، وليس من سبيلِ الاستقامةِ أن يحملَ الحماسُ بعضَ الناسِ الوقوعَ في مخالفاتِ الشرعِ.

فاتق اللهَ يا عبدَالله ولا تقلْ بلسانِكِ إلا معروفاً، ولا تبسطْ يدَكَ إلا في خيرٍ. كُفَّ عما لا يعني ودعْ فضولَ الكلامِ والنظرِ. اجعلْ مراقبتكَ لم لا تغيبُ عن نظرِه، واجعلْ شُكرَكَ لمن لا تنقطع عنك نعمتُه، واجعلْ طاعتَكَ لمن لا غنا لكَ عنهُ، واجعلْ خضوعَكَ لمن لا تخرجُ عن ملكِهِ وسلطانِهِ.

يقولُ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: عليك بالرجاءِ لمن يملكُ الوفاءَ، وعليك بالحذرِ لمن يملكُ العقوبةَ، وعليك بمراقبةِ من لا تخفىٰ عليه منك خافيةٌ.

أيها الإخوةُ والأحبةُ: هذه هي الاستقامةُ في حقيقتِها وطريقتِها. أما جزاءُ أهلها فتنزلُ عليهم ملائكةُ الرحمن ألا تخافوا ولا تحزنوا. أمنٌ من المخاوفِ، وسلامةٌ من المكارِه لا يأْسَوْنَ على فائتٍ، ولا يُشْفقُون على مستقبلٍ، مُسَدَّدُون مُوفَّقون،

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١٣/ ٢٠٤ ـ ح٧١٩٩، ٧٢٠٠)، ومسلم (٣/ ١٤٧٠ ـ ح١٧٠٩).
(٢) انظر البخاري (١٣/ ٧ ـ ح٧٠٥٣، ٧٠٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٧٧ ـ ح١٨٤٩، ٣/ ١٤٨١ ـ ح١٨٥٥).

محفوظون بملائكةِ اللهِ من أمرِ اللهِ بإذن اللهِ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١] لهم الأمن في الحالِ والمآلِ، والنعيمُ المقيمُ: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٢].

أيُّها الإخوة: الاستقامةُ في الدينِ مقامٌ من أعلى المقاماتِ، به يُرتقىٰ لأسمىٰ الكمالاتِ وأفضلِ الطاعاتِ، مراقبةً لله على دوامِ الأوقاتِ.

أهلُ الاستقامةِ لا يُصبحُ الدينُ عندهم فريسةَ العابثين، ولا ميدانَ المتلاعبين، وليس لعبةً للمنحرفين وتقلباتِ المنافقين.

أهلُ الاستقامةِ يتواصلون بالدين، لا يحملُ بعضُهم على بعضٍ ضغينةً، ولا تشوبُهم ريبةٌ، ولا تُسرعُ إليهم غِيبةٌ.

في اللهِ يتحابون، وفي دينِ اللهِ لا يَغْلُون أو يزيدون، ومهما طالَ عليهم الطريقُ فلغير دينِ اللهِ لا يدينون، غير ناكثين في عزيمةٍ، ولا منحرفين عن وِجُهةٍ، ولا زائغين عن عملٍ.

أما من قلَّ نصيبُهُ واختلَّتْ استقامتُهُ واعوجتْ مسيرتُه فتجرفُه أهواءٌ عاتيةٌ، وتحرِفُهُ أغراضٌ متباينةٌ، لا يحملُ رسالةً، ولا يقيمُ دعوةً، ينحرفُ عند أدنىٰ محنةٍ، ويَضِلُّ عن أدنى شبهةٍ، ويَزِلُّ لأولِ بارقةِ شهوةٍ: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. دينهُ ما تهوىٰ نفسه، وعقيدتُه ما يوافقُ هواه.

هذا حالُ الفريقين، وهذا مسلكُ النجدين، فليجاهدِ العبدُ نفسَهُ في تحقيقِ الإيمانِ والاستقامةِ، وليسألْ ربَّه الثباتَ بعد المماتِ، والحفظَ من فتنِ الشهواتِ والشبهاتِ،

وليعرضْ عن الجاهلين وليصفحْ عن المسيئين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠ـ ٣٢].

استقيموا ولا تطغوا

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ أكملَ لنا الدينَ وأتمَّ علينا النعمةَ، أحمده سبحانه وأشكرُه على نعمِه الجَمَّةِ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه بعثه للعالمين رحمةً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله أصحابه خيارِ الأمةِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعـدُ:

فقد جاءَ سفيانُ بنُ عبدِاللهِ الثقفيِّ رضي الله عنه إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً غيرَكَ، فقال: «**قل آمنتُ باللهِ ثم استقِمْ**»[1]. رواه مسلم، وزادَ غيرُ مسلم بسندٍ صحيح قلتُ يارسولَ اللهِ ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذَ بلسانِ نفسهِ ثم قال: «**هذا**»[2].

أيُّها الإخوة: الإيمانُ دليلُ الحيرانِ، وعُدَّةُ المحاربِ، ورفيقُ الغريبِ، وأنيسُ المستوحشِ، ولِجام القوةِ، وقوةُ الضعيفِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ ـ ح٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي (٤/ ٥٢٥ ـ ح٢٤١٠) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤ ـ ح٣٩٧٢)، والحاكم (٤/ ٣١٣) وقال: صحيح الاسناد. ووافقه الذهبي.

الإيمانُ ضرورةٌ للإنسانِ كي يطمئنَّ ويبقىٰ، وضرورةٌ للإنسان كي يسعدَ ويرقىٰ. إيمانُ القرآنِ والسنةِ، إيمانُ الصحابةِ وتابعيهم بإحسانٍ، علمٌ ونيةٌ، عقيدةٌ وعملٌ.

من أرادَ السعادةَ فلا سعادةَ بغيرِ طُمأنينةٍ، ولا طُمأنينةُ بغيرِ إيمانٍ. ومن أرادَ الحياةَ الطاهرةَ فلا طهارةً بغير استقامةَ، ولا استقامةَ بغيرِ إيمانٍ. والنصرُ على الأعداءِ لا يكونُ بغيرِ جهادٍ، ولا جهادَ بغير إيمانٍ. والخيرُ والبركةُ والرخاءُ لا تكونُ بغير أخلاقٍ ولا أخلاقٍ بغير إيمانٍ.

والتعاونُ بين المسلمين لا يكونُ بغير إخاءٍ ولا إخاءٍ بغيرِ إيمان، وأفضلُ الطاعاتِ مراقبةُ اللهِ على دوامِ الأوقاتِ.

الغيبة والمغتابون آثار وأخطار

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ العليِّ الأعلىٰ، خلقَ فسوىٰ، وقدر فهدى، أحصى على العباد أقوالَهم وأفعالَهم في كتابٍ لا يضلُّ ربي ولا ينسىٰ. أحمده سبحانه وأشكره، وأتوبُ إليه وأستغفره، له ما في السمواتِ وما في الأرضِ ومابينهما وما تحت الثرىٰ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، جلَّتْ عظمتُه، وعمتْ قدرتُه، وتمتْ كلمتُه صدقاً وعدلاً: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه: ٧]. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه بعثَهُ بالحقِّ والهدىٰ، فما ضلَّ وما غوىٰ، وما نطقَ عن الهوىٰ إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله دوحةِ البيتِ الطاهرةِ، وعلى صحابتِه عصبةِ الحقِّ الظاهرةِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان العاملين للأولىٰ والآخرةِ وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ فأوصيكم أيُّها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجل، فمن اتقىٰ اللهَ كفاهُ، ومن اتقى الناسَ لن يغنوا عنه من اللهِ شيئاً. أوصيكم ونفسي بتقوى اللهِ التي لا يقبلُ غيرَها، ولا يرحمُ إلا أهلَها، ولا يثيبُ إلا عليها، الواعظون بها كثيرٌ، والعاملون بها قليلٌ، جعلنا اللهُ وإياكم من المتقين.

أيُّها المسلمون: دينُ اللهِ كاملٌ شاملٌ؛ تضمَّن حقائقَ العقيدةِ والشريعةِ، والتوحيدِ والعبادةِ، والمعاملةِ والعادةِ، يخاطبُ العقلَ

والقلبَ، والحسَّ والنفسَ، في مبادئِ التشريعِ والأخلاقِ، والتربيةِ والسلوكِ. دينٌ من عندِ ربِّنا، يرسمُ الأحكامَ والنظامَ لمسلمٍ كريمٍ طاهرِ الظاهرِ والباطنِ، سليمِ القلبِ، نقيِّ المشاعرِ، عَفِّ اللسانِ وعفِّ السريرةِ. متأدبٍ مع ربِّه ونفسِه، ومتأدبٍ مع الناسِ أجمعين.

بل إنه لمتأدبٌ مع هواجسِ الضميرِ وخلجاتِ النفسِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

دينُ حقٍّ تتلاقىٰ فيه أحكامُ الشرائعِ مع نزاهةِ المشاعرِ، وتتوازنُ فيه الأوامرُ مع الزواجرِ.

دينٌ يُنشيءُ مجتمعاً متديناً، محفوظَ الحرماتِ، مصونَ الغَيْبَةِ والحضورِ، لا يؤخذُ فيه أحدٌ بالظِّنَّةِ، ولا تُتتبَّعُ فيه عوراتٌ.

أيُّها الإخوةُ: وهذه صورةٌ من الصورِ التي وقفَ منها دينُنا موقفاً حازماً حاسماً. صورةٌ يُمثِّلُ فشوُّها في المجتمعِ مظهراً من مظاهرِ الخللِ، وقلةِ الورعِ، وضعفِ الديانةِ. صورةٌ تُشَوِّشُ على حفظِ الحرماتِ وسلامةِ القلوبِ وصيانةِ الأعراضِ وتحرِّي الحقِّ. إنها كبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، وموبقةٌ من موبقاتِ الآثامِ، وحالقةٌ من حالقاتِ الدينِ يشتركُ في ذلك فاعلُها والراضي بسماعِها.

إنها الغيبةُ يا عبادَ اللهِ. إنها ذكرُ العيبِ بظهرِ الغيبِ، ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ، سواء أكان فيه ما تقولُ أمْ لم يكنْ، هكذا بيَّنها رسولُها محمدٌ ﷺ.

يقول ربُّكم عزَّ وجلَّ في محكمِ تنزيلِه: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا. . .﴾ [الحجرات: ١٢].

أيُّها المسلمون: إن دماءكم وأموالَكم وأعراضَكم حرامٌ عليكم. الغيبةُ ـ أيها الإخوةُ ـ ذاتُ أسماءٍ ثلاثةٍ، كلُّها في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ الغيبةُ والإفكُ والبهتانُ. فإذا كان في أخيكَ ما تقولُ فهي الغيبة، وإذا قلتَ فيه ما بلغك عنه فهو الإفكُ، وإذا قلتَ فيه ما ليس فيه فهو البهتانُ. هكذا بيَّنَ أهلُ العلمِ رحمهم اللهُ.

الغيبةُ تشملُ كلَّ ما يُفْهمُ منه مقصودُ الذمِّ سواءٌ أكان بكلامٍ، أم بغمزٍ، أم إشارةٍ، أم كتابةٍ؛ وإن القلمَ لأحدُ اللسانَيْنِ.

والغيبةُ تكونُ في انتقاصِ الرجلِ في دينِه وخلْقِهِ وخُلُقِهِ، وفي حَسَبِه ونَسَبِه، ومن عابَ صنعةً فإنما عابَ صانِعَها.

وهذا هو نبيُّكم محمدٌ ﷺ يناديْ هؤلاءِ المبتَلَيْنَ بهذا الداءِ المهلكِ: **«يا معشرَ من آمن بلسانِه ولم يدخلْ الإيمانُ قلبَهُ لا تغتابوا المسلمينَ ولا تتبعوا عوارتِهم فإن من تتبَّع عورةَ أخيه تتبَّعَ اللهُ عورتَه ومن تتبع اللهُ عورتَه يفضَحه ولو في جوفِ بيتِه»**[(١)].

والحسنُ رحمُه اللهُ يقولُ: (واللهِ للغيبةُ أسرعُ في دينِ الرجلِ من الأكلةِ في الجسدِ).

عجباً لمن ينتسبُ لأهل الحقِّ والإيمانِ كيفَ يركبُ مركبَ الغيبةِ، وقد علمَ أن المبتلىٰ لها ذو قلبٍ متقلبٍ وفؤادٍ مظلمٍ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٣١ ـ ح٣٠٣٢) وقال: حديث حسن غريب، وأبوداود (٤/ ٢٦٩ ـ ح٤٨٨٠)، وأحمد (٤/ ٤٢١).

انطوىٰ على بغضِ الخلقِ، وكراهةِ الخيرِ، لا يعنيه نفعُ نفسِه بقدرِ ما يعنيه ضررُ غيرِه. راحتُه وهناؤُه أن يرىٰ النعمةَ عن أخيه زائلةً، والمحنةَ فيه واقعةً، يسرُّه أن يرىٰ الخيرَ عن أخيه ممنوعاً والمصائبَ به نازلةً.

هذا المبتلىٰ غيظهُ وغمُّه أن يصيبَكَ خيرٌ أو يحالفكَ توفيقٌ، أو يتيسرَ لكَ رزقٌ، أو يجريْ على يديك نفعٌ.

قلبٌ مؤتفكٌ مريضٌ يَحْسِدُ في السراءِ ويَشْمَتُ في الضراءِ، على الهمِّ مقيمٌ، وللحقدِ ملازمٌ، تسوءُه المسرةُ، وتسرُّهُ المساءَةُ، غِلٌ وحقدٌ وضغينةٌ، أسماءٌ مترادفةٌ في عداوةٍ متمكنةٍ، يمتلىءُ بها صدرُ صاحبِها، ويتربصُ بها الفرصَ لينفثَ سمومَه ويرميَ سهامِه.

هل من شأنِ المؤمنِ أن ينطويَ على كلِّ هذه الضغينةِ لأخيه؟؟ وكأنه يأنسُ بخذلانِه ووصولِ النقمةِ إليه، ولا تخطرُ له أخوةُ الإيمان ببالٍ؟؟ ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢].

ذو الغيبةِ ذَلِقُ اللسانِ، صفيقُ الوجهِ، لا يَحجُزُه عن الاغتيابِ إيمانٌ، ولا تحفظُه للمكارم مروءةٌ. إذا وجدَ متنفساً أشبعَ طبيعتَهُ النَّزِقَةَ الجهولَ. ينطلقُ على وجهِهِ في المجالسِ لا ينتهي له حديثٌ، ولا يتوقفُ له كلامٌ. يسكبُ من لفظِهِ ما تشمئزُّ منه آذانُ أهلِ الإيمانِ، وأفئدةُ أهل التقىٰ.

قد أوتيَ بسطةً في اللسانِ تُغْرية بالتطاولِ على الحاكمِ والعالمِ، والوجيهِ وذي المنزلةِ، بل على السفيهِ والجاهلِ،

وعلى كلِّ طبقةٍ وفي كلِّ نادٍ. الكلامُ عندهُ شهوةٌ عارمةٌ، إذا سلَّطه على شؤونِ الناسِ أساءَ الصورةَ، وإذا تكلَّم في حقائقِ الدينِ والعلمِ شوَّه الحقِّ وأضاعَ الهيبةَ.

إن لثرثرتِه ضجيجاً يذهبُ معه الرشدُ، يتصدرُ المجالسَ، ويتناثرُ منه الكلامُ حتى يجزمَ العاقلُ بإنه لا يتحدثُ عن وعيٍ يقظٍ، ولا فكرٍ عميقٍ، وكأنَّ عنده انفصالاً رهيباً بين لسانِه وبين عقلِه وإيمانِه. ألدُّ خَصِمٌ يلوكُ لسانهُ كما تلوكُ البقرةُ، يخوضُ في الدينِ والسياسةِ، والعلمِ والأدبِ، فيفسدُ الدينَ والسياسةَ والعلمَ والأدبَ، ولعلَّ السببَ في الانهيارِ العلميِّ والتحزب المذهبيِّ، والانقسامِ الطائفيِّ في حقائقِ الدينِ وشؤونِ الحياةِ هو هذا المسلكُ المذمومُ في توظيفِ اللسانِ جدلاً ومراءً، وغِيْبةً وبهتاناً، وإفكاً مبيناً.

إنه في مقاعدِ المجالسِ يُقَطِّعُ وقتُهُ في تَسَقُّطِ الأخبارِ، وتَتَبُّعِ العيوبِ، وتلمسِ الزلاتِ، ليس له لذةٌ ولا مَسْلاةٌ إلا في أحوالِ الناسِ. همزةٌ لَمزةٌ، مشاءٌ بنميم، ويلٌ له ثم ويلٌ له، يتكلمُ بالكلَمةِ يَزِلُّ بها في النارِ أبعدَ ما بين المشرقِ والمغربِ.

أيُّها المسلمون: وأقبحُ ما يقعُ فيه هذا وأمثالُه غيبةُ ولاةِ الأمورِ وأهلِ العلمِ والفضلِ ورجالِ الحسبةِ والصلاحِ والذين يأمرون بالقسطِ من الناسِ، يقعون في أعراضِ ذوي الوجاهةِ والمنزلةِ ورجالِ الخاصةِ والعامةِ، يَحُطُّونَ من أقدارِهم ويجترؤنَ على مقامِهم، وينزعُون من مهابتَهم، ويرفعون الثقةَ بهم، يطعنون في أعمالِهم وجهودِهم، ويشككون في قدراتِهم وكفاءاتِهم، لا يُذْكرُ عظيمٌ إلا انتقصوه، ولا يَظهرُ كريمٌ إلا شتموه، ولا يبرزُ صالحٌ

إلا اتهموه، ولا يتميزُ مسؤولٌ إلا مقتوه، يمشون بالكذبِ والتدليسِ، والمغالطةِ والتشويشِ. يتهمون الثقاتِ، ويقعون في الصالحين. يبعثونَ الفتنَ، ويزرعون الإحنَ، ويبَلْبِلون على العامةِ، يقطعونَ الصلاتِ، ويفرِّقون الجماعاتِ، غِرْبانُ بَيْنٍ، ونُذُرُ شؤمٍ، حمالوا الحطبِ، ومشعلوا اللهبِ، يوزعون الاتهاماتِ، ويتتبعون المعايبَ؛ هذا طويلٌ وهذا قصيرٌ، وهذا جاهلٌ، وهذا فاسقٌ، وهذا عميلٌ، وذاك مشبوهٌ، العينُ غمازةٌ، واللسان همازة، والكلماتُ لمازةٌ، مجالسُهم شرٌ، وصحبتُهم ضرٌ، وفعلُهم عدوانٌ، وحديثُهم بذاءٌ.

الله أكبرُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ هلْ من شأنِ المؤمنِ أن يحمل كلَّ هذا الضِّغْنِ لأخيه؟؟.

يا هذا ـ كلُّ بشرٍ يُحبُّ ويكرهُ، ويرضىٰ ويغضبُ، ويوالي ويعادي، ولكنَّ العاقلَ لا يوالي أحداً بالجملةِ، ولا يعادي أحداً بالكليةِ، ولكنه يحبُّ منه شيئاً ويكره شيئاً، يرضىٰ منه خلقاً ويسخطُ آخر، يحبِّذُ فعلاً ويَنْقِم آخر، والعاقلُ من يحبُّ حبيبَه هوناً ما فعسىٰ أن يكونَ بغيضَهُ يوماً ما، ويبغضُ حبيبَه هوناً ما فعسىٰ أن يكون حبيبَه يوماً ما.

العقلُ والإيمانُ يملي عليكَ فيمن تحبُّ ألا تقلبَ عيوبَه محاسنَ وكأنكَ لا ترىٰ فيه إلا خيراً خالصاً، ومن لا تحبُّ فلا تقلبْ محاسنَه عيوباً فلا ترىٰ فيه إلا شراً محضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

أيها الإخوةُ: ويشتدُّ القبحُ والجرمُ ويتعاظمُ الذنبُ والذمُّ ـ حينما تصدُرُ الغيبةُ ممن ينتسبون إلى العلمِ والصلاحِ ويتزيَّوْن بسيما أهل الزهدِ والورعِ، فيجمعون في غِيْبَتِهم بينَ تزكيةِ أنفسِهم وذمِّ غيرِهم.

وانظرُ رعاكَ اللهُ إلى دقةِ ما سجَّله الغزاليُّ في إحيائِه وابنُ قدامةَ المقدسيُّ في مختصرِ منهاجِه وابنُ حجرٍ الهيثميُّ في زواجرِه وهم يتكلمونَ عن هذا الصنفِ من الناس قالوا رحمهم اللهُ: يُذْكَرُ عند هؤلاءِ المتزهدين إنسانٌ فيقولون: الحمدُ للهِ الذي ما ابتلانا بقِلَّةِ الحياء والدخولِ في كذا وكذا، وليس قصدُه بدعائِه إلا أن ينبِّهَ إلى عيبِ غيرِه. قالوا: وقد يزيدُ خبثُه فيقدِّمُ المدحَ لمن يغتابهُ حتى يُظْهِرَ تَنَصُّلَه من الغيبةِ فيقول: كان مجتهداً في العبادةِ والعلمِ والنزاهةِ والأمانةِ، ولكنه فترَ وابتُلي بما ابتلينا به كلُّنا. فيذكرُ نفسَهُ ومقصودُه ذمُّ الغيرِ والتَمدُّحُ بالانتسابِ للصالحين في ذمِّ نفوسِهم فيجمعُ بين ثلاثِ فواحشَ: الغيبةِ والرياءِ وتزكيةِ النفسِ، بل أربعٍ لأنه يظنُّ بجهلِه أنه مع ذلك من الصالحين المتعففينَ عن الغيبةِ فقد لعبَ به الشيطانُ وسخِر منه فأحبطَ عملَه وضيَّع تعبَه وأرداهُ.

ومن ذلك أن يقولَ: ساءني ما وقَعَ لصِديقِنا من كذا وكذا فنسألُ اللهَ أن يثبِّتَه، وهو كاذبٌ في ذلك، وما درىٰ الجاهلُ أن اللهَ مطَّلِعٌ على خُبْثِ ضميرِه، وأنه قد تعرَّضَ بذلك لمقتِ اللهِ أعظمَ مما يتعرضُ الجهالُ إذا جاهروا. انتهى كلامُهم رحمهم اللهُ.

اللهُ أكبرُ ـ أيُّها الإخوةُ ـ يقولُ بعضُ السلفِ: أدركنا السلفَ الصالحَ وهم لا يرونَ العبادةَ في الصومِ والصلاةِ ولكن في الكفِّ عن أعراضِ الناسِ.

يا هذا ـ رحمنا اللهُ وإياكَ وعافاكَ وعفا عنك ـ ظُنَّ الخيرَ بإخوانِكَ وأقربائِكَ، ولا تسمعْ أخبارَ من قلَّ عند اللهِ نصيبُه. اذكرْ أخاكَ إذا غابَ عنكَ بما تحبُّ أن يذكرَكَ به، وأعْفِهِ مما تحبُّ أن يعفيَكَ منه. اعملْ عملَ رجلٍ يرىٰ أنه مُجازىً بالإحسانِ مأخوذٌ بالإجرامِ.

قيلَ لبعضِ الصالحين: لقد وقعَ فيك فلانٌ حتى أشفقنا عليكَ ورحمناك، قال: عليه فأشفقوا وإياه فارحموا.

وقالَ رجلٌ للحسنِ: بلغني أنكَ تغتابُني، فقال: لم يبلغْ قدرُكَ عندي أن أُحَكِّمَكَ في حسناتي.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، فطوبىٰ لمن أمسكَ الفضلَ من قولِهِ، ثم طوبىٰ لمن ملكَ لسانَه، ثم طوبىٰ لمن حجزه عن الناس ما يعلمُ من نفسِهِ، وطوبىٰ لمن استمسكَ بتوجهاتِ كتابِ ربِّ فتوجَّهَ إلى مولاه بقلبٍ ضارعٍ ولسانٍ صادقٍ وحبٍّ لإخوانه خالص: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠].

الغيبة والمغتابون آثار وأخطار

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ ذي العرشِ المجيدِ، الفعالِ لما يريدُ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، وما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، هو أقربُ إلى عبدِه من حبلِ الوريدِ. وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله نشرَ أعلامَ التوحيدِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان من صالحِ العبيدِ، وسلم تسليماً كثيراً أما بعد

أيها المسلمون: من أخطَرِ ما ذكرَ أهلُ العلمِ من أنواعِ الغيبةِ تلك التي تحصلُ بالقلب. قالوا: وذلك هو سوءُ الظنِّ بالمسلمين. والظنُّ هو ما تركنُ إليه النفسُ ويميلُ إليه القلبُ، أما الخواطرُ وحديثُ النفسِ العابرُ فمعفوٌ عنه.

إنه ليس لك أن تظنَّ بإخيكَ شراً، ومتى خطرَ لك خاطرُ سوءٍ على مسلمٍ فينبغي أن تزيدَ في مراعاتِه والدعاءِ له بالخيرِ، فإن ذلك يَغيظُ الشيطانَ ويدفعُه عنك. وإذا تحققتَ هفوةً من مسلمٍ فانصْحه ولا تفضحْه. وسوءُ الظن يدعو إلى التجسسِ والتحسسِ. والقلبُ إذا تُركَ له العنانُ لا يقنعُ بالظنِّ، بل يطلبُ

التحقيقَ فيشتغلُ بالتجسسِ وذلك منهيٌّ عنه لأنه يوصلُ إلى هتكِ سترِ المسلمِ.

أيها الإخوةُ: والمستمعُ شريكُ للمغتابِ ولا ينجو من الإثم إلا أن ينكرَ بلسانِه، فإن خافَ فبقلبِه، وإن قَدِرَ على القيامِ فليقمْ أو لِيقطعْ الكلامَ بكلامٍ آخرَ.

ناهيكَ - عياذاً باللهِ - من يستمعُ ويصغي على سبيلِ التعجبِ ليزيدَ من نشاطِ المغتابِ ولقد قالَ علماؤنا رحمهم اللهُ: إن التصديقَ بالغيبةِ غيبةٌ، والساكتُ شريكُ المغتابِ.

يا تُرىٰ أين هو المؤمنُ القويُّ ذو الشكيمةِ الذي يأبىٰ أن يُغتابَ أحدٌ في مجلسِه؟؟ ويأبىٰ أن تَسمَعَ أذناه عيبَ أخيه المسلم؟؟ يقولُ ابن المباركِ رحمه اللهُ: فِرَّ من المغتابِ فرارَكَ من الأسدِ.

أين هو المؤمنُ القويُّ الذي يقيمُ المغتابَ من مجلسِه أو يقومُ عنهم ليدَعهم في مجلسِهم؟؟ كان ميمونُ بن سياه لا يَغتابُ أحداً ولا يدعُ أحداً يَغتابُ أحداً عنده، ينهاه فإن انتهىٰ وإلا قامَ من المجلسِ.

يا عبدَاللهِ إن لكلِّ الناسِ عوراتٍ ومعايبَ، وزلاتٍ ومثالبَ فلا تظنْ أنكَ علمتَ ما لم يعلَمْ غيرُك، أو أنكَ أدركتْ ما عجزَ عنه غيرُك. هلاَّ شغلكَ عيبُك عن عيوبِ الناسِ، وهلاَّ سلكتَ مسلكَ النصيحةِ وعدلتَ عن الفضيحةِ؟؟ وهل عَلمتَ أن من تكلَّم فيما لا يعنيه حُرِمَ الصدقَ؟؟.

احفظْ حقَّ أخيكَ وصُنْ عرضَه؛ ففي الحديث: «**من ذبَّ عن عرضِ أخيه بالغَيْبَةِ كان حقاً على اللهِ أن يُعتَقه من**

النارِ»[1]، وفي خبرٍ أخر: «من قال في مؤمنٍ ما ليس فيه أسكنه اللهُ ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»[2].

«ومن كانت عندُه لأخيهِ مظلمةٌ من عرضٍ أو مالٍ فليتحلَّلْه منها من قبلِ أن يأتيَ يومٌ ليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ؛ تؤخذُ من حسناتِه، فإن لم يكنْ أُخذَ من سيئاتِ صاحبِه فزيدَ على سيئاتهِ ثم طُرِحَ في النارِ»[3].

فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ وسارعوا إلى التوبةِ واستحلالِ إخوانِكم، وجانبوا الغلَّ والحقدَ والضغينةَ والشحناءَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦١) وقال في المجمع: رواه أحمد والطبراني واسناد أحمد حسن انظر مجمع الزوائد (٨/ ٩٥).

(٢) رواه أبوداود (٣/ ٣٠٥ ـ ح٣٥٩٧)، وأحمد ٢/ ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ١٢١ ـ ٢٤٤٩) دون «ثم طرح في النار».

أهل الورع

الخطبة الأولى

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعـدُ:

فيا أيُّها الناسُ: الدنيا غرارةٌ بمفاتِنِها، خادعةٌ بمباهِجِها، تأخذُ الألبابُ بسحرِها، وتغري النفوسَ بتنوعِ لذاتِها، وتغري بتجددِ مفاتِنِها. بينما النفوسُ عليها مقبلةٌ، والقلوبُ بها متعلقةٌ، وشملُ الأحبةِ فيها مجتمعٌ إذا بها قد اغبرَّتْ أيامُها، واكفهرَّتْ سماؤُها،

وذَبُلتْ زهراتُها، قد استحالتْ إلى هشيمِ نضرتُها، وصار إلى حطام نعيمُها، وآل إلى شتاتٍ اجتماعُها ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

أيها الإخوةُ: هذا حديثٌ عن الدنيا، ومن بعدِه حديثٌ عن الورَعِ، ولكن حين تَستَحكِمُ المادةُ على القلوبِ، وتملأ الشبهاتُ المسالكُ يستنكرُ حديثُ الورعِ، ويستثقلُ التنبُه إلى المشتبهاتِ.

ومن ثَمَّ ترىٰ هؤلاءِ المبتلَيْن يسلكون مسالكَ العِوجِ ليُسمُّوا الأشياءَ بغيرِ أسمائِها، فيسوِّغون لقلوبِهم المريضةِ ما يسوغون، ويجترئون بنفوسِهم الضعيفةِ على ما يجترئون.

أيها الأحبةُ في الله: الورعُ حيطةٌ يتذرعُ بها أولو العزمِ من الناسِ، ويتوقىٰ بها أهلُ الإيمانِ والصلاحِ.

من كرِه الرذيلةِ ومقتَ الشبهةَ جعلَ بينه وبينها حجاباً غليظاً وستراً كثيفاً.

من عزَّتْ عليه نفسُه صانها وحماها، وحفظَها وزكاها، وزاحم بها أهلَ العزائِم والكمالاتِ. واختار لها المكانَ الأرفعَ. ومن هانتْ عليه نفسُه اطلق لها عنانَها وأرخىٰ زمامَها فألقاها في الراذئلِ ولم يحفظْها من المزالقِ.

أيُّها الإخوةُ: إن نبيّكم محمداً ﷺ يضعُكم في هذا على محجةٍ بيضاءَ لا يزيغُ عنها الإ هالكٌ، تأملوا هذا المشكاةَ من نورِ نبوتِه:

«من اتقىٰ الشبهاتِ فقد استبرأَ لدينِه وعرضِه، ومن وقعَ في الشبهاتِ وقعَ في الحرامِ كالراعي يرعى حولَ الحمىٰ يوشكُ أن يرتعَ فيهِ ألا وإن لكل ملكٍ حمىٰ، ألا وإن حمىٰ الله محارمُه، ألا وإن في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلح الجسدُ كلُّه وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ»[١].

«والإثمُ ما حاكَ في نفسِكَ وترددَ في الصدرِ وكرهتَ أن يطلعَ عليه الناسُ وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوك»[٢] و «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٣] و «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٤].

براهينُ بيِّنةٌ ودلائلُ جليةٌ، فالإثمُ ما حاك في النفس، وترددَ في الصدرِ، وكرهتَ أن يطَّلِعُ عليه الناسُ. وما أحسستَ فيه ريبةً فاجتنبْهُ.

اللهُ أكبرُ، لقد خلقَ اللهُ عبادَهُ حنفاءُ وفطرَهم على معرفةِ

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير أخرجه البخاري (١/ ١٥٣ ـ ح٥٢)، ومسلم(٣/ ١٢١٩ ـ ح١٥٩٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٠ ـ ح٢٥٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٢٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٤/ ٥٧٧ ـ ح٢٥١٨)، والنسائي موقوفاً على ابن مسعود وقال النسائي: هذا الحديث جيد جيد (٨/ ٢٣٠)، وأحمد (٣/ ١٥٣)، والحاكم (٢/ ١٣)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وأخرجه في موضع آخر (٤/ ٩٩) وسكت عنه وقال الذهبي: سنده قوي.

(٤) رواه مالك مرسلاً (٢/ ٩٠٣ ـ ح٣) وأحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي (٤/ ٤٨٣ ـ ح٢٣١٧) وقال: حديث غريب، وبرقم (٢٣١٨) وصحح إرساله، وابن ماجه (٢/ ١٣١٦ ـ ح٣٩٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

الحقِّ، والسكونِ إليه، وركزَ في طباعِهم محبتَهُ والنفورَ من ضدِّه، فالإثمُ مؤثرٌ في الصدورِ حرجاً وضيقاً، وموِرثٌ في النفوسِ قلقاً ونفوراً. وسبيلُ الورعِ أن تتركَ ما حاكَ في نفسِكَ، وتجتنبَ ما قادكَ إلى ريبةٍ.

قلوبُ أهلِ الصلاحِ تضطربُ للحرامِ، وتسكنُ للحلالِ، وتقفُ عند المشتبهاتِ، فالحلالُ البيِّنُ لا يحصلُ لقلبِ المؤمنِ منه رَيْبٌ، ولا يصيبُه منه اشمئزازٌ.

والمكروهاتُ أبوابٌ بينَ المباحِ والحرامِ من فتحها على نفسِه تعرَّضَ لألوانٍ من الشرِّ والهلكةِ لا يطيقُ دفعَها.

ومن تهاونَ في أبوابِ المندوباتِ يوشِكُ أن يتركَ الواجباتِ، والاستخفافُ بالمشتبهاتِ تحمل الواقعَ فيها على الاستسلامِ للرغباتِ، والغرقِ في الشهواتِ، ومن حامَ حول الحمىٰ يوشكُ أن يقعَ فيه.

وحدودُ اللهِ معروفةٌ، ومعالمُ دينه بيِّنةٌ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] و ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومع وضوحِ ذلك وجلائِه ـ أيُّها الإخوةُ ـ فإن قلوباً مريضةً تركضُ في الدنيا بغير عنانٍ، وتملأُ أيديَها بغير ميزانٍ. ينطلقون في لذائذِ النفوس بغير حدودٍ، كلما أدركوا منزلةً تشوَّفوا إلى ما فوقَها نهماً وسعَاراً. تملَّكَتْهمُ ملاذُّ الجسمِ والمادةِ فلم يبالوا من أي طريقٍ أتتْ، وبأي وسيلةٍ اكتُسِبَتْ يحطُّ أحدُهم من كرامتِهِ ويَذهبُ بعزِّتهِ، ويَرِقُّ تَدَيُّنُه قد خفَّ ورعُه، وازدادَ على الدنيا حرصُهُ حتى كسىٰ قلبَهُ غاشيةٌ فأرسلَ يدَه في السحتِ، وانطلقَ

لسانُهُ بغير الحقِّ، قلةُ ورعٍ جعلَتْ على آذانِهِ وقراً، وعلى بصرِهِ غشاوةً، فلا ينفعُه نذيرٌ، ولا تُجدي فيه نصيحةٌ، ولا تُرجىٰ له استجابةٌ.

لقد فقد هؤلاء عفَّتَهم، وغاضَ ورعُهم، وانساقوا وراءَ نزواتِهم، فعاشوا للمُتَعِ وحدَها، يتمتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ.

وإن من المؤكَّدِ أن التهالكَ على الشهواتِ، والانغماسَ في الملذاتِ، والتخفُّفَ من الورعِ، فرارٌ من التكاليفِ، ونكوصٌ عن الجدِّ، وتضييعٌ لمعالمِ الشرفِ، وحينَ يتسرَّبُ ذلك إلى أمةٍ فقد آذنتْ نفسَها بالإدبارِ، وإن كِفلاً ضخماً من تصدُّعِ الأمةِ يرجعُ إلى ضياعِ الفقهِ والتعففِ والصدودِ عن سبيلِ الورعِ والتورعِ.

ويقابلُ هؤلاءِ ـ أيها الإخوةُ ـ أقوامٌ أدركوا سماحةَ الإسلامِ وفَقِهوا وسطيتَهُ، فمن حق المرءِ أن يأكلَ ويشربَ، ويلبسَ ويركبَ غيرَ مضيقٍ على نفسِه، يخرجُ إلى الناسِ في أثوابٍ لا تزدريْها العيونُ، ويستمتعُ من الزينةِ بما لا يعيبُه الحَكماءُ.

وليعلم أن سماحةَ الدين تسعُ المسلمُ أن يتبسطَ في ملبسِه ومطعمِه ومسكنِه ومركبِه فلا يقعد ملوماً محسوراً.

الورعُ عنده اتقاءُ ما يكونُ سبباً للذمِّ والعقابِ، يبادرُ إلى فعلِ الواجباتِ وما يشبُه الواجباتِ، ويسارعُ إلى تركِ المحرماتِ والمشتبهاتِ. وما لا ريبَ في حلِّه فليسَ من تركِه ورعٌ، وما لا ريب في منعِه فليس في فعله ورعٌ.

إنهم يعيشون وسطيةَ الإسلامِ فلا رهبانيةَ صارمةً تَضيْقُ بها

النفوسُ وتنغلقُ بها المسالكُ، ولا حيوانيةَ بهيميةً قائمةً على عتبِ الشهواتِ ومطاوعةِ الأهواءِ.

إن رجلَ الدنيا وواحدَها من تكونُ همتُه وإرادتُه فوقَ عواطفِه وشهواتِه، فإذا نازعتْهُ نفسُه إلى زينةٍ لا تُنالُ إلا ببذلِ شيءٍ من الكرامةِ أو لذةٍ لا تتمُ إلا بهتكِ جانبٍ من العزةِ كفَّ وأحجم عفَّ وتورعَّ. لقد اطمأن إلى أن مثقالَ ذرةٍ من كرامةٍ يرجَحُ بقناطيرِ زينةِ الحياةِ الدنيا وملاذِّها.

أيها الإخوةُ: إن هذا الورعَ الجميلَ والعفةَ العاليةَ لم تكن عندهم مجردةً من غيرِ هدفٍ أو تحكماً من غيرِ غايةٍ.

إنهم أهلُ الإيمانِ والصلاحِ يتنزهون ويتعففونَ لما وقَرَ في قلوبِهم من الإيمانِ باللهِ ولما يؤمِّلُون مما يبتغون عند اللهِ، هدفٌ كبيرٌ اشتغلوا بتحصيلِه عن فنونِ اللهوِ ورخيصِ المُتَعِ، متجافين عن بِطنةِ المترفين وبشم الممعودين[1]، وشهواتِ الغافلين. سخروا دنياهم لدينِهم فبلغوا بها المثلَ العليا.

أيُّها الأحبةُ في اللهِ: وثمَّتَ مسألةٌ في هذا البابِ يحسنُ التنبيه إليها: ذلك أن بعضَ الناسِ يظنُّ أن الورعَ مختصٌّ بجانبِ التركِ وحده، فليس الورعُ عنده إلا في تركِ الحرامِ وما يشتبه به، وليس عنده ورعٌ في الخوفِ من تركِ الواجبِ وما يشتبه به.

يقول شيخُ الإسلامِ ابن تيميةَ رحمه الله: «هذا يُبتلىٰ به كثيرٌ من المتدينةِ والمتورعةِ، فهو يتورعُ من الكلمةِ الكاذبةِ،

---

(١) البشم: امتلاء المعدة، والممعودون: أصحاب المعدة.

والدرهمِ المشتبِه، ومجالسةِ أهلِ الفجورِ وأشباهِهم، ولكنه يتركُ أموراً واجبةً عليه، إمَّا وجوبَ عينٍ أو وجوبَ كفايةٍ، من صلةِ رحمٍ، وحقِّ جارٍ ومسكينٍ وابنِ سبيلٍ، وحقِّ مسلمٍ أو ذي سلطانٍ أو ذي علمٍ، حتى تسوِّلَ له نفسُه تركَ الجمعةِ والجماعةِ والحجِّ والجهادِ. قال رحمه الله: وما وقعَ أصحابُ البدعِ من أهلِ الفرقِ إلا بمثلِ هذا التورعِ المظلمِ، فقد تركوا بتورِّعِهم هذا من الحسناتِ الراجحةِ والأعمالِ الصالحةِ أعظمَ مما أدركوه. ثم قال: فلعلَّه أن يعيبَ أقواماً هم للنجاةِ أسعدُ وأقربُ».

أيها الإخوةُ: إن من صحةِ المعتقدِ وصدقِ التدينِ ورجحانِ العقلِ عدمَ الاغترارِ بزهرةٍ لا تدومُ ومتعةٍ تبلىٰ ونعمةٍ لا تبقىٰ. لم يعملِ عاملونَ بمثلِ الزهدِ ولم يتقربْ متقربونَ بمثلِ الورعِ ولم يتعبدْ متعبدون بمثلِ البكاءِ.

واتقاءُ الشبهِ وتجنبُ مواردِ التُّهم حزمٌ ما بعدَهُ حزمٌ، وبراءةٌ للدين والعرضِ، فإيَّاكم وحزاز القلوبِ[1].

يقولُ أبوالدرداءِ رضي الله عنه: الخيرُ في طمأنينةٍ، والشرُّ في ريبةٍ، ولا يبلغُ العبدُ درجةَ المتقينَ الذين يتقون الشبهاتِ حتى يدعَ ما لا بأسَ به حذراً مما به بأسٌ. بهذا أخبرَ النبيُّ ﷺ. وأخذ بذلك عبدُاللهِ بن عمرَ رضي الله عنهما حين قال: (إني لأحبُّ أن أدعَ بيني وبين الحرامِ سترةً من الحلالِ لا أخْرِمُها).

ويقولُ ميمونُ بن مهران: (لا يسلمُ للرجلِ حلالٌ حتى يجعلَ

---

(١) حزاز القلوب: ما يورث ريبة، وحزازة في النفس أي ما حاك في النفس.

بينه وبين الحرامِ جزءاً من الحلالِ).

ويقولُ سفيانُ بن عيينةَ: (لا يصيبُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يجعلَ بينهُ وبينَ الحرامِ جزءاً من الحلالِ وحتى يدعَ الإثمَ وما تشابه منه).

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم الله فإن ملاكَ الدينِ الورعُ، وآفتَهُ الطمعُ، ومن رقَّ في الدنيا ورعُه عَظُمَ في القيامةِ خطرُه، ومن تعلَّقَ قلبُهُ بالشهواتِ فمتى يصحَّ له زهدٌ أو ورعٌ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

[يونس: ٧ ـ ٨].

أهل الورع

الخطبة الثانية

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضىٰ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمدُ في الآخرةِ والأولى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله المبعوثُ بالرحمةِ والهدى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم وبهم اهتدى.

أما بعدُ: فقد ذكرَ أهلُ العلم رحمهم الله أن من علامات سعادةِ العبدِ وعنوانِ فلاحِه: إذا زاد علمُه زاد تواضعُه، وإذا زادَ عملُه زاد خوفُه، وإذا زادَ عمرُه قلَّ حرصُه، وإذا زاد مالُه زاد سخاؤُه، وإذا زاد قدرُه وجاهُه زادَ من الناسِ قربُه وقُضيتْ على يديه حوائجهُم.

يقابلُ ذلك صفاتٌ مذمومةٌ، وعلاماتُ شقاءٍ بيِّنةٌ؛ فالكبرُ يمنعُ الانقيادَ، والحسدُ يمنعُ بذلَ النصيحةِ كما يمنعُ قبولَها، والغضبُ يمنعُ العدلَ، والشهوةُ تمنعُ التفرغَ للعبادةِ.

فإذا وُفِّقَ المبتلىٰ بهذا فانهدمَ ركنُ الكبرِ سهُلَ الانقيادُ، وإذا انهدم ركنُ الحسدِ سهلَ بذلَ النصح وقبولُه، وإذا انهدمَ ركنُ الغضبِ سهل العدلُ والتواضعُ، وإذا انهدمَ ركنُ الشهوةِ سهلَ الصبرُ والورعُ والعفافُ والتعبدُ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم الله، فإن العبدَ كلَّما كان أشدَّ تحرياً للحقِّ والحلالِ كان أخفَّ ظهراً يومَ القيامةِ، فمن أحبَّ الخيرَ لنفسِه فليزددْ في التحري والحيطةِ، ومن فرط وتساهلَ فما يجنيْ جانٍ إلا على نفسِه.

الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله)
دعوة ومنهج

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ الموصوفِ بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، امتنَّ على خلقِهِ بمزيدِ الإنعامِ والإفضالِ. أحمدُه سبحانه وأشكرُه وهو المحمود بكلِّ لسانٍ وعلى كلِّ حالٍ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، وصفيُّه وخليلُه، الصادقُ المقالِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبِهِ خيرِ صحبٍ وآلٍ، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ المآلِ.

أما بعـدُ:

فأوصيكُم أيُّها الناسُ ونفسيْ بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فتقوىٰ الله عليها المعوَّلُ، وعليكم بما عليه السلفُ الصالحُ، والصدرُ الأوَّلُ.

أيُّها المسلمون: منذُ أن أكرمَ اللهُ هذه الأمةَ ببعثةِ نبيِّه محمدٍ ﷺ وأفواجُ الدعاةِ المصلحينَ يتعاقبون فيها، علماءُ مخلصون، ومربون ربانيُّون، من خلفاءِ رسولِ اللهِ ﷺ الراشدين، وورثتِه من العلماءِ العاملين، داعين إلى الحقِّ، حاكمين بالقسطِ، آمرين بالمعروفِ، ناهين عن المنكرِ.

وإنَّ العنايةَ بسِيَرِهم، والتذكيرَ بهم، وهم مصابيحُ الهُدىٰ التي أضاءتْ الطريق، بل حولَّت مجرىٰ التاريخِ في ديارِها، وأورثتْ تحوُّلاتٍ فكريةً كبرىٰ في عقولِها. إن ذلكَ مما يجبُ أن تنصرفَ إليه الهممُ، ويعتنيَ به الموجهون، ويذكِّرَ به المذكرون.

إن دراسة حياةِ الرجالِ تورثُ الإحساسَ بالعزةِ، وتُنْبتُ الشعورَ بالقوةِ، وتَهدي إلى التمسكِ بالحقِّ، وتقودُ إلى السموِّ في الخلقِ، وتفتحُ الأبوابَ العريضةَ من الآمالِ، والدنيا بغيرِ الرجالِ الأفذاذِ همودٌ وجمودٌ، وإذا أقفرتْ الديارُ من الرجالِ فهي إلى الوراءِ تتقهقهرُ، ومن الوجودِ تتلاشىٰ. وإذا نامتْ الأمةُ شقَّ إيقاظُها، وعسرُ بعثُها، إلا بعد أجيالٍ وأجيالٍ.

أيها الإخوة: ومن خلالِ النظرِ في هذه السيرِ يتبينُ للدارس المتأمِّلِ أن الدنيا كلَّما احلَوْلَكَتْ فيها ظُلَمُ الجهالةِ، وخاضَ الناسُ معَها لُجَجَ الباطلِ، وخيمتْ سُحُبُ البدعِ قيضَ اللهُ رجالاً، وسدَّدَ دعاةً يدعون إلى الله على بصيرةٍ، يُنيرونَ الطريقَ، ويُحيون السنُنَ، ويبسُطون الحقَّ، فتتطهرُ على أيديهم بإذن اللهِ القلوبُ والديارُ.

وفي فترةٍ من فتراتِ تاريخِ الأمةِ غشيتْ الدينَ غاشيةٌ سوداءُ فإذا التوحيدُ الذي جاء به محمدٌ ﷺ قد تلبستْهُ أنسجةُ الخُرافةِ، وقشورُ التصوفِ، وكثُر الأدعياءُ الجهلاءُ، وتلبَّدتْ عقولُ فئام كثيرةٍ من المسلمين بالذلةِ والمسكنةِ فأحاطتْ بأعناقِهم التمائمُ والتعاويذُ، وقيدتْ سواعدَهم الخيوطُ والأوهامُ، وتعلقوا بالقبورِ وأصحابِها، وفشا فيهم التنجيمُ والسحرُ والتطيرُ والكهانةُ، وغابت شمسُ الحقِّ عن كثيرٍ من النفوسِ حتى هبطوا مهبَطاً بعيدَ القرارِ،

وحتى كأن وظيفةَ الدينِ والعقلِ أُلغيتا جميعاً، ولا تدري كيف التاث[1] على أهلِ العلمِ علمُهم فلم يزددْ العامةُ فيهم إلا جهلاً وخبالاً.

في هذه الأجواءِ الغائمةِ القاتمةِ انطلق صارخٌ من قلبِ الصحراءِ صحراءِ جزيرةِ العربِ يدعو إلى الإصلاحِ، ويوقظُ أهلَ الإيمان، إنه صوتُ الصالحُ المصلحُ الإمامُ شيخُ الإسلام محمدُ ابنُ عبدالوهابِ رحمهُ اللهُ.

أيها الأحبةُ: وقبلَ الخوضِ في الحديثِ عن هذا الرجلِ ينبغي التذكير بما تعارفَ عليه أهلُ العلمِ من أن ذكرَ السيرِ والمناقبِ إنما يقصدُ به ذكرُ الفضلِ لأصحابِ الفضلِ من غير أن يكونَ لأحدٍ قداسةٌ ومن غير اعتقادِ كمالٍ أو عظمةٍ لبشرٍ. إلا أنبياءَ اللهِ فيما يُبَلِّغون عن ربِّهم عزَّ وجلَّ. والثناءُ على عالمٍ ليس حطاً من قدرِ غيرِه ممن يستحقُّ الثناءَ. وإنما يُنسبُ الفضلُ لأهلِه، ويؤخذُ الحق ممن جاءَ به.

ومقاييسُ أهلِ الإسلامِ أن تُعْرضَ الرجالَ وأعمالَها على ميزانِ الشرعِ، وما رجحتْ كِفةٌ إلا بقدرِ ما أثمرتْ من جُهدٍ، وأنتجتْ من عملٍ، وأورثتْ من حقٍ وصلاحٍ وخيرٍ ورشادٍ في ظلِّ الإسلامِ وضوابطِ الشرعِ. وليس الحقُّ محصوراً في إمامٍ بل ولا في الأئمةِ الأربعةِ رضوانُ اللهِ عليهم وعلى أئمةِ الإسلامِ أجمعين، ولا يزعمُ ذلك أو يظنُّه إلا تابعٌ خاملٌ أو مقلدٌ جامدٌ يتجهُ نحو التحزُّبِ، ويميلُ إلى التعصبِ. وليس الرشدُ والهدىٰ محصوراً في جماعةٍ

---

(١) التاث: التبس.

أو مِلْكاً لطائفةِ سوىٰ الطائفةِ المنصورةِ الفرقةِ الناجيةِ ممن كانَ على مثلِ ما عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه.

وبعدَ هذا فإن الشيخَ محمدَ بنَ عبدالوهابِ من أوفرِ المصلحين حظاً في ميدانِ الدعوةِ، ومن أرْجَحِهم كفةً في سبيلِ الإصلاحِ، طبَّقتْ شهرتهُ الآفاقَ، وكتبَ عنه القاصي والداني، وردَّدَتْ سيرتَهُ ألسنةٌ وأقلامٌ من الغرباءِ وذوي القربىٰ، ومن المسلمين وغيرِ المسلمين، وكلُّها في نظرِ المنصفِ تدلُّ على سموِّ الرجلِ وصلاحِ أمرِه ونجاحِ مقصدِه.

لقد وهبُه اللهُ قوةً في النفسِ، وصدعاً بالحقِّ، وتأثيراً في السامعين، في صبرٍ ومثابرةٍ، وحُسنِ ظنٍّ باللهِ، وصدقٍ في التعلقِ به، برعَ في علومِ الدينِ واللسانِ، وفاق الأقرانَ، واشتهرَ بالتقوىٰ وصدقِ التديّن.

معتقدُه الدينُ الخالصُ على مذهبِ السلفِ المقتدىٰ بهم، لا يخوضُ في تأويلٍ، ولا يتعمقُ في فلسفةٍ، يقتدي بالأئمةِ من غيرِ جمودٍ، لم يطوِّق حبلَ التقليدِ في عنقِه، ولكنه مقتدٍ مؤدبٌ، يحترمُ القولَ وقائلَه.

دعوتُه توحيدُ اللهِ في ربوبيّتِه وإلاهيتِه وأسمائِه وصفاتِه، وشعارُه لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ، يوضِّحُ معانيَها ويبسطُ القولَ فيها منهجاً ودعوةً وتأليفاً في مختصراتٍ ومطولاتٍ ولجميعِ الطبقاتِ.

وهلْ التوحيدُ إلا إفرادُ العبادةِ، وإخلاصُها للهِ ربِّ العالمين وذلك دينُ الرسلِ أجمعين، وهو أمر واضحٌ جلي ولكن حبائِل الشيطانِ واسعةٌ.

ولقد أفرد الشيخُ المتعلقينَ بالقبورِ والأضرحةِ بخطابٍ خاصٍ، لما لحظَهُ من عمومِ الابتلاءِ بهذا الداءِ في أصقاعٍ كثيرةٍ من بلادِ المسلمين كافةً، فقد دُعيَ غيرُ اللهِ، وتعلَّقتْ الآمالُ في كشفِ الكروبِ ودفعِ المصائبِ بغيرِ اللهِ، وارتفعتْ الأصواتُ تجأرُ بطلبِ الغوثِ من غيرِ اللهِ تحتَ أعتابِ الأضرحةِ المشيدةِ، وفي مسوحِ القبابِ الشاهقةِ، وفي ترابِ القبورِ المجصَّصةِ.

وهذا الأمرُ الذي ندبَ الشيخُ له نفسَه لم يكن فيه بدعاً من الأمرِ فنصوصُ الكتابِ والسنةِ متوافرةٌ متظافرةٌ، ونصَّ على ذلك أئمة الإسلامِ المُقتدىٰ بهم من قبلِه، ويكفي الإشارةُ السريعةُ إلى ما حكاه الإمَامُ النوويُّ عن الإمام الشافعيِّ رحمهما اللهُ جميعاً في شرحِ مسلمٍ، وما غلَّظَ فيه الشَيخُ بنُ حجر الهيثميُّ في كتابِه الزواجرِ وسرد أقوالَ أهلِ العلمِ حتى قال: «وتجبُ المبادرةُ لهدمِها وهدم القبابِ التي على القبور فذلك أضرُّ من مسجدِ الضرارِ». اهـ كلامه.

ولئن كانتْ للشيخِ محمدِ بنِ عبدالوهابِ هذه الوقفةُ الصارمةُ من القبورِ والمشاهدِ فلقد كان شُموليِّ النظرةِ لأصولِ الإسلامِ وفروعِهِ كافةً، عِلْمَاً وتعليماً وتطبيقاً خلافاً لما يظنُّ بعضُ الناسِ، فلقد كان يمشي في ركابِ الإسلامِ كلِّه من الحكمِ بما أنزلَ اللهُ، وإقامةِ حدودِ اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وإصلاحِ النفسِ ومحاسبتِها، والاستقامةِ على أمرِ اللهِ. وما ذلك إلا لعلمِه بالواقعِ من حولِه وادراكِه لأحوالِ مخالفيه، ومن أجل هذا فقد فصل القول في أنواعِ النفاقِ، وبسطَ الحديثَ عن ألوانِ الشركِ، وركز الحديثَ عن رؤوسِ الطواغيتِ، ومن نماذجِ ذلك

رسالتاه اللطيفتان: كشفُ الشبهاتِ ومسائلُ الجاهليةِ.

ولئن كانَ شُمولياً في المنهجِ فقد كان شُمولياً في طبقاتِ المدعوِّين فاهتم بالعامةِ كما اهتمَّ بالخاصةِ اهتم بالعامةِ من الحاضرةِ والباديةِ، كما اهتمَّ بالعلماءِ والعليةِ من القوم. فللعامَّةِ مؤلفاتٌ مبسطةٌ ورسائلُ ميسرةٌ كالأصولِ الثلاثةِ والقواعدِ الأربع مما لا يُعذَرُ مسلمٌ بجهلِه، لم تشغلْهُ فئةٌ عن فئةٍ، فوضع لكل فئةٍ من المجتمعِ ما يناسبُها، وحدَّث كلَّ طبقةٍ بما يلائِمُها. واستطاعَ بتوفيقِ اللهِ أن يُعلِّمَ الجاهلَ في الحواضرِ والبوادي والأريافِ أصولَ الدينِ ومبادئِه، فاجتمعَ للجميعِ حسنُ المعتقدِ مع حسنِ العملِ، وليس من المبالغةِ أن يقالَ إنَ لدىٰ بعضِ هؤلاءِ العامة الدارسينَ لهذه الرسائلِ الصغيرةِ المباركةِ ما لم يطلعْ عليه حملةُ شهادات علمية معرفةً وسلوكاً، فأثمرَ منهجُه انتشارَ المعلمينَ في القرىٰ والأريافِ والحواضرِ والبوادي يعلمونَ العلمَ النبويَّ الموروثَ السهلَ الميسرَ البعيدَ عن العمومياتِ والغموضِ، إنها رسائلُ يسمعُها الأميُّ فيفهمُها ويستوعبُها، ويقرأها طالبُ العلمِ فيقتنعُ بها، فهل يعيْ هذا القائمون على شئون الدعوةِ والدعاةِ والذين يعلمون الناسَ الخير؟؟.

أيها الإخوةُ: وثمَّتَ قضيةٌ كبرىٰ في مسيرةِ الشيخِ ودعوتِه ذلكم أن هذه الدعوةَ المباركةَ لا يمكنُ أن تذكرَ أو يذكرَ انتصارُها ومسيرُتها وانجازُها إلا وهي مقرونةٌ تاريخاً وموضوعاً ومنهجاً بإمامٍ محمدٍ آخرَ إنه الإمامُ محمدُ بن سعودٍ رحمه الله.

لقد تعاقد المحمدانِ وتعاهدَ الإمامان على نصرة الإسلامِ وحفظِ الشريعةِ وبسطِ الحكمِ.

ولقد شاء الله سبحانه أن يُريَ عبديْه ثمارَ غرسِهما ونتاجَ عملِهما فكان توحيدُ الدين وتوحيدُ الكيانِ، وبسطُ الأمنِ والسيرُ على نهجِ السلفِ الصالح، وأصبحتْ لأهلِ الحقِّ أنموذجاً شاهداً يَرُدُّ بطريقةٍ عمليةٍ على كَثيرٍ من الأوهامِ والشبهاتِ والشكوكِ.

دعوةٌ حنيفيةٌ جددتْ العهدَ بمحمد ﷺ وصحبه وخلفائِه.

دعوةٌ حنيفيةٌ قامتْ عليها دولةٌ ترسمتْ خَطْوَ دولةِ الراشدينِ من الخلفاءِ وأحيتْ ما اندثرَ من علوم الكتابِ ومأثورِ السنةِ، وصححتْ في العقيدةِ المسارَ، وخلَّصَتْها من شوائبِ البدعِ؛ يأخذونَ بالكتابِ، ويتبعونَ الرسولَ، ويحيون ما اندرسَ، ويبيِّنون معالمَ الهدىٰ، ويردُّون إلى السنةِ، أهلُ حقٍّ ودعاةُ رشدٍ، يُذكرِّونَ الغافلين، ويُرجِعُون الشاردين، ويحاجِّون المنحرفين، ويردُّون كيدَ الكائدين.

وهذا منهجٌ في الدعوةِ مهمٌ ـ أيها الإخوة ـ لماذا؟ لأن الدعوةَ بلا سلطةٍ، والحقَّ بلا دولةٍ يفقدان الرعايةَ والحراسةَ والدعمَ، وهو نهجٌ يجبُ أن يعيَه المصلحون والقادةُ، فإن الانفصالَ المروِّعَ بين الدعوةِ والسلطانِ والدينِ والحكمِ جرَّ ويجرَّ على المسلمين الضعفَ إلى الضعفِ والفرقةَ إلى الفُرقةِ. وحين يستشري هذا الضعفُ يضطربُ الأساسُ، ويتناقضُ الولاءُ، وترتفعُ نعمةُ الالتئامِ وبركةُ الاجتماعِ، ولا يستقيمُ الحالُ في ديارِ المسلمين إلا بحكمٍ يحميْ جنابَ التوحيدِ، ويطبقُ الشريعةَ، ويرعىٰ الدينَ والعلماءَ.

رحمَ اللهُ الإمامين وبارك في عَقِبَيْهما وحفظهم وحفظَ لهم

وأبقى الخيرَ فيهم ملتزمينَ نهج الإسلامِ، معدِّين ما استطاعوا من قوةٍ في برٍ وتقوىٰ، وصلاحٍ واصلاحٍ، وزادَ اللهُ ولاةَ أمرِنا صلاحاً وإصلاحاً، وإحساناً وتوفيقاً، وأبرمَ اللهُ لأهلِ الإسلام في كلِّ الديارِ أمرَ رشدٍ يُعزُّ فيه أهلُ الطاعةِ، ويُذَلُّ فيه أهلُ المعصيةِ، ويقامُ فيه الدينُ، ويُؤمرُ فيه بالمعروفِ ويُنهى فيه عن المنكرِ إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤١].

محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله)
دعوة ومنهج

الخطبة الثانية

الحمد للهِ من اعتصمَ بحبلِهِ وفقَّهُ وهداهُ، ومن اعتمدَ عليه حفِظَه ووقاه، أحمده سبحانه وأشكرُه وأتوبُ إليه وأستغفره وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نعبدُ إلا إياه، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه ومصطفاهُ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن سار على نهجه وهداه.

أما بعـدُ:

أيها المسلمون: إن هذه الدعوةَ المباركةَ حلقةٌ من حلقاتِ الإصلاحِ والتجديدِ في أمةِ الإسلامِ عبرَ القرونِ والأجيالِ، تَتَّبعُ النصوصَ، وتجتهدُ في فهمِها، وتسترشدُ بأقوالِ أئمةِ الإسلامِ. استمعوا إلى الإمامِ وهو يقول: «أما مذهبنا فمذهبُ الإمام أحمدَ ابنِ حنبلٍ في الفروع ولا ندَّعي الاجتهادَ، وإذا بانتْ لَنا سنةٌ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ عملنا بها، ولا نقدِّمُ عليها قولَ أحدٍ كائناً من كان».

ولكن قاتلَ اللهُ السياسةَ الفرعونيةَ وأربابَها لقد قال رئيسها فرعون: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

ﭐلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ [غافر: ٢٦] فما دخلت هذه السياسة شيئاً إلا أفسدتْه، وأهلُ هذه السياسةِ في سبيلِ غاياتِهم لا يفرقون بين حقٍ وباطلٍ، ولا بين حلالٍ وحرامٍ، فالحقائقُ عندهم ممسوخةٌ، ومخالفوهم في أقفاصِ الاتهامِ أبداً محبوسون. فقد وضعوا لدعوةِ الشيخِ لقباً ينبزونَها به، بل ينبزون به كلَّ حركةٍ لا توافقُ أهواءَهم (إنها الوهابية) فلم يزالوا يلوكون ذلك حتىٰ اقترنت في أذهان البعيدين عنها بالخروجِ عن الإسلامِ، وبُغضِ الأئمةِ.

لقد نشرتْ تلك السياسةُ جلبابَها، وأرسلتْ ضبابَها وتطاولت الأقلامَ بفصاحتِها فكانتْ هي الغازَ الخانقَ. ولكن طلَّابَ الحقيقةِ وأهلَ النصفِ لن يعجزوا عن تحصيلِ مُبتغاهم إذا اعتمدوا القراءةَ الجادةَ المتجردةَ المتأنيَّةَ المنصفةَ ليفرقوا بين الزُّبَد والزَّبَدِ وبين ما ينفعُ الناسَ والغثاءِ إذا وقاهم اللهُ داءَ التحيُّزِ وفتنةَ التعصبِ. وقد آن الأوَانُ أن تزولَ الغشاوةُ عن الأفهامِ. فلئن كان العذرُ مقبولاً أو متلمساً في الماضي قبل انتشارِ آراءِ الشيخِ ومؤلفاتِه وتلاميذِه ومؤلفاتِهم فليس الآن بمقبولٍ ولا معذورٍ فإن الأيامَ وعدَل التاريخ تكشفُ الحقَّ المخبوءَ، وتُظْهِرَ الكنزَ المدفونَ حين يذهبُ الأقرانُ والمنافسون ومن هم بالدعوةِ شارقون. فيزول من الأذهانِ ما نُشرَ من سوءٍ، ويُهالُ الترابُ على أصحابِ الأهواءِ، ويبقىٰ صاحبُ الحقِّ على قِممِ الخلودِ مرتفعاً كالنجمِ الساطعِ لمعاناً وكالبحرِ المحيطِ هديراً.

أيها الإخوةُ: وإن من مناسبةِ الحديثِ عن الحقِّ ودعوةِ الحقِّ والسنةِ والبدعةِ التنبيهَ إلى بعضِ ما يعتقدُه بعضُ الناس في يوم النصفِ من شعبانَ وليلتَه، فليلةُ النصفُ من شعبانَ لم يثبت أثر صحيحٌ

يصارُ إليه في قيامِها بخصوصِها دون غيرِها من الليالي، ولا في صيامِ يومِ النصفِ دون غيرِه من الأيام. أما من كان له عادةُ صيامِ أيامِ البيضِ فيوم الخامسِ عشرَ واحدٌ منها، وكذلك من كان له عادةُ في القيام من الليلِ فهو على عادتِه. أما صيامُ شهر شعبان بجملتِه فقد كان نبيكم محمد ﷺ يصوم منه كثيراً تقولَ عائشةَ رضي الله عنها كما في الصحيحين: «ما رأيت النبي ﷺ استكملَ صيامَ شهرٍ قطُّ، وما رأيتُه في شهرٍ أكثرَ صياماً منه في شعبان»[1] وفي رواية «كان يصومُ شعبانَ كلَّه»[2] وفي مسلمٍ «كان يصومُ شعبانَ إلا قليلاً»[3].

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٤/ ٢٥١ ـ ح١٩٦٩)، ومسلم (٢/ ٨١٠ ـ ح١١٥٦).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٤/ ٢٥١ ـ ح١٩٧٠)، ومسلم (٢/ ٨١١ ـ ح١١٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٨١١ ـ ح١١٥٦).

حقيقة السعادة ومصادرها

الخطبة الأولى

الحمد لله إيماناً بكمالِه وجلالِه، ويقيناً بعلمِه وحكمتِه، ورضاً وطمأنينةً بعدلِه ورحمتِه، أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصىٰ كلَّ شيءٍ عدداً.

أحمده سبحانه وأشكره له الملكُ وله الحمدُ، نعمُه على خلقِه لا تُعدُّ، وفضلِه عليهم لا يُحدُّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليلُه، وأمينُه على وحيِه. من ابتعه واستمسكَ بهديه فلا يضلُّ ولا يشقىٰ، ومن أعرضَ فإن له معيشةً ضنكاً صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ السعادةِ والرضىٰ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجل، فهو سبحانه أهلُ التقوىٰ وأهلُ المغفرةِ. فما من خيرٍ إلا والتقوىٰ موصلةٌ إليه ودليلٌ عليه، وما من شرٍ إلا والتقوىٰ حرزٌ منه حصينٌ، ودرعٌ منه مكينٌ.

أيها المسلمون: من يقاسيْ شدائِدِ الفاقةِ والبؤسِ يرى السعادةَ

في الغنىٰ وعند الأغنياءِ، ومن تتقلبُ به الأوجاعُ والأمراضُ يرىٰ السعادةَ في صحةِ الأبدانِ وسلامةِ الأعضاءِ، والمستضعفُ الذي سُلِبتْ حقوقُه ولم يقوَ على خلاصِها يرى السعادةَ في السلطانِ والجاهِ أو عند ذويْ السلطانِ والجاهِ. ومن أُشْرِبَ في قلبه الفسوقُ والمجونُ والخلاعةُ والدعارةُ يرى السعادةَ في أن تَحِفَّ به الشهواتُ من كلِّ جانبٍ ليُطْلِقَ لها العنانَ كيفَ يشاءُ.

يبحثُ الناسُ عن السكينةِ والطمأنينةِ، وينشدون السعادةَ والرضا، ويتبغون السرورَ والحبورَ، يطلبونها في القوةِ والجاهِ، والثراءِ والحريةِ، والمناصبِ والرُّتبِ.

السعادةُ ليستْ في المالِ الوفيرِ، ولا الجاهِ العريضِ، ولا في البنينَ ونيل المآربِ، ولقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في أقوام: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

عذابٌ في الحياةِ الدنيا، مشقةٌ وألَمٌ، وهمٌّ وسقَمٌ. إنه معذَّبُ النفس، متعَبُ القلبِ، لا يُغنيهِ قليلٌ، ولا يُشبِعُه كثيرٌ، عذابٌ وشقاءٌ لا ينفكُّ عن ثلاثٍ: همٌّ لازمٌ، وتعبٌ دائمٌ، وحسرةٌ لا تنقضي **«لو كان لابن آدمَ واديان من ذهبٍ لابتغى ثالثا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على من تابَ»**(١)، **«ومن كانت الدنيا همَّه فرق اللهُ عليه شملهَ وجعل فقرَه بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»**(٢).

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (١١/ ٢٥٧ ـ ح٦٤٣٦)، ومسلم (٢/ ٧٢٥ ـ ح١٠٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٥ ـ ح٤١٠٥) وقال في الزوائد: اسناده =

السعادةُ شيءٌ لا يُرىٰ بالعينِ، ولا يقاسُ بالعددِ، ولا تحويهِ الخزائنُ، ولا يُشترىٰ بالدرهمِ والدينارِ. السعادةُ شيءٌ داخلَ الجوانحِ، يغتبطُ به الجنانُ، ويمتلىء به الجنبانِ. صفاءٌ في النفسِ، وطمأنينةٌ في القلبِ، وانشراحٌ في الصدرِ، وراحةٌ في الضميرِ، وهدوءٌ في البالِ. إنها شعورٌ جميلٌ بالغبطةِ، واحساسٌ لذيذٌ بالطمأنينةِ مع بهجةٍ وأريحيَّةٍ، وانطلاقةُ نفسٍ في سكينةٍ.

تصوَّرْ ـ رعاكَ اللهُ ـ واحداً من ذوي الثراءِ والجاهِ ابتليَ بمرضٍ مزمنٍ، يُؤتىٰ لهُ بأطايبِ الطعامِ فلا يأكلُ، وإن أكل فلا يستلذُّ. أشرفَ من نافذةِ بيتِه المنيفِ وأطلَّ من سريرِ مرضِه الوثيرِ، فلاحتْ منه التفاتةُ على عاملٍ من عمَّالِه قد افترشَ جانباً من الأرضِ تحتَ ظلِّ شجرةٍ، يأكلُ رغيفاً مع إدامٍ يسيرٍ، لقمةٌ في فمِه، وأخرىٰ في يدِه، وثالثةٌ ترقبُها عينُه، كم يتمنىٰ هذا الوجيهُ لو كان في مُتعةِ هذا العاملِ وصحتِه!!.

إن السعادةَ مصدرُها القلبُ، ومظهرُها الرضىٰ، ودليلُها إدراكُ النعمةِ والاعترافِ بها، لا ترىٰ أوضحَ ولا أفضحَ من خيبةِ إنسانٍ يطلبُ السعادةِ في شهواتِ الدنيا، وقد علمَ وعلمْتُم أن طالبَها يظلُّ منهوماً لا تنقضي شهواتُه، هلِعاً تتشعبُ رغباتُه. ثم يقوده همُّهُ إلى منازعةِ الآخرين أرزاقَهم، وخصامَهم في حقوقِهم فيُشقيْ ويَشقىٰ، وفي العداوةِ والبغضاءِ يسعىٰ، ومن الهمِّ والنكدِ يزدادُ. ملأ فكرَهُ بهمومِ الحياةِ، وفتَنَهُ اللهوُ والمتعُ، قد أغمته فوادح الزمن وقوارع الدهر.

= صحيح، رجاله ثقات، وابن حبان (٧٢).

ولو دققَ هذا وحققَ لوجد أن كلَّ ما ظفرَ به فعقباه حزنٌ، وعاقبتُه خسرٌ إما بذهابِ المأمولِ، وإما بذهابِ الآمل.

أيُّها الإخوةُ في اللهِ: لن يجدَ امرؤٌ ما يملأ نفسَه رضاً بأقدارِ الحياةِ سوىٰ الإيمانِ باللهِ واللجوءِ إلى جنابِ ربِّه والانطراحِ بين يديه.

الحياةُ بغيرِ الدينِ تعقيدٌ تَحُفُّها المنغصاتُ. بضعفِ الدينِ تنبتُ الاضطرباتُ الاجتماعيةُ والأمراضُ النفسيةُ، فيفزعُ المبتلَوْنَ إلى المهدئاتِ والمسكِّناتِ، بل إلى المسكراتِ والمخدراتِ عياذاً بالله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الدنيا عند المؤمنِ ليست عِبْئاً مُضجراً، ولا لغزاً محيِّراً، ولكنَّها مرحلةٌ ومزرعةٌ، ودارُ ممرٍ واختبارٍ، يرجو بعدها لقاءَ اللهِ، الإيمانُ سفينتُه، والعبادةُ وسيلتُه.

المؤمنُ تغمرُه السعادةُ لأنه موقنٌ بأن الحياةَ محكومةٌ بأقدارِ اللهِ، فلا يأسَ على ما فاتَ، ولا فَرحَ بما حصَّلَ، لا يستسلمُ للخيبةِ، ولا يُهلِكُ نفسَهُ تحسراً، بل كلُّ مواقفِ الدنيا عندَهُ ابتلاءٌ بالخيرِ وبالشرِ، ولئن زلزلتْهُ وقائعُ البلوىٰ ردَّهُ الإيمانُ إلى استقرارِ النفسِ، وبَرْدِ اليقينِ، ورباطِ الطمأنينةِ، فَنِعَمَ بالسكينةِ من غيرِ هلعٍ ولا شقاءٍ.

المؤمنُ يملكُ السعادةَ والراحةَ التي تجمعُ له بين التوكلِ والعملِ الكادحِ، لا يزعزعُهُ جزعٌ، ولا يرهقُه قلقٌ، يعمر الحياة

نشاطاً، ويعمرها جهاداً.

أيُّها الإخوةُ: إن السعادةَ لا تحصلُ بالهروبِ والإهمالِ، ولكنها في مواجهةِ الحياةِ وغاياتِها.

إن ثَمَّتَ أسباباً يحسنُ تحصيلُها ورعايتُها، فهي عواملُ الإسعادِ، وجالباتُ الرضىٰ.

جاءَ في الحديثِ عنه ﷺ: **«من سعادةِ ابن آدمَ المرأةُ الصالحةُ والمسكنُ الصالحُ والمركبُ الصالحُ»**(1). أسبابٌ وعواملُ منظورٌ فيها إلى النوعِ والكيفِ، وحَسْبُ الإنسانِ أن يسلَمَ بإيمانِه من المنغصاتِ، ويتيسرَ له من القوتِ ويتحققَ له من الأمنِ والعافيةِ ما جسَّدَهُ الحديثُ النبويُّ الآخرُ: **«من أصبحَ آمنا في سربِه معافى في بدنِه عنده قوتَ يومِه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرِها»**(2).

المالُ يحققُ السعادةَ إنْ ابتغيتَ به مُتعةَ عيشٍ مباحةً، ولذةَ نفسٍ جائزةً، ومكرمةً تبتغي ذكرَها، وصالحةً تبتغي عند اللهِ أجرَّها. إن لم يكن كذلك فإنه لا يعدو أن يكون حُزَماً من الورقِ الملوَّنِ، أو لمعاناً من المعدنِ ثقيلٍ، أو أكواماً من الطينِ والترابِ؛ عليك غرُمه، ولغيرِك غنْمُه.

السعيدُ لا يأكلُ أكثرَ مما يأكلُ الناسُ، ولا يملكُ أكثرَ مما

---

(1) أخرجه أحمد (١/١٦٨)، والحاكم وقال: صحيح الاسناد وأقره الذهبي (٢/١٤٤).

(2) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب (٤/٤٩٦ ـ ح٢٣٤٦)، وابن ماجه (٢/١٣٨٧ ـ ح٤١٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٣٣ ـ ح٣٠٠)، وحيزت: أي جُمعت.

يملكُ الناسُ، ولكنه يرضىٰ أكثرَ مما يرضىٰ الناسُ.

سبحانَ اللهِ ـ عبادَ اللهِ ـ إن أسبابِ الرزقِ أدقُّ من أنْ يدركَ الناسُ حكمتَها وأسرَارها.

في الناس طلاَّبُ رزقٍ لا ينالون خبزَهم ولا خبزَ عيالِهم إلا في قاعِ البحَارِ اللُّجِّيةِ يغشاها موجٌ من فوقِه موجٌ.

وآخرون طيَّارُون؛ رزقُهم فوقَ السحابِ يبتغونَهُ صُعُداً في أعالي السماءِ. ومن بين هؤلاء وهؤلاءِ عمالُ المناجمِ والأنفاقِ يَنْقِبُون الحجارةَ ويُفجِّرون الصخورَ لا يرونَ ضوءِ الشمسِ ولا بياضِ النهارِ، ومن دون هؤلاء وأولئكِ من يأتيهِ رزقُه عندَ بابه ليس في رؤوس الجبالِ ولا في أعماقِ البحارِ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

السعداءُ مؤمنون عاملون، وعلى ربِّهم متوكلون، وبحكمته واثقون، وبأقدارِه موقنون، نصيبُهم المقسومُ في السماءِ سيهبِطُ إليهم في الأرضِ. هذه هي السعادةُ ذاتُ الخُلُقِ السمحِ والنفسِ المطمئنةِ.

وإن من مصادرِ الشقاءِ وأسبابِ التعاسةِ أن تَكْثُرَ البطالةُ وينتشرَ الذين يتكفَّفُون الناسَ، وينضمُّ إلى هؤلاءِ روادُ المقاهي والأنديةِ البطالونَ الذين هم خلْوٌ من أي عملٍ، وإن السعادةَ لهم ولغيرهم أن تُهيأَ لهم فرصُ العملِ؛ صناعةً، وزراعةً، وحرفةً، وتجارةً؛ مستفيدين من مستجدَّاتِ العصرِ ووسائلِه الحسنةِ، يهتمُّ بذلك ولاةُ أمورِ المسلمين، وعلى رجالِ الأعمالِ كفلٌ في هذا غيرُ يسيرٍ.

ولئن كان العملُ عاملاً من عواملِ السعادةِ كبيراً، فإن العلمَ قرينُه؛ ويُقصدُ بالعلم الفقْهُ في شؤونِ الناسِ وأمرِ الحياةِ، علمٌ واستنارةٌ يرتفعُ بها صاحبُها عن مصافِّ الجهلِ والجهلاءِ، فالجهالُ يصعبُ قيادتُهم، ويشقُّ توجيهُهم، وتقلُّ راحتُهم، وتصعبُ إراحتُهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥] وتكونُ الشخصيةُ متعلمةً إذا كانت متفتحةً تدركُ الحقَّ والنافعَ، وتفهمُ المطلوبَ وتتجاوبُ. وإن ردودَ الفعلِ غيرَ المهذبةِ من الجهالِ هي العلةُ في كثيرٍ من أسبابِ الشقاءِ وعدمِ انتظامِ طرُقِ المعاشِ.

ثمَّ - أيُّها الإخوةُ - لا خيرَ في علمٍ إذا لم يصاحبْهُ خلقٌ كريمٌ وأدبٌ سامٍ، يتربىٰ عليه أفرادُ الأمةِ من الصبرِ، والعزمِ، والجدِّ والاقدامِ، والأمانةِ، والصدقِ، والحلمِ، وسماحةِ النفسِ، ورقةِ العاطفةِ. ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بتربيةِ البيتِ والمدرسةِ مقدمةً بقالبِ الدينِ والشرع المطهرِ فيتولدُ الحياءُ والعفافُ وسعةُ الأفقِ وانشراح الصدرِ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الانشراح: ١ - ٣] تربيةً تأخذ الناشئةَ إلى ربِّهم فيلجأونَ إلى ذكره وشكره ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ۝٣٦﴾ [الزخرف: ٣٦] تربيةً تبعدُهم عن الغلِّ والحسدِ وتملأُ قلوبَهم بحبِّ الخيرِ للناسِ، وسؤالِ الله من فضله للنفس وللناس أجمعين: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٣٢﴾ [النساء: ٣٢].

وإن من أهم ما تتوجهُ إليه التربيةُ ويستجلِبُ السعادةَ الهدوءَ

والانضباطَ؛ فالفوضىٰ والاضطرابُ الشخصيِّ والانزعاجُ النفسيِّ من أظهر مظاهرِ الشقاءِ. إن المضطربَ غيرَ المنضبطِ يُلقيْ ببصرِه هنا وهناكَ ينزعجُ ويُزعْجُ، وإنكم لتعلمون كم يجلبُ تجاوزُ الأنظمةِ المرعيةِ من الشقاءِ الاجتماعي، والضغط النفسيِّ فضلاً عن عدمِ وصولِ الحقِّ إلى مستحقِّه وتجاوزِه إلى غيرِ أهلِه. فأي سكينةٍ تُرجىٰ حين تكونُ الفوضىٰ سائدةً؟؟.

أيُّها المسلمُ أنت سعيدٌ إذا عرفتَ نفسَكَ، وطلبتَ السعادةَ من نفسِكِ لا ممن حولكَ، سعيدٌ بإيمانِك وخلُقِكَ وحبِّك للناس، سعيدٌ إن كنتَ مع ربِّك فشكرتَ النعمةَ، وصبرت على البليَةِ، فكان لك الربحُ في الحالينِ، وحسنُ الثوابِ في الحياتين.

اللهُ أكبرُ؛ سعادةٌ عند أهلِ الإيمانِ لو علم بها المحرومون من أهلِ الثراءِ والجاهِ وأهلِ الكفرِ والنفاقِ لجالدوا عليه بالسيوفِ، بل إن الملاحدةَ لما رأو ما يغشىٰ أهلَ الإيمانِ من الرضا والطمأنينةِ والقناعةِ والسكينةِ ظنوا بجهلِهم وغفلتِهم أن الدين قد خدَّرَ أهلَه، وما درىٰ هؤلاءِ المساكينُ أن أهلَ الإيمانِ موقنون بأن أهلَ الأرضِ والسمواتِ لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحداً بشيءٍ لم ينفعوه إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيءٍ لم يضروه إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليه.

مؤمنون بأن السماءَ لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً، وعندهم في دينِهم الإيمانُ مقرونٌ بالعملِ، ونواميسُ الكونِ وسننُ اللهِ لا تتبدلُ من أجلِ كسولٍ أو خاملٍ، والشفاءُ بإذن اللهِ مرتبطٌ بالعلاجِ، والحصادُ لا يكونُ إلا بعد الزرعِ، فاعملْ وادأبْ، وخذْ وطالبْ، وارضَ بما قسمَ اللهُ لكَ من غيرِ يأسٍ يدخلُ قلبكَ، ومن غيرِ حقدٍ

يأكلُ فؤادكَ، ومن غيرِ حسدٍ يأكلُكَ ويأكلُ حسناتِك. إن سلكتَ هذا المسلكَ فلسوفَ تعبُّ السعادةَ عبًّا، ولسوف تتنزَّلُ عليكَ السكينةُ تنزُّلاً.

وبعدُ أيُّها الإخوةُ فإن الإمام ابن القيم رحمهُ اللهُ يقول:

إن في القلبِ لشعثاً لا يلمُّهُ إلا الإقبالُ على اللهِ وإن فيه وحشةً لا يزيلُها إلا الأنسُ باللهِ، وإن فيه حُزْناً لا يذهبُه إلا السرورُ بمعرفةِ اللهِ وصدقِ معاملتِه، وإن فيه قلقاً لا يُسْكنُه إلا الفرارُ إليه، وفيه فاقةً لا يسدُّها إلا محبتُه والإنابةُ إليه ودوامُ ذكره وصدقُ الإخلاصِ لَه، وفيه حسراتٌ لا يطفئُها إلا الرضا بأمرِه ونهيِه والصبرِ على قضائِه إلى يومِ لقائِه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤].

حقيقة السعادة ومصادرها

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ خلقَ فسوىٰ، وقدَّرَ فهدىٰ، وأضحكَ وأبكىٰ، وأسعدَ وأشقىٰ، أحمده سبحانه وأشكرُه له الحمدُ في الآخرةِ والأولىٰ، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه الأبرُّ الأتقىٰ، صلى الله وسلم وباركَ عليه وعلى آله وأصحابه آمنوا بربهم وصدَّقوا بالحسنىٰ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ. فاتقوا اللهَ أيها الناسُ، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى اللهِ.

أيها المسلمون: إن البصيرَ ليأسىٰ كلَّ الأسىٰ وأشدَّه لأقوامٍ مخذولين تَنَكَّروا لفطرِهم، وغَلُظَ عن اللهِ حِجابُهم، وأظلمتْ بالشكوكِ قلوبُهم، لم تنفذْ إليهم أشعةُ الإيمانِ بسكينةٍ، ولا تسرَّبتْ غليه أنوارُ اليقينِ براحةٍ. أولئك الأشقياءُ المطموسون الذين يجادلون في الله بغيرِ علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ.

مساكينٌ ثم مساكينُ دخلوا الحياةَ وخرجوا منها لم ينعموا بأطايبِ ما فيها وأعظم ما فيها الإيمانِ باللهِ واللياذِ بجنابهِ، خسروا أنفسَهم وخسروا حياتَهم.

الساخطون الشاكُّون لا يذوقون للسرورِ طعماً، حياتهم سوادٌ

ممتدٌ، وظلامٌ متصلٌ، دليلٌ حالكٌ لا يرقبون الفجرَ الصادقَ.

والغريبُ أيها الإخوةُ أن هناكَ ترابطاً وثيقاً بين الشكِّ والتسخطِ، فلا سخطَ من غيرِ شكٍ ولا شكٍ من غيرِ تسخطٍ حتى قال ابن القيم رحمهُ اللهُ: قلَّ أن يسلمَ الساخطُ من شكٍ يداخلُ قلبَه، وإذا فتَشَ نفسَهُ وجدَ يقينُه معلولاً مدخولاً، فالرضا واليقينُ اخوان والسخطُ والشكُ قرينان.

الساخطُ المتسخطُ دائمُ الحزنِ والكآبة، ضيِّقُ النفس والصدرِ، ضائقٌ بالناسِ وضائقٌ بنفسِه، الدنيا في عينيه سَمُّ الخياطِ.

أما الرضا فسكونٌ وطمأنينةٌ وراحةٌ فيما قدَّر اللهُ واختارَ. من أنعمَ اللهُ عليه بالرضا تأتيه المصيبةُ فيعلمُ أنها من عندِ اللهِ فيرضىٰ ويسلِّمُ، لا يصبحُ ولا يمسي إلا راضياً مرضياً، لا يرىٰ إلا الحسنَ والسرورَ. عينُ الرضا تعمىٰ عن العيوبِ، وعينُ السخطِ تملأها المساوىءُ، وليس من شرطِ الرضا ألا تحسَّ بالمكارهِ ولكن الرضا ألا تعترضَ على المقاديرِ ولا تسخطَ على المكتوبِ.

هنيئاً لمن ملأ الرضا فؤادَه، لا يتحسرُ على ماضٍ باكياً حزيناً، ولا يعيشُ حاضراً ساخطاً جزوعاً، ولا ينتظرُ المستقبلُ خائفاً وَجلاً، ولا يعيشُ في رهبةٍ من غموضٍ، ولا توجس من جبروتٍ. إيمانُه مصدرُ أمانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

الغيرة على الأعراض

الخطبة الأولى

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلن تجدَ له ولياً مرشداً، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، شرعَ الشرائعَ لتهديَ إلى الخيرِ والرشادِ والفضيلةِ، وسدَّ الذرائعَ لتحولَ عن الشرِّ والفسادِ والرذيلةِ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وعدَ بالثوابِ كما توَّعدَ بالعقابِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠]. وأشهد أن سيدَّنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه جاءَ بالحقِّ من عند ربِّه، فأنارَ القلوبَ وهداها، وطهَّرَ النفوسَ من فجورِها وزكَّاها، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ وخشيتِه وطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

أيُّها المسلمون: لا ترجعُ هزائِمُ الأممِ، ولا انتكاساتُ الشعوبِ إلى الضعفِ في قواها الماديةِ ولا إلى النقصِ في معداتِها الحربيةِ.

من يظنُّ هذا الظنَّ ففكرُه قاصرٌ ونظرُه سقيمٌ.

إن الأممَ لا تعلو ـ بإذن اللهِ ـ إلا بضماناتِ الأخلاقِ الصلبةِ في سيرِ الرجالِ. بل إن رسالاتِ اللهِ ما جاءتْ إلا بالأخلاقِ، واتمام الأخلاق بعدَ توحيدِ اللهِ وعبادتِه: «**إنما بعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ**»[1].

الأخلاقُ الفاضلةُ، يضعفُ أمامَها العدوُ، وينهارُ بها أهلُ الشهواتِ.

حينما يكونُ المجتمعُ صارماً في نظامِ أخلاقِه وضوابطِ سلوكِه، غيوراً على كرامةِ فردِه وأمتِه، مُؤْثِراً رضا اللهِ على نوازعِ شهواتِه حينئذٍ يستقيمُ مسارُه في طريقِ الحقِ والصلاحِ والرفعةِ والإصلاحِ.

والأخلاقُ أيها الإخوةُ ـ ليستْ شيئاً يُكتسبُ بالقراءةِ والكتابةِ، ولا بالمواعظِ والخطابةِ، ولكنها درجةٌ بل درجاتٌ لاتُنال ـ بعد توفيقِ اللهِ ورحمتِه ـ إلا بالتربيةِ والتهذيبِ والصرامةِ والحزمِ وقوةِ الإرادةِ والعزمِ.

أيُّها الإخوة: وهذا حديثٌ عن مقياسٍ من مقياسِ الأخلاقِ دقيقٌ ومعيارٍ من معاييرِ ضبطِ السلوكِ جليٍّ.

إنها الغيرةُ. الغيرةُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ الغيرةُ. الغيرةُ على الأعراضِ وحمايةُ حمىٰ الحرماتِ.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، وأحمد (٢/٣١٨)، والحاكم (٢/٦١٣) وقال: صحيح على شرطِ مسلم ووافقه الذهبي ومالك في الموطأ (٢/٩٠٤ ـ ح٨) بلاغاً، وقال ابن عبدالبر هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

أيها الأحبةُ الغيورون: كلُّ أمرىءٍ عاقلٍ، بلْ كلُّ شهم فاضل لا يرضى إلا أن يكون عِرْضُهُ محلَّ الثناءِ والتمجيدِ، ويسعى ثم يسعى ليبقى عِرضُهُ حرَماً مصوناً لا يَرتَعُ فيه اللامزون، ولا يجوسُ حماهِ العابثون.

إن كريمَ العرضِ ليبذلُ الغالي والنفيسَ للدفاع عن شرفِه، وإن ذا المروءةِ الشهمَ يُقَدِّمُ ثروَتَه ليسدَّ أفواهاً تتطاولُ عليه بألسنتها أو تنالُه ببذيءِ ألفاظِها. نعم إنه ليصونُ العرضَ بالمالِ، فلا باركَ اللهُ بمالٍ لا يصونُ عِرضاً.

بل لا يقفُ الحدُّ عند هذا فإنَّ صاحبَ الغيرةِ ليخاطرُ بحياتِه ويبذلُ مُهجتَهُ، ويُعرِّضُ نفسَه لسهامِ المنايا عندما يُرجَمُ بشتيمةٍ تلوِّثُ كرامتَه. يهون على الكرامِ أن تُصَانَ الأجسامُ لتسلم العقولُ والأعراضُ. وقد بلغَ دينُكم في ذلك الغايةَ حينَ أعلنَ نبيُّكم محمد ﷺ: «مَنْ قُتِل دون أهله فهو شهيد»(١).

أيُّها الإخوةُ: بصيانةِ العِرضِ وكرامتِه يتجلَّى صفاءُ الدينِ وجمالُ الإنسانيةِ، وبتدَنُّسِهِ وهوانِه يَنزلُ الإنسانُ إلى أرذلِ الحيواناتِ بهيميةً.

يقولُ إبن القيم رحمهُ الله: (إذا رحلتْ الغيرةُ من القلب ترحَّلتْ المحبةُ، بلْ ترحَّلَ الدينُ كلُّه). ولقد كان أصحابُ رسولُ اللهِ ﷺ من أشدِّ الناس غيرةً على أعراضِهم، روي عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ يوماً لأصحَابِه: « إِنْ دخلَ أحدُكم على أهلِه ووجدَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٢ ح ١٤٢١)، وأبو داود (٤/ ٢٤٦ ح ٤٧٧٢).

ما يَريْبُه أَشْهَدَ أربعاً؛ فقام سعدُ بن معاذٍ مُتأثِّراً فقال يا رسولَ اللهِ: أأدخلُ على أهلي فأجدُ ما يَريبُني انتظرُ حتى أُشْهِدَ أربعاً؟ لا والذي بعثكَ بالحقِّ!! إن رأيتُ ما يَريبُني في أهلي لأُطِيحنَّ بالرأسِ عن الجسدِ ولأضربنَّ بالسيفِ غيرَ مُصْفَحٍ[1] ولْيفْعَلْ اللهُ بي بعدَ ذلك ما يشاءُ؟؟ فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: **أتعجبون من غيرةِ سعدٍ؟؟ واللهِ لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ مني؛ ومن أجل غيرةِ اللهِ حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ. . .**»[2] الحديث وأصله في الصحيحين.

من حُرِمَ الغيرةَ حُرِمَ طُهرَ الحياةَ، ومن حُرِمَ طُهرَ الحياةِ فهو أحطُّ من بهيمةِ الأنعامِ.

ولا يُمتَدحُ بالغيرةِ إلا كرامُ الرجالِ وكرائِمُ النساءِ.

إن الحياةَ الطاهرةَ تحتاجُ إلى عزائِم الأخيارِ، وأما عيشةُ الدَّعارةِ فطُريقُها سهلُ الانحدارِ والانهيارِ، وبالمكارِه حُفَّتْ الجنةُ وبالشهواتِ حُفَّتْ النارُ.

أيُّها الإخوةُ: إن الأسفَ كلَّ الأسفِ، والأسىٰ كلَّ الأسىٰ فيما جلبتْهُ مدنيةُ هذا العصرِ من ذبحٍ صارخٍ للأعراضِ، ووأدٍ كريهٍ للغيرةِ. تُعْرضُ تفاصيلُ الفحشاءِ من خلالِ وسائِل نشرٍ كثيرةٍ، بل إنه ليُرىٰ الرجلُ والمرأةُ يأتيانِ الفاحشةَ وبواعثَها ومثيراتِها، يشاهَدانِ وهما يُعانِقانِ الرذيلةِ غيرَ مستورَيْنِ عن أعينِ المشاهدينَ

---

(١) غير مصفح: أي بحده لا بعرضه.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري (١٣/ ٤١١ ـ ح٧٤١٦)، ومسلم (٢/ ١١٣٦ ـ ح١٤٩٩).

والنَّظَّارةِ، لقد انقلبَ الحالُ عند كثيرٍ من الأقوامِ بل الأفرادُ والأسرُ حتى صارَ الساقطونَ الماجنونَ يُمَثِّلُون الأُسوةَ والقدوةَ من مفكرِهم وسامَ افتخارٍ وعنوانَ رجولةٍ.

تصورْوا ـ رعاكم اللهُ وحماكُم ـ خبيثاً وخبيثةً يقفان على قارعةِ الطريقِ ليمارسا الفاحشةَ علانيةً كما تفعلُ البهائِم من الحميرِ والخنازيرِ أعزَّ اللهُ مقامَكم ونزَّهَ أسماعَكُم.

هل غارتْ من النفوسِ الغيرةُ؟ وهل غاضَ ماؤُها؟ وهل انطفأَ بهاؤُها؟ هل في الناسِ دِياثةٌ؟ هل فيهم من يُقِرُّ الخبثَ في أهلِه؟ لا يدري الغيورُ من يَخاطب؟ هل يخاطبُ الزوانيْ والبغايا؟ وإلا فأين الكرامُ والحرائِرُ؟؟.

إعلانٌ للفحشاءِ بوقاحةٍ؟؟ وإغراقٌ في المجونِ بتبجحٍ؟؟ أغانٍ ساقطةٌ، وأفلامٌ آثمةٌ، وسهراتٌ فاضحةٌ، وقَصَصٌ داعرةٌ، وملابسُ خالعةٌ، وعباراتٌ مثيرةٌ، وحركاتٌ فاجرةٌ؛ ما بين مسموعٍ ومقروءٍ ومشاهدٍ، في صورٍ وأوضاعٍ يندىٰ لها الجبينُ في كثيرٍ من البلادِ والأصقاعِ إلا من رحمَ اللهُ. على الشواطىءِ والمتنزهاتِ، وفي الأسواقِ والطرقاتِ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل؟؟.

حسبُنا اللهُ من إناسٍ يَهشُّون[1] للمنكرِ ويودُّون لو نَبَتَ الجيلُ كلُّه في حمأةِ الرذيلةِ، وحسبُنا اللهُ من فئاتٍ تودُّ لو انهال الترابُ على الفطرةِ المستقيمةِ والحشمةِ الرفيعةِ.

---

(١) أي يأنسون ويحبون.

ما هذا البلاءُ؟ كيف يستسيغُ ذوو الشهامةِ من الرجالِ والعفةِ من النساءِ لأنفسِهم ولأطفالِهم، لفتيانِهم ولفتياتِهم هذا الغثاءَ المدِّمرَ من ابتكاراتِ البثِّ المباشرِ وقنواتِ الفضاءِ الواسعِ؟؟.

أين ذهبَ الحياءُ؟ وأين ضاعتْ المروءةُ؟ أين الغيرةُ من بيوتٍ هيأتْ لناشئتِها أجواءَ الفتنةِ، وجرَّتها إلى مستنقعاتِ التفسُّخ جراً، وجَلبتْ لها محرضاتِ المنكرِ تدفعُها إلى الإثمِ دفعاً، وتدُعُّها إلى الفحشاءِ دعاً؟؟.

اطلعتْ امرأةٌ شريفةٌ على الخمرِ ثم سألت: هل تشربُ هذا نساؤكم؟ قالوا: نعم. قالت: زنين ورب الكعبة!!!.

أيُّها الإخوةُ: إن طريقَ السلامةِ لمن يُريدُ السلامةَ ـ بعد الإيمان بالله ورحمته وعصمته ـ ينبعُ من البيتِ والبيئة. فهناك بيئاتٌ تُنْبتُ الذُّلَّ، وأخرىٰ تنبتُ العزَّ، وثمَّتَ بيوتاتٌ تُظَلِّلُها العفةُ والحشمةُ، وأخرىٰ ملؤُها الفحشاءُ والمنكرُ. لا تُحفظُ المروءةُ ولا يَسلمُ العرْضُ إلا حينَ يعيشُ الفتىٰ وتعيشُ الفتاةُ في بيتٍ محتشمٍ محفوظٍ بتعاليمِ الإسلامِ وآدابِ القرآنِ، ملتزمٍ بالسترِ والحياءِ، تختفي فيه المثيراتُ وآلاتُ اللهوِ المنكرِ، يتطهرُ من الاختلاطِ المحرمِ. الغيرةَ الغيرةَ يا عبادَ اللهِ؛ فالحمو الموتُ[1]، واحذروا السائقَ والخادمَ وصديقَ العائلةِ وابنُ الجيرانِ، ناهيكَ بالطبيبِ المريبِ والممرِّضِ المريضِ، وإياكم واحذروا الخلوةَ بالبائعِ والمدرسِ في البيتِ، حذارِ أن يظهرَ هؤلاء وأشباهُهم

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه انظر البخاري (٩/ ٢٤٢ ـ ح٥٢٣٢)، ومسلم (٤/ ١٧١١ ـ ح٢١٧٢).

على عوراتِ النساءِ. فذلكُم اختلاطٌ يتسعُ فيه الخرقُ على الراقعِ وتصبحُ فيه الديارُ من الأخلاقِ بلاقعَ.

هل تأمَّلْتُم ـ وفقكم الله ـ لماذا توصفُ المحصناتُ بالغافلاتِ؛ الغافلاتُ: وصفٌ لطيفٌ محمودٌ، وصفٌ يُجَسِّدُ المجتمعَ البريءَ والبيتَ الطاهرَ الذي تَشُبُّ فتياتُه زهراتٍ ناصعاتٍ لا يعرفْنَ الإثْمَ، إنهنَّ غافلاتٌ عن لوثاتِ الطباعِ السافلةِ.

وإذا كان الأمرُ كذلك فتأمَّلوا كيف تتعاونُ الأقلامُ الساقطةُ والأفلامُ الهابطةُ لتمزِّقَ حجابَ الغفلةِ هذا، ثم تتسابَقُ وتتنافسُ في شرحِ المعاصي، وفضحِ الأسرارِ وهتكِ الأستارِ، وفتحِ عيونِ الصغارِ قبلِ الكبارِ. ألا ساءَ ما يزرون؟؟؟.

أيها الإخوةُ والأخواتُ: الغيرةَ الغيرةَ إن لم تغاروا فاعلموا أن ربَّكم يغارُ، فلا أحدَ أغيرُ من اللهِ من أجلِ ذلك حرَّمَ الفواحشَ، يا أمةَ محمدٍ ما من أحدٍ أغيرُ من اللهِ أن يزنيَ عبدُه أو تزنيَ أمَتُه.

وربُّكم يُمهلُ ولا يُهملُ، وإذا ضُيِّعَ أمرُ اللهِ فكيف تُستنكرُ الخياناتُ البيتيةُ والشذوذاتِ الجنسيةُ وحالاتُ الاغتصابِ وجرائِمُ القتلِ وألوان الاعتداءِ؟؟؟.

إذا ضُيِّعَ أمرُ اللهِ طفَح المجتمعُ بنوازعِ الشرِّ وامتلأَ بدوافعِ الأثرةِ، وتولَّدتْ فيه مشاعِرُ الحسدِ والبغضاءِ، ومن ثَمَّ قلَّ ما ينجو من فسادٍ وفوضىٰ وسفك دماءٍ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

[محمد: ٢٢ ـ ٢٤].

الغيرة على الأعراض

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ ذي الجلالِ والعزةِ، يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصدورُ، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره يتولى أهلَ التقىٰ والعفةِ بلطفهِ ورحمتِه ويأخذُ أهلَ الفسوقِ والمجونِ ببأسهِ ونقمتِه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَّنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه جاء بكريم الخصالِ ومجامعِ الأخلاقِ فحفظَ الأمانةَ وصان العفةَ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها المسلمون: كم للفضيلةِ من حصنٍ امتنعَ به أولوا النخوةِ فكانوا بذلك محسنين، وكم للرذيلة من صرعىٰ أوردتهم المهالَك فكانوا هم الخاسرين.

في ظلالِ الفضيلةِ منعَةٌ وأمانٌ، وفي مهاوي الرذيلةِ ذلَّةٌ وهوانٌ، والرجلُ هو صاحبُ القوامةِ في الأسرةِ وإذا ضعُفَ القوَّامُ فسدَ الأقوام. وإذا فسد الأقوامُ خسروا الفضيلةَ، وفقدوا العفةَ وتاجروا بالأعراضِ وأصبحوا كالمياه في المفازاتِ يَلَغُ فيها كلُّ كلبٍ، ويكدِّرُ ماءَها كلُّ واردٍ.

جاءَ شابٌ إلى النبي ﷺ فقال: «يارسول الله ائذنْ لي في الزِّنا؛ فأقبلَ عليه الناسُ يزجرونَهُ، وأدنىٰ رسولُ الله ﷺ مجلسَه

ثم قال له: **أتحبه لأمِّك؟** قال: **لا واللهِ جعلني اللهُ فداكَ.** قال رسول الله ﷺ: **ولا الناسُ يحبون لأمهاتِهم.** قال: **أفتحبه لابنتكِ؟** قال: لا. قال: **ولا الناسُ يحبونه لبناتِهم.** ولم يزلْ النبيُّ ﷺ يقول للفتى: أتحبه لأختكِ أتحبه لعمتِك أتحبه لخالتِك، كلُّ ذلك والفتى يقولُ لا واللهِ جعلني اللهُ فداكَ فوضعَ النبيُّ ﷺ يدَه عليه وقالَ: **اللهم اغفرْ ذنبَه وطهِّرْ قلبَه وحصِّنْ فرجَه، فلم يكنْ بعدَ ذلك الفتىٰ يلتفتُ إلى شيء»**[1].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكمُ الله وغاروا على حرماتِ اللهِ يسلمْ لكم دينُكم وعِرْضُكم ويباركْ لكم في أهلِكم وذرياتِكم.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٧) وسنده جيد انظر الفتح الرباني (١٦/ ٧١).

جريمة الزنا

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ حمداً يليقُ بجلالِه، والشكرُ له على جزيلِ انعامِه وجميلِ افضالِه، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدُه لا شريك له في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه الصادقُ في فعالِه، صلى الله وسلم وبارك عله وعلى أصحابه وآله، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ. فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فاتقوه رحمكم اللهُ تقوىٰ من أنابَ إليه، واحذروه حذرَ من يؤمنُ بيومِ العرضِ عليه، واعبدوه مخلصين له الدينَ، وراقبوه مراقبةَ أهلِ اليقين، وعلى اللهِ فتوكلوا إن كنتم مؤمنين.

أيها المسلمون: لا يتفاضلُ الناسُ في مراقي الشرفِ والمجدِ، ولا تنزلُ الهممُ وتسقطُ التطلعاتُ إلا بمقدارِ ما تتمتعُ به النفوسُ من ضبطِ السلوكِ وقوةِ الإراداتِ. فالرجلُ ذو العزيمةِ يتجلىٰ فيه مظهرُ الكرامةِ الإنسانيةِ مطبوعاً على أجملِ صورةٍ من الكمالِ والنُّبلِ، وبسببِ ضعفِها وهوانِها ينزلُ المرءُ من سماءِ الإنسانيةِ العالي ليكون أشبه بالحيوانِ ساقطاً مهملاً.

قيمةُ المرءِ إباؤُه وعزيمتُه، وميزانُه نزاهتُه وسمعتُه، وشرفهُ في طهارةِ عرضِه وبياضِ صفحتِه ونقاءِ ذيلِه.

لقد كان الشرفاءُ الأحرارُ في كلِّ الأممِ حتى في عصورِ الجاهليةِ المظلمةِ يعتزون بشرفِ سمعتِهم، وصيانةِ أعرضِهم، ويقفون دونَها أسوداً كاسرةً، ونموراً مفترسةً، يغسلون إهانةَ أعراضِهم بأسنةِ رماحِهم وحدِّ سيوفِهم، لا ينامون على إهانةٍ، ولا يصبرون على عارٍ، ولا يقبلون ذلةً، ولقد قالت هندُ بنتُ عتبةَ وهي تبايعُ رسولَ اللهِ ﷺ: (أوَ تزني الحرةُ يا رسول اللهِ؟؟؟)[1].

أيها الإخوةُ: يُثارُ هذا الموضوعُ وتُقلَّبُ صفحاتُه وأهلُ هذا الزمانِ في كثيرٍ من الأقطارِ يعيشون في عصرٍ يوشكُ أن تسودَ فيه الإباحيةُ ليجعلوا ارتكابَ الفواحشِ والموبقاتِ حاجاتٍ بدنيةً لا يعاقبُ عليها القانونُ مادامت محفوفةً بالتراضي. ومما يكشفُ ذوبان الهمةِ وموتَ الإنسانيةِ حين يشاهدُ رجلٌ ينقادُ للبهيميَّةِ فيأتي الفاحشةَ ويعانقُ الرذيلةَ، ويشتدُّ الخزيُ ويعظمُ الشنارُ حين لا يكونُ مستوراً عن أعينِ الشاهدين والمشاهدين؛ إنها حضارةُ البهائِم في تلك الديارِ بحدائِقها ومتنزهاتِها وشواطئِها وأفلامِها وقنواتِها.

من أجلِ هذا أيها الإخوةُ: فهذا حديثٌ عن جريمةٍ من أبشعِ الجرائمِ، وفاحشةٍ من أكبرِ الفواحشِ، وموبقةٍ من أخطرِ الموبقاتِ، تتجلىٰ فيها هذه البهيميةُ المغرقةُ. جريمةٌ تُفْقِدُ الشهامةَ، وتَذْهبُ بالمروءةِ، يَحِلُّ مكانَ العفافِ فيها الفجورُ، وتقومُ فيها الخلاعةُ مقامَ الحِشمةِ، وتَطْرُدُ فيه الوقاحةُ جمالَ

---

(١) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ١٤٠).

الحياءِ. إنها جريمةُ الزنا؛ كم جرَّعتْ من غصةٍ، وكم أزالتْ من نعمةٍ، وكم جلبَتْ من نقمةٍ، وكم خبأتْ لأهلِها من آلامٍ منتظرةٍ، وغمومٍ متوقعةٍ، وهمومٍ مستقبلةٍ.

«العينان تزنيان وزناهما النظرُ، والأذنان تزنيان وزناهما السماعُ، والفمُ يزني وزناه الكلامُ والقُبَلُ، واليدُ تزني وزناها البطشُ، والرِّجْلُ تزني وزناها الخُطىٰ، والقلبُ يهوي ويتمنَّىٰ، والفرجُ يُصدِّقُ ذلك أو يكذبُه»(١).

أيها الأخوةُ: الإسلامُ يقفُ من هذه الجريمةِ موقفَ حزم وحسمٍ، وصراحةٍ وصرامةٍ؛ إنه يمتدحُ الشهمَ الكريمَ الذي يغارُ على نفسِه ويغارُ على حرماتِه، ويُندِدُ بالديوثِ الذميمِ الذي يقرُّ الخبثَ في أهلِه. لتبقىٰ الأعراضُ مصونةً، والشرفُ موفوراً عزيزاً.

لقد اقترن حالُ الزاني بحالِ المشركِ في كتابِ اللهِ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور: ٣].

الزنا محرمٌ بقواطعِ الأدلةِ؛ في محكمِ القرآنِ وصحيحِ السنةِ وإجماعِ أهلِ الملةِ بل إجماعِ أهلِ المللِ.

إنه قرينٌ لأعظمِ موبقتين الشركِ باللهِ وقتلِ النفس: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٢٨ ـ ح٦٢٤٣)، ومسلم (٤/٢٠٤٧ ـ ح٢٦٥٧) واللفظ له.

يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا . . ﴾

[الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

يقولُ الإمامُ أحمدُ: لا أعلمُ بعد القتلِ ذنباً أعظمَ من الزنا. واللهُ سبحانه في محكمِ تنزيلِه نهى عن قربِه والدنوِّ منه مما يعني البعدَ عن بواعثِه ومقدماتِه ودواعيه ومثيراتِه فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]. قال أهلُ العلم: (ولا تقربوا الزنىٰ (هذا قبحٌ شرعيٌ؛ (إنه كان فاحشة) وهذا قبحٌ عقليٌ (وساء سبيلا) وهذا قبحٌ عادي. قالوا: وما جمع ذنبٌ هذه الوجوه من القبحِ إلا وقد بلغ الغايةَ فيها.

أيها الإخوةُ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ**»[1]. بهذا صحَّ الخبرُ عن نبيِّكم محمدٍ ﷺ. زاد النسائي في روايةٍ: «**فإذا فعلَ ذلك خلعَ ربقةَ الإسلام من عنقهِ فإن تابَ تابَ اللهُ عليه**»[2]. وفي روايةِ البزارِ: «**والإيمانُ أكرمُ على اللهِ من ذلك**»[3].

وفي خبرٍ عند أبي داودَ والترمذيِّ والبيهقي: «**إذا زنىٰ العبدُ خرجَ منه الإيمانِ فكان كالظُّلةِ على رأسِه، ثم إذا أقلعَ رجعَ إليه الإيمانُ**»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/١١٦ ـ ح٦٨٠٩، ٦٨١٠)، ومسلم (١/٧٦ ـ ح٥٧).

(٢) أخرجه النسائي (٨/٦٥).

(٣) رواه البزار وفيه إسرائيل وثقه يحي بن معين وضعفه الناس. انظر مجمع الزوائد (١/١٠١).

(٤) أخرجه أبوداود (٤/٢٢٢ـ ح٤٦٩٠)، والحاكم (١/٢٢) وقال: حديث =

وفي صحيح البخاريِّ في حديثِ المنامِ الطويلِ وفيه أنه عليه الصلاةُ والسلامُ جاءه جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلامُ قال: **«فانطلقنا فأتينا على مثلِ التنورِ؛ أعلاه ضيقٌ وأسفلُه واسعٌ فيه لَغَطٌ وأصواتٌ؛ قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ فإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك ضَوْضَوُا ـ أي صاحوا من شدةِ الحرِّ ـ فقلتُ: من هؤلاءِ يا جبريل؟؟ قال: هؤلاء الزناةُ والزواني»**[1] فهذا عذابُهم إلى يومِ القيامةِ عياذاً باللهِ.

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ في كتاب الزهدِ عن عيس عليه السلامُ: لا يكونُ البطالونَ حكماءَ، ولا يلجُ الزناةُ ملكوتَ السماءِ. وفي جهنمَ نهرٌ يقالُ له نهرُ الغُوُطةِ يجري من فروجِ الموسساتِ يؤذي أهلَ النارِ ريحُ فروجِهم. وأخرجَ الخرائطيُّ وغيرُهُ مرفوعاً: المقيمُ على الزنا كعابدِ وثنٍ. قال أهل العلمِ ويؤيدُه ما صحَّ من أن مدمنَ الخمرِ إذا ماتَ لقيَ اللهَ كعابدِ وثنٍ؛ قالوا ولا شك أن الزنا أشدُّ وأعظمُ عند اللهِ من شربِ الخمرِ.

الزنا يجمعُ خلالَ الشرِّ كلَّها، قلةَ دينٍ، وذهابَ ورعٍ، وفسادَ مروءةٍ. الغدرُ والكذبُ شعارُه، وقلةُ الحياءِ والخيانةِ دثارُه، وعدمُ المراقبةِ مسلكُه، وضعفُ الأنفةِ دَيْدنُه، وذهابُ الغيرةِ من القلبِ بليَّتُهُ.

ناهيكَ بغضبِ الربِّ وفسادِ الحُرُمِ والعيالِ، وفضائحِ زنا، وقبائحِ خنا، تذهبُ اللذاتُ وتبقىٰ الحسراتُ.

= صحيح ووافقه الذهبي والترمذي تعليقا (٥/ ١٧).

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٥٧ ـ ح٧٠٤٧)، وأحمد (٥/ ٨).

الزنا انتكاسةٌ حيوانيةٌ، وارتكاسةٌ بهيميةُ، تذهبُ بمعاني الأسرةِ ومشاعرِ الإنسانيةِ الراقيةِ، يُطيحُ بكلِّ أهدافِ السموِّ الأسريِّ، وعلاقاتِ الرحمِ وأواصرِ القُربىٰ، تردُّ ابنَ آدمَ المكرمَ إلى مسخٍ حيوانيٍّ سافلٍ. مسخٍ كلُّ همِّه إرواءُ جَوْعةِ اللحمِ والدمِ في لحظةٍ عابرةٍ وشهوةٍ عارمةٍ ونزوةٍ حيوانيةٍ بحتةٍ.

جريمةُ الزنا في المجتمعاتِ الطاهرةِ تتعدىٰ في سُوْئِها وسَوْءَتها إلى الأسرتين، وتجلبُ مآسي للفئتين.

الزنى نذيرُ رعبٍ وفزعٍ في فشوِّ الأمراضِ، ونزعِ البركاتِ، وردِّ الدعاءِ. الزهريُّ والسيلانُ من أمْراضِه، والهربسُ والإيدزُ من أوبئتِه، في أمراضٍ يرسلُها اللهُ لمن تكنْ في الأسلافِ، مما يعلمون ومما لا يعلمون.

نعم أيها الإخوةُ: انظروا في أحوالِ المأفونين من أهلِ هذه الحضارةِ والمغرورين بها، لقد أطلقوا لشواتِهم العنانَ، استباحوا كلَّ ممنوعٍ. ونبشوا كلَّ مدفونٍ، وكشفوا كلَّ مستورٍ. تنصلوا من مسؤلياتِ العائلةِ، وجَرَوْا خلفَ كلِّ متهتكةٍ وفاجرٍ. هل أدىٰ بهم ذلك إلى تهذيبِ الدوافعِ كما يقولون؟ وهل أنقذَهم من الكبتِ كما يزعمون؟؟ لقد انتهىٰ بهم إلى سعارٍ مجنونٍ لا يهدأ ولا يرتوي. لقد قلَّ نسلُهم، وتوقَّفَ نمُّوهم مما يُنذرُ بفنائِهم. لقد قلَّ نسلُهم لأنهم قضوا شهواتِهم بغيرِ الطريقِ المشروعِ، وتهربوا من المسؤوليةِ، وتبرأوا من سياجِ الأسرةِ. الحلالُ عندَهم لا يفترقُ عن الحرامِ. لا يغارون على محارمَ، ولا يشمئزون من فواحشَ. العلاقاتُ عندهم معزولةٌ عن الخلقِ والروحِ والدينِ

والعبادةِ. لقد كان حفياً عندهم استقبالِ الآلافِ المؤلفةِ من اللقطاءِ وأولادِ التَبني، لا يسألون من أين جاءوا، ولا يكترثون بالآثارِ الاجتماعيةِ التي يُخلِّفها من لا آباءَ لهم ولا أمهاتٍ، وهم يزعمون أنهم أربابُ العلومِ والمعارفِ.

بلىٰ إنهم عبيدٌ لفنونِ الإثاراتِ والتذوقِ التي يُروجها الإباحيون البهيميون، يدفعون إليها الذكورَ والإناثَ دفعاً خبيثاً في اختلاط مهلكٍ، وإعلامٍ فاضحٍ في رواياتِه ومسلسلاتِه مما ينضحُ فُحشاً وخلاعةً وتهتكاً ليس وراءه إلا لقاء البهائمِ.

إن أهلَ الإسلامِ يرفضون بحسمٍ وحزمٍ كلَّ هذه المظاهرِ والنتائج؛ فالزنا فاحشةٌ موبقةٌ، وكبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، توصدُ كلُّ الأبوابِ المفضيةِ إليها. ويعاقبُ على وقوعِها بالجلدِ والتغريبِ للبكرِ، والقتلِ للثيبِ بالرجمِ. الأسرةُ وحدَها هي الملتقىٰ المشروعُ لأشرافِ الناسِ وكِرامِ بني آدم.

المجتمعُ المسلمُ الطاهرُ يمقتُ الزنا، ويمقتُ مقدماتِه، وينكرُ بواعثَهُ ودواعيَهُ، ليس فيه إلا علاقاتٌ طاهرةٌ على أساسٍ من أحكامِ الشرعِ والمشاعرِ الإنسانيةِ الراقيةِ؛ يلتقي عليها قلبان وروحان وإنسانان، وليس متعتين مجردتين، وجسدين متباعدين؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦].

لقد قطعتْ شريعتُنا دابرَ هذه الجريمةِ، ووضعتْ لها جزاءً حاسماً في صرامةٍ جادةٍ، وحذَّرتْ من الرأفةِ بالفاعلين، وزجرتْ عن تعطيلِ الحدِّ أو الترفقِ في إقامتِه؛ بل أمرتْ بإقامتِه في محضرٍ

مشهودٍ في طائفةٍ من المؤمنين: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢].

ولقد علمَ اللهُ والمؤمنون أن الدماءَ لا تحفظُ، والأموالَ لا تصانُ، والأعراضَ لا تحترمُ، والبلادَ لا تصلحُ، والعبادَ لا تستقيمُ، والأمنَ لا يسودُ إلا بإقامةِ الحدودِ وقطعِ الأكفِّ الآثمةِ وسدِّ الأفواه الأفَّاكةِ. حدودُ اللهِ شُرعتْ لتحفظَ النفوسَ من التعدياتِ الآثمةِ والنزواتِ الطائشةِ.

الزاني المحصنُ إذا ثبتَ زناه استبيحُ دمُه فكان قريناً لتاركِ دينِه وقاتلِ النفس: «**لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلمٍ إلا بإحدىٰ ثلاثٍ؛ الثيبِ الزاني، والنَفس بالنفس، والتاركِ لدينِه المفارقِ للجماعةِ**»[1]. الله أكبرُ أيها المسلمون وهل رأيتم أكبرَ من هذه الجرائمِ الثلاثِ؟؟.

أليسَ من السرِّ الذي يَلفتُ نظرَ العقلاءِ أن دينَ الإسلام وهو دينُ الرحمةِ والرأفةِ حتى مع الحيوانِ وقفَ هذا الموقفَ الشديدَ مع هؤلاءِ الزناةِ والزواني؟؟.

أليس هذا الدينُ الذي يحبُّ السَّتْرَ ويدعو إليه يقيمُ هذا الحدَّ على مشهدٍ من المؤمنين؟؟.

لماذا كلُّ ذلك أيها الإخوةُ؟؟: إن الرأفةَ بالزناةِ ممن ثبتَ زناهم وتحقَّقتْ جنايتُهم إنما هي قسوةٌ على المجتمعِ، وقسوةٌ على الآدابِ الإنسانيةِ، وقسوةٍ على الضميرِ البشريِّ، بل قسوةٌ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٢٠٩ ـ ح٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢ ـ ح١٦٧٦).

علـى حقـوقِ الإنسـانِ؟ إن القسـوةَ فـي الحـدِّ أرأفُ ثـمَ أرأفُ بالمجتمعِ مما ينتظرُهُ من شيوعِ الفواحشِ لتَفْسُدَ الفطرةُ وترتكسَ في حمأةِ الرذيلةِ ويعيشَ في بيئةِ الأدواءِ والأمراضِ.

نعم إن الحدودَ جلدٌ وقتلٌ وقطعٌ فلتشمئزَّ نفوسُ الذين لا يؤمنون باللهِ ولا باليومِ الآخرِ، ولتغِظْ صدورُ الذين لا يرضون بحكمِ اللهِ.

تباً لهم لقد قالوا: إن إقامةِ الحدودِ غلظةٌ وقسوةٌ ووحشيةٌ لا تليقُ بحضارةِ اليومِ، ويحهم ماذا فعلوا بالأبرياءِ؟؟ وما هو مصيرُ الضعفاءِ؟ ألم ينسفوا بمخترعاتِهم الجهنميةِ مُدناً آمنةً؟ ألم يدكُّوا عواصمَ عامرةً تعجُّ بالألوفِ والملايين لا ذنبَ لهم ولا خطيئةَ سوىٰ الظلم والهمجيةِ. فيالوحشيةَ هذا المتحضرِ؟؟ ويالخرابَ هذا المتنوِّرِ؟؟ هل علومُهم ومعارفُهم أتتْ بكلِّ هذه البلايا؟.

وبعـدُ أيهـا الإخـوةُ: فلـوا حُفظـتْ شـريعـةُ اللهِ فـي كـلِّ بـلادِ المسلمين، وأقيمتْ حدودُ اللهِ، وحيلَ بين الذين يتعدُّونها لما رأيتَ في كثيرٍ من البلادِ مظاهرَ السقوطِ في الحضيضِ، ولما تغيرَ عليهم ما تغيرَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا﴾ [الرعد: ١١].

ألم يعلموا أن حفظَ الفروجِ سبيلٌ للفرجِ في الدنيا والتوفيقِ في المسيرةِ؟؟؟ واذكروا إن شئتم قصةَ صاحبَ الغارِ حين فرَّجَ اللهُ عليه بعفتِه عن الحرامِ. ألـم يعلمـوا أن حفظَ الشهواتِ سبيلٌ للاستظلالِ بظلِّ الرحمنِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه؟؟ واذكروا ذلك العفيفَ الذي دعتْه ذاتُ الحسنُ والجمالِ فاعتصم بخوفِه من اللهِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

[النور: ٢٦].

جريمة الزنا

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصدورُ، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وهو الحليم الشكورُ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه الشافعُ المشفعُ يومَ النشورِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقبَ الظلامُ والنورُ.

أما بعدُ: أيها المسلمون: الإسلامُ لا يحاربُ دوافعَ الفطرةِ، ولا يلغي الوظائفَ التي ركبَّهَا اللهُ في الإنسانِ، ولا يكبتُ الغرائزَ ولا يستقذرُها، ولكنه يهذِّبُها وينظمُها ويسيِّرُها في مسالكِ الطهرِ، ويرفعُها من مستوىٰ الحيوانيةِ المحضةِ لتصبحَ محوراً تدورُ عليه الآدابُ النفسيةُ والاجتماعيةُ. إنه يحاربُ الحياةَ البهيميةَ الساقطةَ التي لا تقيمُ بيتاً، ولا تبني أسرةً، ولا تنشىءُ حياةً كريمةً ومجتمعاً طاهراً.

إن الإسلامَ يقصدُ إلى حياةٍ أسريةٍ كريمةٍ محترمةٍ تشتركُ فيها الآمالُ والآلامُ، ويؤخذُ بها حسابُ الحاضرِ والمستقبلِ. محضنٌ لذريةٍ صالحةٍ ومنشأٌ لجيلٍ طاهرٍ، فيه الأبوانِ حارسان أمينانِ لا يفترقان.

هذا المجتمعُ الكريمُ النابتُ في تعاليمِ الإسلام يتميزُ بآدابِه، ويلتزمُ بأحكامِه، هذا المجتمعُ يجعلُ جريمةَ الزنا قصيَّةً في ركنٍ

لا يَطالُها إلا فئاتٌ شاذةٌ لا يُؤْبَهُ بها.

إن الذي يكبحُ هذه الجريمةَ، ويضيِّق دائرتَها هي كلُّ الإسلامِ بأحكامِه وآدابِه وعقائِده بدءاً من الإيمانِ باللهِ وخشيتِه وتقواه وحسنِ مراقبتِه سبحانه، ثم تنقيةُ المجتمعِ من بواعثِ الفتنِ، ومواطنِ الرِّيبِ؛ التزامٌ للملابسِ السابغةِ المحتشمةِ التي تكرم ابن آدمَ وتحميه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩] أدبُ غضِّ البصرِ، وكفُّ العيونِ الخائنةِ من البحثِ عن العوراتِ ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ..﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

تحريم الخلوةِ بين الرجلِ والمرأةِ غيرِ ذاتِ المحرم طهارةٌ لقلوبِهم وقلوبِهن. ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣] **«ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلا وكان ثالثُهما الشيطانَ»**(١)، و**«لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أن تسافرَ إلا مع زوجٍ أو ذي محرمٍ»**(٢).

المباعدةُ بين مجالسِ الرجالِ ومجالسِ النساءِ حتى في المساجدِ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٠٤ ـ ح٢١٦٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (٣/ ٤٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٦٥٩ ـ ح١٠٨٨)، ومسلم (٢/ ٩٧٥ ـ ح١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠).

دورِ العبادةِ فللرجال صفوفُهم وللنساءِ صفوفُهن.

منعُ الاختلاطِ المحرمِ في التعليم والعملِ وكلِّ مجالٍ يقودُ إلى الفتنة، تيسيرُ سبلِ الزواجِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢] التزام آدابِ الاستئذانِ والاستئناسِ حتى لا تقعَ على عوراتٍ أو تلتقي بمفاتنَ.

ومن أعظم الآدابِ في هذا البابِ الكفُّ عن إشاعةِ الفاحشةِ في المؤمنين ومحبةِ ذلك والرغبةِ فيه عياذاً بالله. إذا انتشرَ بين الأمةِ الحديثُ عن الفواحشِ ووقوعِها فإن الخواطرَ تتذكرُها ويخفُّ على الأسماع وقعُها، ومن ثَمَّ يَدبُّ إلى النفوس التهاونُ بوقوعِها ولا تلبثُ النفوسُ الضعيفةُ والخبيثةُ أن تُقْدِمَ على اقترافِها ولا تزالُ تتكررُ حتى تصيرَ متداولةً. وانظر إلى ما تفعلُه كثيرٌ من وسائلِ الإعلام في الناس والنفوس. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [النور: ١٩].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ واستمسكوا بدينِكم، والزموا آدابه وحدودَه، عبوديةً خالصةً، وسلوكاً لمسالكِ الطهرِ والعفةِ يصلحْ الفردُ كما يصلحْ المجتمعُ، فتسعدوا في الدنيا، وتسلموا وتفوزوا في الآخرةِ وتفلحوا، ثم صلوا وسلموا على نبيكم نبي الرحمة والهدى فقد أمركم ربكم جل وعلا فقال عز قائلا عليما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صلى وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأزواجه وذريته.

حق الصديق وآداب الصحبة

الخطبة الأولى

الحمد للهِ الواحدِ المعبودِ. عمَّ بحكمتِه الوجودَ، وشمِلتْ رحمتُه كلَّ موجودٍ. أحمدُه سبحانه وأشكرُه وهو بكلِّ لسانٍ محمودٌ. وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه صاحبُ المقامِ المحمودِ، والحوضِ الموروِدِ. صلى اللهُ وسلمَ وباركَ عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياءِ الركع السجودِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى اليومِ الموعودِ.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد أمركم ربُّكم بالتقوىٰ، واستمسكوا من حبلِه المتينِ بالعروةِ الوثقىٰ، واخشوه وراقبوه فهو يعلمُ السرَّ وأخفىٰ.

أيها المسلمون: شؤونُ الأممِ شتىٰ. ومن أعزِّ شؤونها مكارمُ الأخلاقِ. وحقوقُ الناسِ عظمىٰ، ومن أعظمِها القيامُ على محاسنِ الآدابِ.

الأخلاقُ ذاتُ أثرٍ جليٍّ في صلاحِ أمرِ الشعوبِ وانتظامِ أحوالِها، والتعاملُ الحسنُ بينَ الناسِ دِعامةٌ كبرىٰ من دعاماتِ السعادةِ وراحةِ البالِ.

الأخلاقُ الحسنةُ لا تنبعُ إلا من نفوسٍ طيبةٍ وطبائعَ كريمةٍ تميِّزُ

بين الأدبِ والملقِ، والصدقِ والكذبِ، والحقِّ والباطلِ.

ورسالاتُ أنبياءِ الله عليهم الصلاةُ والسلامُ لها نصيبٌ وافرٌ من الاهتمامِ بالأخلاقِ وتزكيةِ النفوسِ، والدعوةِ إلى الاستمساكِ بمحاسنِ الآدابِ.

وقد وصفَ اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

والأخلاقُ الفاضلةُ مقرونةٌ بأدبِ المعاملةِ وحسنِ السلوكِ. أدبٌ رفيعٌ وتعاملٌ حسنٌ يقومُ على التمييزِ والفهمِ، والكياسةِ والفطنةِ، والذوقِ السليمِ، وتقديرِ المناسباتِ، وملاءمةِ الظروفِ.

والبيئةُ التي ينشأُ فيها المرءُ لها أثرٌ كبيرٌ في تحديدِ السلوكِ وتهذيبه؛ فبيئةُ الفسقِ والظلمِ والجهلِ والفقرِ والمرضِ يختلفُ سلوكُ أهلِها عن سلوك بيئةِ الصلاحِ والعلمِ وحسنِ المعيشةِ والصحةِ وطهارةِ المجتمعِ حتى قيلَ: إن الجهالَ يجيزون ما لا يجوزُ لأنهم لا يدركون وجه الضررِ فيما يأتون. وأهلُ التهذيبِ والإيمانِ من عبادِ الرحمنِ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

بل إن العباداتِ على جلالةِ قدرِها وعظمِ أثرِها شُرعتْ مرتبطةً بآدابٍ مطلوبٌ التزامُها ورعايتُها؛ فمن آدابِ الصلاةِ التطهرُ في

الثوبِ والبدنِ والبقعةِ، والمشيُ إليها، بالسكينةِ والوقارِ ولزومِ الخشوعِ والقنوتِ. وللزكاةِ آدابُها في حقِّ المعطي والآخذِ ولا تنسىٰ آدابَ الصيامِ والحجِّ. وآدابَ التعاملِ في برِّ الوالدين وصلةِ الأرحامِ وحقوقِ الأصدقاءِ والأصحابِ.

ولقد قال ربُّكم في محكم تنزيلِه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦]. فياتُرىٰ هل تختلفُ التحيةُ باختلافِ المستوياتِ بين الذي يحيِّ بعضُهم بعضا؟؟ ما بين تحيةِ السلطانِ وتحيةِ العالمِ وتحيةِ الوالدِ وتحيةِ ذي الشيبةِ الكبيرِ وتحيةِ عابرِ السبيلِ. لَعلَّ للأدبِ والفروقِ هنا مدخلاً، ولرعايةِ الأوضاعِ والأحوالِ تعبيراً.

إن الأدبَ هو القالبُ الذي تقدَّمُ به الأخلاقُ، وهو المسلكُ الذي يسيرُ عليه المرءُ في تصرفاتِه الشخصيةِ وتعاملِه مع الناس. يقولُ الشعبيُّ رحمه اللهُ: الأدبُ أكرمُ الجواهرِ طبيعةً. يرفَعُ الأحسابُ الوضيعةَ. فالبسوه حلةً، وتزينوا به حِليةً، فهو للفقيرِ مالٌ، وللغنيِّ جمالٌ، وللحكيمِ كمالٌ. والمرءُ بفضيلتِه لا بفصيلتِه، وبكمالِه لا بجمالِه، وبآدَابِه لا بثيابِه.

ولكي يتجلىٰ هذا الأمرُ ويستبين ـ أيها الإخوةُ ـ فهذا عرضٌ لجانبٍ تطبيقيٍّ لا يكادُ ينفكُّ عنه أحدٌ من البشرِ، بل إنه مظهرٌ من مظاهرِ امتحانِ الأخلاقِ، واختبارِ الأدبِ، وفحصِ حسنِ التعاملِ مع النفسِ ومع الغيرِ.

إنه حديثُ الصحبةِ والصداقةِ وحسنِ اختيارِها وكيفيةِ أداءِ حقوقِها وحفظِ واجباتِها.

الصحبةُ والصداقةُ عاطفةٌ ساميةُ القدرِ، ونعمةٌ غزيرةُ المآثرِ. وفي شرعِنا المطهرِ ترغيبٌ في أن تكون المعاملةُ بين أهلِ الإسلام معاملةَ أخوةٍ، وعلاقةَ محبةٍ، ورابطةَ صداقةٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. «**والمسلم أخو المسلم**»(١) وتترقىٰ الأخوةُ بين المسلمين حتى يحبَّ المسلمُ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ثم تترقىٰ حتى يؤثرَ أخاه على نفسه ولو كان به حاجةٌ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وفي حديثٍ صحيح الاسناد: «**خير الأصحاب عند اللهِ خيرهم لصاحبه**»(٢). ولقاءُ الإخوانِ جلاءُ الأحزانِ، والرجلُ يسعدُ بمصاحبةِ السعيدِ. ويقولُ عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه: إذا رزقك اللهُ مودةَ امرىءٍ مسلمٍ فتشبَّثْ بها. وقالتْ الحكماءُ: أعجزُ الناسِ من فرَّط في طلبِ الإخوانِ. وأعجزُ منه من ضيَّعَ من ظفِرَ به منهم. ومن ذا الذي يعيشُ من غير أصدقاءَ وأصحابٍ يشاطرونَه أفراحَه ويشاركونه أتراحَه. ففي الصداقةِ ابتهاجُ القلبِ عند اللقاءِ، ولذةُ النفسِ حين المحادثةِ. والمرءُ إذا كثرتْ أصدقاؤُه كانت ألسنتُهم داحضَةً لما يُرمىٰ به من مزاعمَ، وأيديهم واقيةً له من الأذىٰ. وما يُدفعَ

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري (٥/١١٦ ـ ح٢٤٤٢)، ومسلم (٤/١٩٨٦ ـ ح٢٥٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٩٤ ـ ح١٩٤٤) وقال: حديث حسن غريب، والدارمي (٢/ ٢١٥)، والحاكم (٤/ ١٦٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأحمد (٢/ ١٦٨).

الحسدُ والعدوانُ بمثلِ الاستكثارِ من الأصدقاءِ. فهم عمادٌ إذا استنجدتَّهم ، وظهورٌ إذا احتجتَهم.

والصديقُ قد يبلغُ من المنزلةِ ما لا يبلغُه القريبُ. ولقد قال المجرمون في أشدِّ ساعاتِ الكربِ: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١] قال الأقدمون: ربَّ أخٍ لكَ لم تلدْه أمُّك. وسُئِلَ خالدُ بنُ صفوانَ: أخوك أحبُّ إليك أم صديقُك؟ فقال: إن إخي إذا كان غيرَ صديقٍ لم أحبَّه.

وقد ذكرَ أهلُ العلمِ والأدبِ جملةً من النعوتِ والأوصافِ، والآدابِ والخلالِ يُعرَفُ بها الأصحابُ في حسنِ مناقبِهم، والخلانُ في مستحسنِ مذاهبِهم. يجملُ بالمرءِ أن يعرفَها ويعرضَ آدبَه وحسنَ خلِقه كما يختبر بها الناسَ في مسالِكهم وتعاملِهم.

وأولُ ذلك إدراكُ أن الصاحبَ رقعةُ الثوبِ فلينظرْ الإنسانُ بم يرقعُ ثوبَه. ولقد جسَّدَ ذلكَ نبيُّكم محمدٌ ﷺ بقولِه: «**الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يخالِلُ**»[1] أخرجه أبوداود باسنادٍ صحيحٍ من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه.

وعند أبي داود والترمذي بسندٍ لابأس به: «**لا تصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكلْ طعامكَ إلا تقيٌّ**»[2]. فميزانُ الإنسانِ أصدقاؤُه

---

(١) أخرجه أبوداود (٤/٢٥٩ ـ ح٤٨٣٣)، والترمذي (٤/٥٠٩ ـ ح٢٣٧٨) وقال: حسن غريب، وأحمد (٢/٣٠٣، ٣٣٤) ولفظه «المرء على دين. . . »الحديث.

(٢) أخرجه أبوداود (٤/٢٥٩ ـ ح٤٨٣٢)، والترمذي (٤/٥١٩ ـ ح٢٣٩٥) وقال: حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه، وأحمد (٣/٣٨)، =

فمن صاحبَ الفساقَ والمبتدعةَ تسابقتْ إليه الظنونُ، أنه راضٍ عن الابتداعِ غيرُ متحرجٍ من الفسوقِ. وقاعدةُ المحبةِ وبناؤُها، وحفظُها وصيانتُها أن تحبَّ في اللهِ وتبغضَ في اللهِ، فولايةُ اللهِ لا تنالُ إلا بذلك، ومن صارتْ مؤاخاتُه لأمرِ الدنيا فلن يغنيَه ذلك شيئاً.

وقد قال بعضُ السلفِ: ما كنتُ لأقولَ لرجلٍ إني أحبُّك في اللهِ فأمنعُه شيئاً من الدنيا. وقال بعضُهم: إن لا أستحي من اللهِ أن أسألَ الجنةَ لأخٍ من إخواني ثم أبخلَ عنه بدينارٍ أو درهمٍ.

فإذا ما صاحبتَ قوماً فاصحبْ منهم الأخيارِ أولي التقىٰ ولا تصحبُ فيهم الأردىٰ. وإخوانُ الثقاتِ هم الذخائرُ من الصالحين وأهلِ المروءةِ والورعِ والعلمِ والأدبِ. وذو الحظِّ العظيمِ من يُخالطُ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ويجانبُ أهلَ الشرِّ والمعصيةِ والبدعةِ.

صحبةٌ تضمُّ مجموعةً من الفضلاءِ ونخبةً من النبلاءِ، تجدُ الصداقةُ فيهم قلوباً طيبةً ونفوساً منشرحةً، تُنْبتُ نباتاً حسناً، وتُثمرُ ثمراً يانعاً. إخوانٌ وأصحابٌ بهم ـ بإذن اللهِ ـ يُفتحُ عسرُ الأغلاقِ، ويتألفُ متنافرُ الأخلاقِ. لا يطمعُ في عيبِهم عائبٌ، ولا يقدرِ على مثالِبهم طالبٌ. الواحدُ منهم حاملُ مسكٍ يَهديكَ إلى الحقِّ، ويدلكُ على الخيرِ، لا ترىٰ منه إلا المحامدَ والمكارمَ.

= والحاكم (١٢٨/٤) وقال: صحيح الاسناد ووافقه الذهبي.

من جميلِ أخلاقِهم السائدةِ فيما بينهم: البشاشةُ إذا تراءوا، والمصافحةُ إذا تلاقوا. يأخذون بحسنُ الحديثِ إذا تحدثُوا، وحسنِ الاستماعِ إذا حُدِّثوا، وبأيسرِ المؤنةِ إذا خُولفوا، تاركين مجاوبةَ اللئيمِ، ومماراةَ السفيهِ، ومنازعةَ اللَّحوحِ، ومخاصمةَ اللَّجوجِ.

إن من نعمِ اللهِ على عبدِه في دنياه أن يهبَه صديقاً مخلصاً لطيفَ القولِ، واسعَ العلمِ، قليلَ المخالفةِ، كثيرَ الموافقةِ، عظيمَ المساعدةِ، كتومَ السرِّ، كثيرَ البرِّ، صادقَ الأمانةِ، مأمونَ الخيانةِ، كريمَ النفسِ، حسنَ الاعتقادِ، صادقَ الودادِ، سهل الانقيادِ، واسعَ الصدرِ، جميلَ الصبرِ، باذلَ النصحيةِ، ساترَ القبيحةِ. إن غبتَ عنه عذركَ، وإن جئتَ إليه قَبلكَ، لا ينِمُّ بسريرةٍ، ولا يُظهرُ خبيئةً، لا يضربُ بين اثنين، ولا يُفسدُ بين خليلين، لا يتحلىٰ بالكذبِ، ولا يستهدفُ للرِّيَبِ، ولا يجاهرُ بالنقائصِ. لا يسألُ عما وُري عنه، ولا يتكلمُ فيما حُجبَ عنه، لا يدخلُ على أحدٍ في حديثِه، ولا يتطلعُ على قارىءٍ في كتابِه، ولا يقطعُ على متكلمٍ كلامَه. يجمعُ بين طلاقةِ الوجهِ، وحُسنِ التوددِ، وقضاءِ الحوائجِ. إن لقي صديقَك استزادَه لك، وإن لقي عدوَّك كفَّه عنك. لا تُخْشىٰ بوائِقهُ، ولا تختلفُ طرائقُه.

هؤلاء هم إخوانُ الودِّ والصفاءِ، والبرِّ والوفاءِ، يتبادلون النكتَ المِلاحَ، بألفاظٍ مهذبةٍ صحاحٍ، يتعطفون بها القلوبَ، ويسترون بها العيوبَ، ويستقيلون بها العثراتِ، ويستدركون بها الهفواتِ، لهم رقةٌ في الطبعِ، وملاحظةٌ في الأمورِ، وحسنُ مداراةٍ، وجميلُ ترفُّقٍ. يوردون الأمورَ مواردَها ويُصدرونها مصادرَها.

هذه نعوتٌ وصفاتٌ إذا ظفرتَ بها او بكثيرٍ منها في صاحبِك فاحفظْ ودَّه، وارعَ حقَّه، وقمْ على مصالحِه، وحافظْ على محبتِه، بادرْه بالسلامِ، وادعُهُ بأحبِّ الأسماءِ إليه. إذا دنا رحبتَ به، وإذا جلسَ وسعتَ له، وإذا حدَّثَ أقبلتَ عليه. وإذا غابَ دعوتَ له وحفظتَه في أهلِه. إن كان شاهداً زرتَه، وإن كان مريضاً عدتَه.

يقولُ أبوحنيفةَ رحمه الله: من مرضَ من إخوانِك فعدْه بنفسِك، وتعاهدْه برسُلِك، ومن قعدَ منهم فلا تقعدْ عنه.

وسُئلَ بعضُ الحكماءِ: من أضيقُ الناسِ طريقاً وأقلُّهم صديقاً؟ قال: من عاشرَ الناسَ بعُبوسِ وجهِه، واستطالَ عليهم بثقلِ نفسِه. وماتزيَّنَ رجلٌ بزينةٍ أفضلَ من عفافِ بطنِه.

إنها تصرفاتٌ وآدابٌ تقومُ على اللباقةِ واللياقةِ وجمالِ الذوقِ ولُطفِ التهذيبِ. ولقد علم الباحثون في طبائعِ البشرِ ودلتهم التجاربُ وصروفُ الحياةِ أن الصديقَ ولو بلغتْ صداقتُه المنتهىٰ قد يظهرُ من أمرِه ما لا يلائمُ صلةَ الصداقةِ، فلو أخذتَ تهجرُ من إخوانِك كلَّ من صدرتْ منه هفوةٌ أو بدرتْ منه زلةٌ لم تلبثْ أن تفقدَهم جميعاً، ولا يبقىٰ لك على ظهرِ الأرضِ صديقٌ غيرَ نفسِك التي بين جنبيك؛ بل لعلك أن تتبرمَ منها وتضيقَ. ومن ذهبَ يتتبعُ عثراتِ إخوانِه فسوفَ يجدُها، ولن يسلمَ له بذلك في دهرِه صاحبٌ. ولكن عليك ألا يكن حبُّك كلَفاً، ولا غضبُك تلفاً، فشرطُ دوامِ الأُلفةِ تركُ التشددِ والكلفةِ، فلا تقطعْ أخاكَ على ارتيابٍ، ولا تهجرْه دون استعتابٍ. وقد سُئل معاويةُ رضي الله عنه: ما النذالةُ؟

قال: الجرأةُ على الصديقِ والنكولُ عن العدوِّ. وقال الأحنفُ بن قيس: حقُّ الصديقِ أن تحتملَ له ثلاثَ ظلاماتٍ: ظلمَ الغضبِ، وظلّمَ الدَّالَّة[1]، وظلمَ الهفوةِ. ومن تناسىٰ مساوىءَ الإخوانِ دام له ودُّهم. وكثرةُ العتابِ تورثُ البغضاءَ. على أن من المعلوم أن المعاتبةَ الرفيقةَ خيرٌ من خسرانِ الأصدقاءِ فظاهرُ العتابِ خيرٌ من باطنِ الحقدِ. ومن طرائِفهم ما حدَّث به محمدُ بنُ مناذرٍ قال: كنتُ أمشي مع الخليلِ بن أحمد فانقطعَ شِسعُ نعلي فخلعَ الخليلُ نعلَه، فقلتُ ما تصنعُ؟ قال: أواسيكَ في الحفاءِ.

وبعدُ أيها الإخوةُ: فلن يعرفَ الفتىٰ جميلَ مواهبِ الأصحابِ إلا بسلوكِ طرائقِ المروءةِ. وعلاقاتُ الأصحابِ لا يحفظُها ولا يوثِّقُها إلا الأمانةُ وتبادلُ الثقةِ وسموُّ الخلقِ. والأصحابُ لا ينالون ما يحبون إلا بالصبرِ على ما يكرهون، ولا يبلغون ما يَهوَوْن إلا بتركِ ما يشتهون. فأَحبُّوا هَوْناً، وأبغضوا هَوْناً؛ فقد فرطَ أقوامٌ في حبِّ أقوامٍ فهلكوا، وأفرطَ أقوامٌ في بُغضِ أقوامٍ فهلكوا. والناسُ أشكالٌ، وكلٌّ مع شاكلتِه؛ فالحمامُ مع الحمامِ، والغربانُ مع الغربانِ، والأصدقاءُ يعرفون من نظراتِ العيونِ وأساليبِ الخطابِ وحروفِ الرسائلِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) الدَّالَّة: الجرأة.

حق الصديق وآداب الصحبة

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ الذي غمرَ عبادَه بفضلِه وإنعامِه، وأصلحَ قلوبَهم وزكى نفوسَهم بشرائعِ الدينِ وأحكامِه. أحمده سبحانه وأشكره حمداً كثيراً طيباً مباركاً يدومُ بدوامِه. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه بلَّغ دينَ اللهِ في حلالِه وحرامِه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيُّها الناسُ اتقوا اللهَ وآمنوا برسولِه يؤتِكم كفلين من رحمتِه. وسابقوا بالأعمالِ الصالحةِ إلى مغفرةِ ربِّكم وجنتِه.

أيها المسلمون: من أراد أن يعرفَ أصحابَه فليتأملْ أحوالَ الثقلاءِ جلساءِ السوءِ فالضدُّ يظهرُ حسنَه الضدُّ. أولئك هم نافخو الكيرِ؛ ممن يضرُّ ولا ينفعُ، يعدي بأخلاقِه الرديئةِ، ويجلبُ البلاءَ بسيرتِه المذمومةِ، محركُ الفتنِ، وموقدُ نيرانِ الخصامِ؛ من النمامين والمغتابين، أهلِ شرٍّ وبدعٍ، أقوامٌ لا خلاقَ لهم؛ ممن يكثرُ فجورُه بلسانِه وجوارحِه. إذا حدَّثك كذبَك، وإذا ائتمنتَه خانك، وإذا ائتمنَك اتهمك، وإذا أنعمتَ عليه كفرَك، وإذا أنعمَ عليك منَّ عليك، مَلولٌ مذبذبٌ بين الرجال، ينتقلُ من واحدٍ لآخرٍ، يهتكُ استارَ السابقِ عند اللاحقِ، ولو كان فيه خيرٌ لأبقىٰ

مودةَ الجميعِ.

صاحبُ ملقٍ ونفاقٍ، إذا جفاكَ أو خاصمك استثارَ دفينَ حقدِه، واستخرجَ ضغائنَ صدرِه وتمنىٰ لك التلفَ والعطبَ. متقلبٌ متلونٌ، يعرفكُ في الرخاءِ، وينقلبُ عنك في الضراءِ. وصحبةٌ من لا يخافُ العارَ عارٌ. يقولُ عبدالله بن طاهرٍ: لا دواءَ لمن لا حياءَ له، ولا حياءَ لمن لا وفاءَ له، ولا وفاءَ لمن لا إخاءَ له. ومن أعجبته آراؤُه غلبتْه أعداؤُه. ومن كثرَ كلامُه كثرَ ملامُه.

وإذا ابتليتَ بمن لا خلاقَ له وثقلَ عليك بنفسِه، وغمَّك بحديثِه فأعرْه أذناً صماءَ، وعيناً عمياءَ. ومن سكتَ عن جاهلٍ فقد أوسعه جواباً وأوجعَه عتاباً. واعلم أنه لا راحةَ لحسودٍ، ولا إخاءَ لملولٍ ولا صداقةَ لسيءِ الخلقِ.

هذه حالُ الفريقين، وهذا مسلكُ النجدين وما أجملَ الحبَّ والصداقةَ وأحسنَ الصحبةِ حين يكونُ باعثُه بعدَ رباطِ العقيدةِ ما يلمسه كلُّ واحدٍ في صاحبِه من كمالِ النفسِ، وجمالِ الخلقِ ولطفِ الأدبِ.

في النظافة والتجمل

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ المحمودِ بكلِّ لسان، واسعِ الفضلِ والإحسانِ، أحمده سبحانه وأشكرُه حمداً وشكراً تُنالُ به مواهبُ الرضوان. وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ للثقلين الإنس والجانِّ، بلغ الرسالةِ وأضحَ المحجة حتى علا منارُ الحقِّ واستبان. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ذوي التقىٰ والإيمانِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فالسعيدُ من تدبر أمرَه، وأخذَ حذرَه، واستعد ليومٍ لا تنفعُ فيه عَبْرَةٌ.

أيها المسلمون: الإسلامُ دينُ الفطرةِ، تصلحُ له وتصلحُ به كلُّ الأزمنةِ وكلُّ الأمكنةِ. فهو دينُ العقيدةِ والشريعةِ، يعالجُ شؤونَ الحياةِ كلِّها في سلفيةٍ لا تتوقفُ عند عصرٍ بل تتجددُ لتعالجَ أوضاعَ كلِّ عصر، وتفتي في كلِّ شأنٍ، وتقضي في كلِّ أمرٍ.

دينٌ يجمعُ البشاشةَ في حياءٍ، وحسنَ الخلقِ في ابتسامةٍ، دينٌ يعترفُ بما للبشرِ من أشواقٍ قلبيةٍ، وحظوظٍ نفسيةٍ، وطبائعَ انسانيةٍ. لقد أقَرَّ الدينُ ما تتطلَّبه الفطرةُ من سرورٍ وفرحٍ، ولباس وزينةٍ، محاطٍ بسياجٍ من الأدبِ الرفيعِ يبلغُ بالمتعةِ كمالَهَا

ونقاءَها، وبالسرورِ غايتِه بعيداً عن الخنا والحرامِ، والظلمِ والعدوانِ، والغلِّ وإيغالِ الصدورِ.

ومتطلباتُ الفطرةِ هذه جاءت في دينِ الإسلام مصاحبةً ومرتبطةً وملازمةً للعنايةِ بإصلاح المعتقدِ وسلامةِ الباطنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥].

فتطهيرُ العقيدةِ وتنقيتُها من شوائِبِ الشركِ والبدعِ والمعاصي مقرونةٌ بتطهيرِ الظاهرِ في بدنِ الإنسانِ وثوبه وبقعتِه ليجمعَ المسلمُ بين النظافتين، ويحافظَ على الطهارتين.

فحين يجمِّل الدينُ بواطنَهم بالهدايةِ إلى الصراطِ المستقيمِ، فإنه يجمِّلُ ظواهَرهم في أحسنِ تقويم.

إذا كان ذلك كذلك ـ أيها الإخوة ـ فإن الأخذَ بالزينةِ، والقصدَ إلى التجملِ، والعنايةَ بالمظهرِ، والحرصَ على التنظفِ والتطهرِ من أصولِ الاصلاحِ الدينيةِ والمدنيةِ التي جاء بها دينُنا وتميَّزَ بها أتباعُه.

إن حبَّ الزينة والتزين من أقوى غرائزِ البشرِ الدافعةِ لهم إلى اظهارِ سننِ اللهِ في الخليقةِ.

ولقد امتن اللهُ على بني آدمَ كلِّهم بلبس الزينةِ حين قال عزَّ شأنُه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

يقولُ أهلُ العلم: خصَّ سبحانه الريشَ بالذكرِ لأنه ليس في أجناسِ الحيوانِ كالطيرِ في كثرةِ أنواعِ ريشِها، وبهجةِ مناظرِها،

وتعدُّدِ ألوانِها فهي جامعةٌ لجميع أنواعِ المنافعِ والزينةِ.

يقولُ الحافظُ ابنُ القيِّم رحمه اللهُ: ولمحبتِه سبحانَه للجمالِ أنزلَ على عبادِه الجماليَن اللباسَ والزينةَ تجملُ ظواهرَهم، والتقوىٰ تجملُ بواطنَهم، وقال في أهل الجنةِ: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الدهر: ١١ ـ ١٢] فجمَّل وجوهَم بالنضرةِ، وبواطنَهم بالسرور، وأبدانَهم بالحرير.

وفي خبرِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ: «**خمسٌ من الفطرةِ: الاستحدادُ، والختانُ، وقصُّ الشاربِ، ونتفُ الأَبِطِ، وتقليمُ الأظافِرِ**» إنها الفطرةُ وسننُ المرسلين؛ اتفقت عليه الشرائعُ، ودعتْ إليها الدياناتُ. وتركُ ذلك وإهمالُه مُزْرٍ بالجسم، وتشبُّهٌ بالوحوشِ والسباعِ، بل تشبُّه بالكفارِ المبتعدين عن صحيحِ الفطرةِ وهدي المرسلين.

ومن أجلِ هذا أيها الإخوةُ فإنَّ الإسلامَ حريصٌ على أخذِ أبنائِه بنظافةِ الحسِّ مع نظافةِ النفس، وصفاءِ القلبِ مع نقاءِ البدنِ، وسلامةِ الصدرِ مع سلامةِ الجَسدِ، فاللهُ يحبُّ المطَّهرين ويحبُّ المتطهرين.

أيها الإخوةُ: المسلمون هم الذين نشروا النظافةَ والتنظيفِ في أصقاعِ الدنيا حيثما حلُّوا وأينما وُجدوا مما لم تعرفْه الأممُ السابقَةُ قبلهم.

إن من يقرأُ تاريخَ الأممِ والمللِ يعلمُ أن أكثرَ البشرِ يعيشون كما تعيشُ الوحوشُ في جزائرِ البحارِ، وكهوفِ الجبالِ، وأكواخِ الأدغالِ، كلُّهم أو جلُّهم يعيشون عراةً أو شبهَ عراةً الرجالُ منهم والنساءُ.

وما دخلَ الإسلامُ بيئةً ولا بيتاً إلا وعلَّمهم حسنَ اللباس، وجمالَ االسَّترِ، ونظافةَ البدنِ، وطهارةَ المسلكِ بالايجابِ تَارةً وبالاستحبابِ أخريٰ نقلهم من الوحشيةِ الفاحشةِ إلى الحضارةِ الراقيةِ.

وهذا الحديثُ لا يخصُّ العصورَ الغابرةَ بل إنكَ وبكلِّ ثقةٍ وأسىٰ لا ترىٰ أمكنةً أو أزمنةً انطمستْ فيها آثارُ النبوةِ إلا ويتجلىٰ فيها صورُ الجهلِ والظلمِ، والكفرِ بالخالقِ، والشركِ بالمخلوقِ، واستحسانِ القبائحِ، وفسادِ العقائدِ، وانحرافِ السلوكِ وما خليت ديارٌ من هدي النَبوةِ إلا وكان أهلُها أشبه بالبهائمِ يتهارشون في الطرقاتِ، ويتعاملون كالعجماواتِ، لا يعرفونَ معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يتورعون عن قبيحٍ، ولا يهتدون إلى سبيلٍ. وشواهدُ ذلك في عصركم هذا تَجِلُّ عَنِ الحصرِ والعدِّ.

إن المسلمين نماذجُ رائعةٌ للطهرِ والجمالِ عندما ينفِّذون تعاليمَ دينِهم في أبدانِهم وبيوتِهم وطرقِهم ومدنِهم. ومساكينُ بعضُ المنتسبين إلى الإسلامِ ممن يولُّون وجوهَهم شطرَ نظمٍ وتقاليدٍ وعاداتٍ يُعجبون بها وهي لغيرِهم، يتشبثون بها وعندهم خيرٌ منها، في دينِهم والله ما هو أزكىٰ وأتقىٰ وأعلىٰ وأنقىٰ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

أيها الإخوةُ: وهذا استعراضٌ لبعضِ مظاهرِ الطهرِ والنقاءِ والجمالِ والزينةِ في توجيهاتِ الإسلامِ، وسلوكِ المسلمين المتمسكين؛ الطَهُورُ شطرُ الإيمان. والصلاةُ أهمُّ فرائضِ الإسلامِ بعد الشهادتين شُرع لها التطهرُ من الحدثِ، والتنظفُ من القذرِ

والنجسِ. والوضوءُ على الوضوءِ نورٌ على نورٍ، مع مطلوباتٍ من الوضوءِ أخرىٰ للنومِ والعباداتِ الطارئةِ كالجنازةِ والخسوفِ والكسوفِ وسجودِ التلاوةِ والعيدين وغير ذلك.

إنها الصلواتُ الخمسُ تنظفُ الباطنَ وتنهىٰ عن الفحشاءِ والمنكرِ، وضؤُها ينظفُ الظاهرَ؛ «**أرأيتم لو كان باب أحدكم على نهر جار يغتسل منه خمس مرات أبيقى من درنه شيء..**»[1].

وغسلُ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلم[2]. «**لا يغتسلُ رجلٌ يومَ الجمعةِ ويتطهرُ ما استطاعَ من طهرٍ ويدَّهنُ من دهنِه ويمسُّ من طيب بيتِه ثم يخرجُ فلا يفرقُ بين اثنين ثم يصلى ما كُتبَ له ثم يُنصتُ إذا تكلمَ الإمامُ إلا غُفر لهَ ما بينه وبين الجمعةِ الأخرىٰ**»[3] بهذا جاء الخبر عن رسولِ اللهِ ﷺ.

والتطهرُ المأمورُ به ليس مقصوراً على المجامعِ ومجالسِ الناسِ ولكنه مطلوبٌ في جميعِ الأحوالِ حتى إذا قعدَ المرءُ في بيتِه أو ذهبَ إلى فراشِه، فقدَ جاءَ في الخبرِ مرفوعاً: «**طهروا الأجسادَ طهركم اللهُ فإنه ليس عبدٌ يبيتُ طاهراً إلا باتَ معه في شعارِه ملكٌ لا ينقلبُ ساعةً من الليلِ إلا قال: اللهم اغفرْ لعبدك**

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٢/ ١٤، ١٥ ـ ح٥٢٨)، ومسلم (١/ ٤٦٢ ـ ح٦٦٧).
(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه البخاري (٢/ ٤١٥ ـ ح٨٧٩)، ومسلم (٢/ ٥٨٠ ـ ح٨٤٦).
(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٤٣٠ ـ ح٨٨٣).

فإنه باتَ طاهراً»[1] رواه الطبراني بسندٍ جيدٍ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفي خبرٍ آخرَ عند أبي داودَ: **«ما من مسلمٍ يبتُ طاهراً: فيتعارَّ من الليلِ أي يستيقظُ ـ فيسألُ اللهَ خيراً من أمرِ الدنيا والآخرة إلا أعطاه اللهُ إياه»**[2].

وإمةُ محمدٍ ﷺ تُعرفُ يومَ القيامةِ بين الأمم بغرَّتها وتحجيلِها من آثارِ الوضوءِ. والسواكُ مطهرةٌ للفمِ مرضاةٌ للربِّ، وقصُّ الشاربِ وحلقه من التجملِ، ومن كان له شعرٌ فليكرمْه، بالغَسْلِ والدَّهنِ والترجيلِ والتطييبِ. وقد رأى رسولُ اللهِ ﷺ رجلاً شعْثاً رأسُه قد تفرَّقَ شعرُه فقال: **«أما كان يجدُ ما يسكِّن شعرَه؟»**[3].

وقصُّ الأظافرِ، وغسلُ البراجمِ وهي مفاصلُ الأصابعِ، ونتفُ شعرِ الأبطِ، وحلقُ العانةِ، واجتنابُ الروائح الكريهةِ من الثومِ والكراتِ والبصلِ. والإنسانُ قد يحتملُ من غيرَه ألواناً من الأذىٰ ولكنه لا يصبرُ على الرائحةِ المنتنةِ تنبعثُ من فم أو عرَقٍ أو غيرِهما. ويتأكدُ ذلك في المساجدِ التي يؤمُّها المسلمون للطاعةِ وذكرِ اللهِ والصلاةِ، وكيف تخشعُ نفسٌ مهتاجةٌ مضطربةٌ تعرَّضتْ للأذىٰ، وتعكرَ عليها صفوُ مناجاةِ الربِّ؟ وانقطعتْ من لذةِ التضرعِ والتذللِ؟؟ ومن المستكره فتحُ الفم عند التثاؤبِ لما في ذلك من قبحِ المنظرِ وقلةِ الذوقِ وايذاءِ الجليسِ وسرورِ الشيطانِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط واسناده حسن انظر مجمع الزوائد (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه أبوداود (٤/ ٣١٠ ـ ح٥٠٤٣)، وأحمد (٥/ ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٤).

(٣) أخرجه أبوداود (٤/ ٥١ ـ ح٤٠٦٢)، والنسائي (٨/ ١٨٣)، وأحمد (٣/ ٣٥٧).

وفي مقابلِ ذلك جاءَ الحرصُ على الطيبِ والحثِّ على التطيبِ، ونبيُّكم محمدٌ ﷺ يحبُّ الطيبَ ويُكثرُ من التطيبِ.

وغطوا الإناءَ، وأوكئوا السقاءَ، واجتنبوا الجُشاءَ، ولا تشربْ من فمِ السقاءِ ولا تتنفسْ في الإناءِ ولا تنفخْ فيه.

والتنظفُ من بقايا الطعامِ وفضلاتِه في الأيدي والأفواهِ والأسنانِ مندوبٌ إليه. وشربَ نبيُّكم محمدٌ ﷺ لبناً ثم تمضمضَ وقال: «**إن له دسماً**»(١).

والتطهرُ والتنظفُ يمتد من الأبدانِ إلى البيوتِ والطرقاتِ والمساجدِ ومجامع الناس؛ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] «**وإماطةُ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ**»(٢).

ومن الدقةِ في التعاليم رعايةُ سُبُلِ الوقايةِ المحكمةِ في آدابِ قضاءِ الحاجةِ لا يتلوثُ بها ماءٌ، ولا يتنجسُ بها طريقٌ أو مستظلٌ، فقد جاء «**النهي عن البولِ في الماء الدائم**»(٣) وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**اتقوا الملاعنَ الثلاثةِ البرازَ في المواردِ وقارعةِ الطريقِ والظلِّ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٧٤ ـ ح٢١١، ١٠/ ٧٣ ـ ح٥٦٠٩)، ومسلم (١/ ٢٧٤ ـ ح٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٥٤ ـ ٢٩٨٩)، ومسلم (٢/ ٦٩٩ ـ ح١٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاري(١/ ٤١٢ـ ح٢٣٩)، ومسلم(١/ ٢٣٥ـ ح٢٨١، ٢٨٢).

(٤) أخرجه أبوداود (١/ ٧ ـ ح٢٦)، وابن ماجه (١/ ١١٩ ـ ح٣٢٨) وسنده =

أما حسنُ الملبس وجمالُ الهندام فمطلوبٌ قدرَ الاستطاعةِ وحسبُ الوجْدُ. عنَ الأحوصِ الجُشَمي قال: رآني النبيُّ ﷺ وعلي أطمارٌ ـ أي ثيابٌ باليةٌ ـ فقال: «**هل لك من مالٍ؟** قلت: نعم. قال: **ومن أيِّ المالِ؟** قلت: من كلِّ ما أتىٰ اللهُ من الإبلِ والشاءِ. قال: **فَلْتُرَ نعمتُه وكرامتُه عليك؛ فهو سبحانه يحبُّ ظهورَ أثرَ نعمتِه على عبدِه**»[1].

وكما قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبِه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ؛ فقال رجلٌ**: إن الرجلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسناً ونعلهُ حسنةً؛ فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: **إن الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ. الكبرُ بطَرُ الحقِّ وغمطُ الناسِ**»[2].

وفي الناسِ أجلافٌ يظنون أن قصدَ الزينةِ تصنُّعٌ. فيردُّ عليهم ابنُ الجوزيِّ بقوله: وهذا ليس بشيءٍ فإن اللهَ تعالىٰ زيَّننا لما خلَقَنا لأن للعين حظاً من النظرِ، قال: وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ انظفَ الناسِ وأطيبَ الناسِ، وكان لا يفارقه السواكُ، ويكره أن يشمَّ منه ريَحٌ ليست طيبةً. فهو عليه الصلاةُ والسلامُ كاملٌ في العلمِ والعملِ فبه يكون الاقتداءِ وهو الحجةُ على الخلقِ.

بل إن بعضَ الجهالِ يحسبون فوضىٰ اللباس واهمالَ الهيئةِ والتبذلِ المستكرهِ ضرباً من العبادةِ، وربما اَرتَدَوْا المرقعاتِ

= ضعيف، وأحمد (١/ ٢٩٩).

(١) أخرجه أبوداود (٤/ ٥١ ـ ح٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ١٨١)، وأحمد (٣/ ٤٧٣) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٩٣ ـ ح٩١).

والثيابِ المهملاتِ وهم على خيرٍ منها قادرون ليظهروا زهدَهم في الدنيا وحبَّهم للأخرىٰ، وهذا جهلٌ وخروجٌ عن الجادةِ. إنه لا يطيقُ الروائحَ الكريهةَ والأقذارَ المستنكرةَ إلا ناقصُ الفطرةِ وجمالِ الأدبِ.

وإنما لبسَ المرقَّع مَنْ لبَسه من السلفِ الصالح لاستدامةِ الانتفاعِ به؛ يوضحُ ذلك ويُجّليه الإمامُ أبوبكر بنُ العَربيِّ رحمه الله حيث يقول: وما حُكي عن عمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه من أنه كان يرقِّع ثيابَه إنما يفعلُه لا ستدامةِ الانتفاعِ به، وذلك شعارُ الصالحين حتى اتخذه المتصوفةُ شعاراً فجعلتْه في الجديد، وليس بسنةٍ بل هو بدعةٌ عظيمةٌ، وإنما المقصودُ من الرقْعِ هو الانتفاعُ بالثوبِ.

أيها الإخوةُ: ومن دقَّقَ النظرَ في طبائعِ النفوسِ وأخلاقِ البشرِ رأى بين طهارةِ الظاهرِ وطهارةِ الباطنِ وطهارةِ الجسدِ واللباسِ وطهارةِ النفسِ وكرامتِها ارتباطاً وثيقاً وتلازماً بيِّناً.

نعم إن هناك تلازماً بين شرعِ اللهِ اللباسَ للسترِ والزينةِ وبين تقوىٰ اللهِ في النفوس فكلاهما لباسٌ. فالتقوىٰ لباسٌ يسترُ عوراتِ القلوبِ ويزيِّنها والثيابُ تسترُ عوراتِ الجسمِ وتزيِّنُها.

من تقوى الله ينبعُ الحياءُ الذي يُنبتُ الشعورَ باستقباحِ عريِّ الجسدِ والحياءِ منه، ومن لا يستحي من اللهِ ولا يتقيه فلا يكترثْ أن يتعرَّىٰ أو يدعو إلى التعرِّي.

ومن أجلِ هذا أيها الإخوةُ فإن سترَ الجسدِ ليس مجردَ أعرافٍ وتقاليدَ كما يزعمُ الماديون الهادمون لأسوارِ العفةِ والفضيلةِ

ولكنها فطرةُ اللهِ التي فطرَ الخلقَ عليها وشريعتُه التي أنزلها وكرَّم بني آدمَ بها.

وبعدُ أيها الإخوةُ: فعنايةُ الإسلامِ بالنظافةِ والتجملِ والصحةِ والتطهرِ جزءٌ من عنايته بقوةِ المسلم. إن المطلوبَ أجسامٌ تجري في عروقِها دماءُ العافيةِ، وتمتلئُ أبدانُ أصحابها قوةً وفتوةً، فالأجسامُ المهزولةُ لا تطيقُ حِملاً، والأيدي القذرةُ غيرُ المتوضئةِ لا تقدمُ خيراً، ورسالةُ الإسلامِ أوسع في أهدافِها وأصلبُ في كيانِها من أن تحيا في أمةٍ مريضةٍ موبوءةٍ عاجزةٍ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١ _ ٣٢].

في النظافة والزينة والتجمل

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ المتفردِ بالعزةِ والجلالِ، المتنزه عن الأندادِ والأمثالِ، أَحمدُه سبحانه وأشكرُه فهو جميلٌ يحبُّ الجمالَ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه جاء بالشريعةِ السمحةِ، ورَفع عنا ربُّه ببعثتِه الآصارَ والأغلالَ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه خير صحبٍ وآل والتابعين ومن تبعهم بإحسان في الأقوالِ والأفعالِ.

أما بعد.

أيها المسلمون: إن الأناقةَ من غيرِ سرفٍ، والتجملَ في غيرِ تكلُّفٍ من آدابِ الإسلامِ وتوجيهاتِه. إنه الإسلامُ الذي ينشدُ لبنيه علوَّ المنزلةِ وجمالَ الهيئةِ. ليكونوا في الناس كالشامةِ البيضاءِ.

غير أنه ليس من الإسلامِ الركضُ إلى أسبابِ الزينةِ بغيرِ عنان، وملأ اليدِ منها بغيرِ ميزان. إن من يطلقُ يدَه في الإنفاقِ في الزينةِ ولذائذِ النفسِ ويتجاوزُ بالإنفاقِ المعتادِ من أمثاله قلَّ نصيبُه من البذلِ في وَجوهِ الخيرِ ذلك أن النفوسَ المبتلاةَ بحبِّ الزينةِ المفرطةِ ولذائذِ الأجسامِ لا تقفُ عند حدٍّ، وكلما أدركتْ منزلةً تشوَّفتْ إلى ما فوقِها؛ كما جاء في الخبرِ الصحيحِ عنه ﷺ:

«إن هذا المالَ حلوٌ من أخذه بحقِّه ووضعه في حقِّه فنعمَ المعونةُ، وإن أخذه بغيرِ حقِّه كان كالذي يأكلُ ولا يشبعُ»[1].

وسأل رجلٌ عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما: ما ألبسُ من الثيابِ؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاءُ، ولا يعيبُك به الحكماءُ.

إذا كان الأمرُ كذلك ـ أيها الإخوةُ ـ فليس من زينةِ الرجالِ بل من الممنوعِ المحرم حلقُ اللحىٰ، ولبسُ الحريرِ، والتختمُ بالذهبِ، وإسبالُ الثيابِ؛ فما أسفلَ من الكعبين ففي النار. وليس من المقبول بل من الممنوع تبرجُ النساءِ بزينةٍ كاسياتٍ عارياتٍ مائلاتٍ مميلاتٍ، وفي الجملة فإن السلفَ كانوا يكرهون الشهرةَ من الثيابِ العالي منها والمنخفض. وثوبُ الشهرةُ العالي ما قُصد به الاختيالُ والتعالي والفخرُ والمباهاةُ، والمنخفضُ القصدُ إلى الرديءِ والمبتذلِ مع القدرةِ على ما هو خيرٌ منه امتناعاً عما أباحَ الله بزعمِ التزهدِ والتعبدِ، ودينُ اللهِ الوسطُ، والرفيعُ من اللباسِ ممدوحٌ إذا كان تجملاً واظهاراً للنعمةِ.

وبعدُ أيها الإخوةُ: فحسبُ الناس من القذرِ والكدرِ هذا التدخين المحرم الذي ابتليت به طوائفُ من الناس فيسيءُ هذا المبتلىٰ ويؤذي بما ينفخُ من دخانٍ وينفثُ من رائحةٍ تخنقُ الأنفاسَ وتُفسدُ الأجواءَ وتلوِّثُ المجالسَ، وهو بلاءٌ ماحقٌ في المكاتبِ والمتاجرِ والمراكبِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٢٤٨ ـ ح٦٤٢٧) واللفظ له، ومسلم (٢/٧٢٧ ـ ح١٠٥٢).

وإنه لشاهدٌ على أن الفردَ والأمةَ حين تبتعدُ عن آثارِ النبوةِ تفقدُ الأدبَ الرفيعَ والذوقَ السليمَ والإحساسَ الرقيقَ والتصرفَ المهذبَ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم الله والزموا هدي دينكم واسلكوا مسلكَ العدلِ والوسطِ.

الاسراف والتبذير داء خطير

الخطبة الأولى

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفره ونستهديه، ونؤمنُ به ونتوكلُ عليه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هاديَ له. وأشهد ألا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه؛ بعثه بين يدي الساعةِ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنِه وسراجاً منيراً. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فإن تقواه وقايةٌ من عذابه، واحذروا سخطه ومعاصيَه فإنها موجباتُ غضبِه وأليمِ عقابِه.

أيها المسلمون: تبلغُ الأمةُ الأفقَ الأعلىٰ من السيادةِ، والرتبةَ الأسمىٰ من العزةِ حين تحفظُ دينَها وتتسعْ علومُها ومعارفُها وتسمو أخلاقَها، وتصانُ أعراضُها، وتجتمعُ كلمتُها.

وقد دلتْ سنةُ اللهِ على أن من أهمِّ ما تملكُ به الأمةُ هذه العزةَ، وتحفظُ به هذه السيادةَ وتُحقِّقُ به هذه الغايةَ قوةَ اقتصادِها، وحسنَ انفاقِها، وعمرانَ بيتِ مالِها.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥] سبحان الله: الأموالُ ملكُ السفهاءِ، وحفظُها مسؤوليةُ الأمةِ، وغايتُها قيامُ الناسِ واستقامةُ أحوالِهم.

إن الاقتصادَ وحسنَ الانفاقِ له أثره البالغُ في مكانةِ الأمةِ، وحفظِ أهدافِها، وتحقيقِ غاياتِها.

وفي هذا الصددِ فإن في توجيهاتِ كتابِ ربِّنا وارشاداتِ سنةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ طائفةً من الوصايا والآدابِ والأحكامِ قصَدتْ إلى تنظيمِ شؤونِ المسلمِ البدنيةِ والنفسيةِ، ووضعِها على أساسٍ كريمٍ. آدابٌ وتوجيهاتٌ وأحكامٌ تتعلقُ بمطعمِه وملبسِه ومسكنِه ومركَبِه وسائرِ ما يتعلق برغباتِه وآمالِه، تلك الرغباتُ والآمالُ التي يسعىٰ إليها في حياتِه ومعاشِه. في مسلكٍ وسطٍ، ومنهجٍ عدلٍ لا يجنحُ إلى رهبانيةٍ مغرقةٍ، ولا إلى ماديةٍ بهيميةٍ جشعةٍ.

إن الإسلامَ يقرنُ بين مطالبِ الجسمِ والنفسِ، والعاطفةِ العقلِ ويكفُّ طغيانَ جانبٍ منها على آخرَ. هذا التنسيقُ والتناسقُ عونٌ للمرءِ على آداءِ رسالتِه في هذه الحياةِ.

ينضمُّ إلى ذلك ما جَبلَ اللهُ عليه خلقَه من طبائعَ وصفاتٍ تقاسموها على حسبِ اختلافِ بيئاتِهم، وطرقِ تربيتِهم، وأطوارِ حياتِهم، وأحوالِ دهرِهم، ففي الإنسانِ رحمةٌ وقسوةٌ، وفيه غيرةٌ وخنوعٌ، وحبٌّ وبغضٌ، وفيه ميولٌ للشهواتِ والرغائبِ. فيه جبلَّةُ الخوفِ من الحاجةِ والفقرِ على نفسِه وذريتِه الضعافِ منهم والصغارِ. كلُّ ذلك بواعثُ تنشيءُ عنده حبَّ المالِ في جمعِه والحرصَ عليه في حفظِه، كما أنها بواعثُ على بذلِ المالِ

في الوصولِ إلى الرغباتِ والمشتهياتِ الحسيةِ منها والمعنويةِ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨].

أيها الإخوةُ: وهذا حديثٌ عن مسلكٍ من مسالكِ الإنسانِ في المالِ خاطىءٌ، تولىٰ القرآنُ الكريمُ الحديثَ عنه وعن أهلِه، بيَّنه وفضحَ الغارقين فيه، ودلَّ على آثارِه، وجزاءِ المنغمسين فيه، والمقصرين في علاجِه.

إنه الإسرافُ والتبذيرُ وما يتولدُ عنهما من ترفٍ وليونةٍ رخيصةٍ، فاللهُ لا يحبُّ المسرفين، والمبذرون كانوا إخوانَ الشياطين، وكان الشيطانُ لربِّه كفوراً.

كم حَدَّثَ التاريخِ عن بيوتٍ عامرةٍ أسَّسها آباءُ مقتدرون، أشادوها بما يليقُ من المرافقِ، وأنشأوا حولها ولها ما يقيمُها من المزارعِ والمصانعِ والعقارِ والمتاجرِ، ثم صارتْ إلى أبناءَ وأخلافٍ غلبَ عليهم الإسرافُ فأطلقوا لشهواتِهم العنانَ حتى أفسدوا وأتلفوا ما أباؤُهم أورثوا وخلَّفوا، فتقوضتْ تلك البيوتُ والتحقَ هؤلاءِ الأخلافُ بطبقاتِ المُعدَمين الذي لا يجدون ما ينفقون. وإذا وقعَ الرجلُ في الفقرِ بعد اليسارِ تجرَّعَ مرارةَ الهوانِ وغصَّ بحسراتِ الندم، وتجلىٰ فيه قولُ اللهِ تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

كم خربتْ بيوتٌ عامرةٌ تحكمَّتْ فيها نساءٌ وأشباهُ نساءٍ في حليٍّ وحُللٍ، يتكلفون ما لايطيقون، وينافسون على ما لا يقدرون.

أيها الإخوةُ: الإسرافُ داءٌ قتّالٌ يُنْبتُ أخلاقاً مرذولةً، ويهدمُ بيوتاً عامرةً. الجبنُ والظلمُ من آثارِه، وقلةُ الأمانةِ من نتائجِه والإمساكُ عن البذلِ في وجوهِ الخيرِ من صنائعِه. تُمسخُ به الفطرةُ، وتفسدُ به الأمزجةُ، وتختلُّ به الأذواقُ، وتهتزُّ به القيمُ والموازينُ. الإسرافُ يورثُ الجبنَ لأن تعلّقَ النفس بمشتهياتِها، وإسرافَها على نفسِها في زينتِها ولذيذِ عيشِها يقوِّي حرصِها على الحياةِ وكراهيتَها للموتِ، ومِنْ ثَمَّ فإنها تَجْتنبُ مواقفَ الشرف والذودِ عن النفس، ومواطنَ الكرمِ والمروءةِ. من احتفَّتْ به ملاذُّ العيشِ وأطلقَ لَنفسِه العنانَ في رغائِبها، اشتدتْ عليه كراهيةُ الموتِ، وتجنبَ خوضَ غمارِ مواردِ العزةِ والأنفةِ.

النفسُ المحفوفةُ بألوانِ المطاعمِ، ووثيرِ الرياشِ والمراكبِ يضعفُ طموحُها وتتبلدُ عبقريتُها. الطموحُ والعبقريةُ لا يُدركان إلا باحتمالِ المكارِه واقتحامِ الأخطارِ. والمسرفُ ضعيفُ العزيمةِ واهنُ القوةِ لا يصمدُ أمامَ الشدائدِ منهمكٌ في فنونِ المتاعِ الرخيصِ.

الإسرافِ يسلكُ بصاحبِه مسالكَ الظلمِ والجورِ والخيانةِ لأن المستسلمَ لشهواتِه يحرصُ على الكسبِ لَيُشبعَ سعارَ رغباتِه فلا يبالي أن يأخذَ من طريقٍ غير مشروعةٍ، يمدُّ يدَه على حقوقِ غيرِه بطرقِ الرشوةِ والغصبِ والاختلاسِ، ولا يعفُّ أو يكفُّ عن طرقِ أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ.

الإسرافُ يمسكُ بأيدي أصحابِه عن فعل الخيرِ وبذلِ المعروف لقد أخذ الإسرافُ بمجامعِ بطنِه وقلبِه، همُّه جمعُ المالِ وانفاقُه

في ما لذَّ من مأكولٍ وملبوسٍ ومركوبٍ ورياشٍ. إن غالبَ أهلِ الإسرافِ تأبىٰ أيديهم أنْ تُبسَطَ في إسعادِ ذوي الحاجاتِ والفقرِ والنكباتِ. لا يسارعونَ إلى مروءةٍ، ولا يُسعفون في أُخوَّةٍ. لا يُهمُّهم أن يكونَ لهم في الناس ذكرٌ جميلٌ. ومن ثَمَّ تنقطعُ صلةُ التعاطفِ والتوادِّ بين كثيرٍ من أفرادِ الأمةِ.

بل لقد نبَّه المجرِّبون إلى أن للإسرافِ أثراً كبيراً في إهمالِ النصيحةِ، والدعوةِ إلى الحقِّ، وحبِّ الناصحين. ولقد قال اللهُ في فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ الدخان: ٣١]. قال المجرِّبون: إن من اعتادَ التقلبَ في الزينةِ وألفَ العيشَ الرضيَّ يغلبُ عليه الحرصُ على هذه الحالِ فيتحاشىٰ المواقفَ التي تفوِّتُ عليه بعضَ لذائذِه، فيسكتُ عن حقٍّ، ويتغاضىٰ عن باطلٍ، وتثقلُ عليه مجالسُ الناصحين الأخيار.

أما ضررُه على الصحةِ فمن الجليِّ البينِ؛ فالمسرفُ في مأكلِه وألوانِ مطاعمِه تنحرفُ صحتُه ويعتلُّ بدنُه، ففي كثرةِ الأكلِ اكتظاظُ المعدةِ، ونتنُ التخمةِ، ومنبتُ الأمراضِ. وأفضلُ الدواءِ تقديرُ الغذاءِ. وصدق نبيُّنا محمدٌ ﷺ: **«ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنٍ»**[(١)]. وكم أكلةٍ منعتْ أكلاتٍ، وجاءَ في الخبرِ: **«من الإسرافِ أن تأكلَ كلَ ما اشتهيت»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٠٩ ـ ح٢٣٨٠) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وابن ماجه (٢/ ١١١١ ـ ح٣٣٤٩)، والحاكم (٤/ ١٢١) وسكت عنه وصححه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١١١٢ ـ ح٣٣٥٢) وقال محققه في الزوائد: هذا اسناده ضعيف. لأن نوح بن ذكوان متفق على تضعيفِه. وقال الدميري: =

والحديثُ عن الإسرافِ في الأكلِ يمتدُّ إلى مظاهر البذخِ في الأفراحِ والمناسباتِ؛ إسرافٌ في ألوانِ الحفلاتِ، وصنوفِ الموائدِ؛ رئاءَ الناسِ، ونشدانَ الظهورِ والسمعةِ والمنافساتِ غيرِ الشريفةِ. غلوٌ وغفَلةٌ، ولهوٌ وطربٌ، وغناءٌ ورقصٌ، وخلاعةٌ وملاهي، واستعمالٌ غيرُ مشروعٍ للذهبِ والفضةِ وملابسِ الحريرِ، وأنواعٌ من الحللِ والحليِّ.

ومن أجلِ المزيدِ من البسطِ في هذا الشأنِ؛ فهذه وقفةٌ مع صورةٍ ــ من بدعِ هذا العصرِ، وصورةٍ جليهٍ من ماديتِه المسرفةِ. إنها سوقُ الأزياءِ ودُورُها وأدواتِ التجميلِ وصُنَّاعِها. إن العقلاءَ الذي يقدِّرون ثرواتِ الأمةِ ويخافون عليها وعلى الأمةِ ليشكون من إطلاقِ بعضِ الناسِ أيديَهم في إنفاقٍ باذخٍ؛ مظاهرُ إسرافٍ تقامُ على غيرِ حكمةٍ وَحُسنِ تقديرٍ، وتَستنزِفُ من الأموالِ ما لا يجرُّ لصاحبِه حمداً، بل إنه ليسوقُ إليه ذماً أو إثماً. مَنْ الذي يقبَعُ وراءَ بيوتِ الأزياءِ؟؟ موجاتٌ مسعورةٌ في كلِّ مكانٍ؟؟ أيُّ إسرافٍ واستسلامٍ وخضوعٍ وانقيادٍ لهذه الدورِ والبيوتِ؟؟ استهلاكٌ مُشينٌ في الأقمشةِ والحليِّ والحللِ، والمصنوعاتِ والمصوغاتِ. قائمةٍ على هذا السعارِ المجنونِ.

ناهيكَ بمن يُسرفون في ملابس عاريةٍ وشبهِ عاريةٍ، لقد طافَ أهلُ الجاهليةِ الأولىٰ ببيتِ الله المَحرمِ عراةً زعموا فيها تديناً لله وقربةً. وهاهم أبناءُ حضارةِ اليوم يتعرون بغالي الأثمانِ ويسمون ذلك رقياً وتقدماً وحضارةً ومدنيَةً. ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ

= هذا الحديث مما أنكر عليه.

كُلِّ مَسْجِدٍ. ﴾ [الأعراف: ٣١].

أرأيتَ كيفَ يمسخُ الإسرافُ الأذواقَ، ويُفسدُ القيمَ، ويذيبُ الأخلاقَ حتى جعلَ شبهَ العُريِّ تقدماً، والحشمةَ رجعيةً وتخلفاً؟؟؟.

لقد تأذىٰ الشرفاءُ وأُزعجَ الكرماءُ، لقد جيء إليهم ببدع من الأمثالِ والأفكارِ؛ ثيابٌ للصيفِ وثيابٌ للخريفِ وملابسُ للشتاءِ وأخرى للربيعِ وما يُلبسُ في الليلِ لا يصلحُ عندهم في النهارِ بل وما يلبسُ في الأصيلِ لا يليقُ بالسمَرِ.

وهذا وربِّك شططٌ سَمْجٌ وإسرافٌ ممقوتٌ فرضتْه مجتمعاتٌ لا يرجون اللهَ ولا اليومَ الآخرَ. إنه هَوَسٌ يبرأُ منه العقلاءُ والأتقياءُ.

أيُّ إسرافٍ؟ وأيُّ ترفٍ؟ حين ترىٰ فتياناً وفتياتٍ يُدَّخرون للمستقبلِ، وتَعقِدُ عليهم الأمةُ آمالَها لا همَّ للواحدِ منهم إلا أن يجعلَ من نفسِه معرضَ أزياءَ يسيرُ بين الناسِ؛ يسرفُ في مالِه ووقتِه ليُمضيَ الساعاتِ الطوالَ أمامَ المرآةِ ليستكملَ وجاهتَه ويطمئنَّ إلى أناقتِه.

هلاَّ بذلَ وقتَه وصرفَ جهدَه ووجَّه همَّتَه لزيادةٍ في علمٍ وفقه في دينٍ وكسبٍ في عملٍ لدنياه وآخرتِه. ومتى كان اتساقُ الملابسِ على الأجسامِ شارةَ الكمالِ وعُنوانَ الرجولةِ؟؟.

شبابٌ أغرارٌ أسرفوا على أنفسِهم؟؟ هل قلَّتْ حظوظُهم من أدبِ النفسِ فلجأوا إلى مغالاةٍ في اللباسِ والمركبِ ليستروا نقصَهم ويدفِنوا عوارَهم؟؟ ولكن هيهاتَ فمقاييسُ الكمالِ عند العقلاءِ جليةٌ لا تخفىٰ؟؟.

أيُّها الإخوةُ: إن كلَّ ذلك بصورهِ وألوانِه إسرافٌ ممقوتٌ يزيدُ المبتلىٰ به انهماكاً في المحقَّراتِ والسفاسفِ. وفراراً من التكاليفِ، ونكوصاً عن الجدِّ.

شبعتْ بطونُهم، وغلُظتْ أكبادُهم، وجَمَحتْ شهواتُهم.

إن ملذاتِ الطعامِ وحطامَ الدنيا أنزلُ قدراً من أن يتفانىٰ في طِلابِها من له عقلٌ ومروءةٌ على هذا النحوِ الشائنِ.

وماذا بعدُ أيها الأخوةُ؟؟ إن بعد ذلك النتيجةُ المخيفةُ والوعيدُ القرآنيُّ الرهيبُ؟؟.

إن النهيَ عن الإسرافِ قُصِدَ به حمايةُ الأمةِ وأفرادِها من الليونةِ المفرطةِ والاسترسالِ في المُتَعِ الرخيصةِ مما يستدرجُ في العادةِ الانحدارَ في الرذائلِ والمحرماتِ، ويصرفُ عن حياةِ الجدِّ والجهادِ والبذلِ والتضحيةِ، كما قُصِدَ به حفظُ الأموالِ التي بها قيامُ الناسِ واستقامةُ معاشِهم. ومن أجلِ ذلك فكما أن الفردَ مسؤولٌ ومحاسبٌ عن إسرافِه وترفِه فإن الأمةَ مسؤولةٌ عن هذه الظاهرةِ وفشوِّها. إن هذا الداءَ إذا استشرىٰ فهو وباءٌ اجتماعيٌّ يقودُ إلى فسادٍ عريضٍ تجبُ مقاومتُه ومنعُه، والتبصرُ بمخاطرِه وسيءِ آثاره. إنها إذا لم تفعلْ حقتْ عليها كلمةُ اللهِ وأحاطَ بها وعيدُ القرآنِ جزاءً وفاقاً: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

وليزدادَ الأمرُ في ذلك وضوحاً وجلاءً فلتعلموا أيُّها الإخوةُ: أن المسرفين المترفين في العادةِ هم أشدُّ الناسِ استغراقاً في

الاستمتاعِ، وذهولاً عن المصيرِ. مترفون مسرفون يجدون المالَ ويجدونَ الخدمَ ويجدونَ الراحةَ فينعمون بالدعةِ والخمولِ حتى تترهلَ نفوسُهم، وترتعَ في الفسقِ والمجانةِ حياتُهم، وتستهترَ بالقيمِ والكراماتِ سلوكياتُهم. إذا لم يوجدْ من يأخذُ على أيديهم عاثوا في الأرضِ فساداً، ونشروا الفواحشَ، وأشاعوا الموبقاتِ وأرخصوا القيمَ العليا التي لا تعيشُ الأممُ إلا بها ومن ثمَّ تتحللُ الأممُ وتسترخي وتفقدُ حيويَّتَها وعناصرَ قوتِها وأسبابَ بقائِها فتهلِكَ وتُطوىٰ صفحتُها وهذا من سننِ اللهِ؛ مصداقُ ذلك في كتابِ اللهِ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

إذا كان ذلك كذلك أيها الإخوةُ فمن المتعينِ على ولاةِ أمورِ المسلمين وأهلِ العلم والصلاح والوجهاءِ والأعيانِ وذوي الأثرِ والقدوةِ في الناس وأصحابِ الفكرِ والقلم أن تتضافرَ جهودُهم، وتتعاضدَ توجُّهاتُهم على المجاهدةِ في هذا السبيلِ حتى يبتعدَ الواقعون في الإسرافِ عن إسرافِهم، ويسلكوا طريقَ القصدِ ونهجَ العدلِ حفاظاً على الدينِ والمروءةِ وثرواتِ الأمةِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

الاسراف والتبذير داء خطير

الخطبة الثانية

الحمد لله على احسانه، والشكرُ له على توفيقهِ، وعظيم امتنانه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيما لشأنه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى جنتهِ ورضوانه، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد أيها المسلمون: الوسطُ والعدلُ هو قاعدةُ الإسلام الكبرىٰ، والافراطُ أخو التفريطِ. الإسلام لا يدعو إلىٰ الملابس المزريةِ والهيئةِ المستنكرةِ، وليس فيه اللجوءُ إلى المرقعاتِ مع وجود خيرٍ منها، وارتداءُ الخِرَقِ البالياتِ مع تحصيل أفضلَ منها، ولكنه الوسطُ يلبسُ فيه المرءُ ما يجدُ، ولا يتكلفُ ما يجدُ. هذا هو نهجُ عبادِ الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

يأكلون ليعيشوا، ويعيشون ليعطوا الحياةَ قدرَها، ويحفظوا لها وظيفتَها عبادةً للهِ وإحساناً على عبادِه، ورجاءً في عظيمِ ثوابهِ.

يأخذون من الطيباتِ، ويستمتعون بالزينةِ، وقّافون عند حدودِ اللهِ: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عن

النبي ﷺ أنه قال: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»**(١).

قال بعضُ الصالحين من ضَبط بطنَه ضبط دينهَ، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحةَ.

من اعتدل في نفقتِه وصرفِه كان أصحَّ جسماً وأخفَّ نفساً وأزكىٰ سيرةً. إن الكريم ذا المروءةِ من يعرفُ للمالِ قدرَه فيضعُه في موضعِه، وينزلُه منزلتَه. عنده في الحياةِ مطالبُ يبذلُ فيها المالَ بسخاءٍ وكرمٍ وسماحةِ نفسٍ. يؤدي الحقوقَ ولوازمَ النفقةِ على النفسِ والوالدين والوِلْدان والزّوجِ والأقربين. مصارفُ البِّر عنده واسعةٌ؛ مَن المساجدِ والمدارسِ والمشافي والملاجىءِ في نظرةٍ واسعةٍ للمصالح العامةِ والخاصةِ.

وحينما قال أهلُ العلمِ لا خيرَ في الإسرافِ قالوا: لا إسرافَ في الخيرِ. وحينما قالوا: لا تنفقْ قليلاً في باطلٍ قالوا: لا تمنعْ كثيراً في حقٍّ.

إنه لا يضرُّ أولي الفضلِ والسعةِ أن يقتصدوا في أطعمتِهم وملابسِهم ووجوهِ صرفِهم على أنفسِهم ماداموا يبذلون أموالَهم فيما تكملُ به مروءتُهم، وتدعو إليه حقوقُ مجتمعِهم، بل إن ذلك ليزيدُهم مكارمَ إلى مكارمِهم.

ذلكم هو مسلكُ العدلِ والاقتصادِ والكرمِ والسماحةِ والفضلِ والمروءةِ؛ وسطٌ بين البخلِ والإسرافِ، مسلكٌ يملكُ به الدنيا ليسخرَها للدين والمثلِ العليا.

ألا فاتقوا الله رحمكم الله واسمعو وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقا (١٠/ ٢٦٤ح ٥٧٨٣)، والنسائي (٥/ ٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢ح ٣٦٠٥)، وأحمد (٢/ ١٨١، ١٨٢)، واسناده حسن.

لا .. لمؤتمر بكين

الخطبة الأولى

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونستهديْه ونعوذ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ لهُ ومن يضللْ فلا هاديَ لهُ، وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه، بعثَه بالهدىٰ ودينِ الحقِّ ليظهرَه على الدينِ كلِّه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ فنعم اللباسُ التقوىٰ، ونعمَ الزادُ التقوىٰ.

أيها المسلمون: إن أهلَ العقلِ والعلمِ والنظرِ المتوازنِ ليسوا بمغرمين ولا بمبالغين في تصوير أنَّ وراءَ كلِّ حدَثٍ مؤامرةً، ولا من المتوهمين أن خلفَ كلِّ حديثٍ تآمرا. ولكنَّهم في ذاتِ الوقتِ لن يكونوا من أولئكَ الذين يُسْلِمون القيادَ، ويُرْخُوُن الزمامَ لتقودَهم أفكارٌ فاسدةٌ، أو تضلَّهم دعواتٌ ماكرةٌ، أو يسيروا خلفَ كلِّ ناعقةٍ.

إننا بين يدي مؤتمرٍ[1] سوفَ ينعقدُ قريباً هذه الأيامَ ليتحدثَ

---

(١) مؤتمر يعقد في بكين في ٤ سبتمبر ١٩٩٥م.

ويوصي ويقررَ عن المرأةِ والأسرةِ والبيتِ وشؤونه، يتحدثُ عن التنميةِ والسلامِ والمساواةِ. مؤتمرٌ منتسبٌ إلى الأممِ المتحدةِ.

كم تحدثَّوا وائتمروا عن التنميةِ والأُمّيةِ، والتعليم والصحةِ، ورفعِ الفقر وأعباءِ المديونيةِ، وحقوقِ الإنسانِ وكرامةِ الإنسانِ وهذه كلُّها كلماتٌ جميلةٌ ودعواتٌ براقةٌ كلٌ يحبُّها، وكلٌّ يتمنىٰ تحقيقها.

لقد مرَّ على قيام هذه المنظمةِ خمسون عاماً فأيُ فقرٍ رُفع؟ وأيُّ سلامٍ رَسَخ؟ وأَيُّ كرامةٍ للإنسانِ حُفِظتْ؟.

إن سيطرةَ القرارِ الغربيِّ على مجرياتِ الأمورِ أصبحتْ واضحةً بيِّنةً. إنه وحدَهُ الذي يَستَصْدِرُ قراراتٍ لها أثرُها ونفاذُها إذا شاء، وتكونُ الأخرىٰ حبراً على ورقٍ إذا شاءَ.

من هذه المسلماتِ يكونُ الحديثُ عن مؤتمرِ المرأةِ هذا، ومن هذه المنطلقاتِ يكونُ النظرُ إلى هذا المؤتمرِ.

إنه مؤتمرٌ لا يعلو فيه إلا صوتُ الجمعياتِ المتطرفةِ التي أعلنتْ الحربَ منذ زمنٍ على الأسرةِ والحياةِ الكريمةِ، والبيتِ الكريمِ، التطرفُ الذي دعا بغلوِّهِ إلى الحريةِ الجنسيةِ، والتفسخِ الخلقيِّ، والدعارةِ المعلنةِ المقننةِ. دعواتٌ ومقرراتٌ تصادمُ الفطرةُ وتنابذُ كلَّ القيمِ الإيمانيةِ المستقرةِ في ضمائرِ الأسوياءِ من البشرِ.

وحينما يقالُ إن التطرفُ هو الذي يُعِدُّ أوراقَ عملِ هذا المؤتمرِ وهو الذي يصوغُ وثائِقَه وتوصياتِه ليس هذا من جُزافِ القولِ، ولا من دعاوىٰ الباطلِ.

إن جماعاتِ التطرفِ النسائيةِ لها دورٌ فعَّالٌ، في الإعدادِ، وإن أعضاءَ تلك الجمعياتِ نساءٌ شاذاتٌ متعاطياتٌ للسِّحاقِ.

تطرفٌ ينظرُ إلى مصطلح الأسرةِ والبيتِ العائلي نظَرَ ازدراءٍ وتنقصٍ، ونظرَ رجعيةٍ، ومخلفاتِ القرونِ البائدةِ.

إن هذا المؤتمرَ في أنبائِه يتحدثُ عن القهرِ والعنفِ الذي تتعرضُ له المرأةُ.

بلىٰ لقد حفلَ التاريخُ ولا يزالُ يَحْفِلُ بألوانٍ من الأذىٰ وقعتْ على المرأةِ فقد حملتْ من القيودِ والمظالـم بسببِ التعسفِ المكروهِ في التقاليدِ والعاداتِ الموروثةِ الجائرةِ في مختلفِ الحضاراتِ والنظمِ.

ولكن ما هو الحل؟ هل الحلُّ ـ كما يريدُ المؤتمرُ ـ في تصويرِ العلاقةِ بين الرجلِ والمرأةِ علاقةَ صراعٍ واستعبادٍ واستذلالٍ؟ علاقة تنافسٍ غير شريفٍ؟ سبحان اللهِ كلُّ عالَمِهم صراعٌ في صراعٍ، وحروبٌ شتىٰ في ميادين شتىٰ، الباردُ منها والساخن، حتى أدخلوها على الرجلِ وأهلِ بيتِه.

أما علموا أن العلاقةِ عندنا ـ أهلَ الإسلام ـ علاقةُ مودةٍ ورحمةٍ وطمأنينةٍ وسَكنٍ: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

وإن كنَّا نستنكرُ الممارساتِ الخاطئةَ من بعضِ المسلمين وخلطِهم بين التقاليدِ والعاداتِ الموروثةِ المخالفةِ لآدابِ الإسلامِ

وأخلاقِه وبين تعاليمِ الإسلامِ الحقةِ الصحيحةِ.

هذه المرأةُ المقهورةُ أفلا يكونُ الخلاصُ لها إلا بالإباحية الجنسيةِ، والشذوذِ الجنسيِّ، والتفسخِ الأُسَريِّ، وتقويضِ بنيانِ البيوتِ الكريمةِ ومحاربةِ الزواجِ المبكِّرِ، وفتحِ أبوابِ الإجهاضِ بسببٍ صحيحٍ وبغيرِ سببٍ؟؟.

هل خلاصها أن تكون غانيةً في سوقِ الملذاتِ والشهواتِ يستمتعُ بها الرجلُ ويستبدُّ من طلوعِ الشمسِ إلى غروبِها ومن غروبِها إلى طلوعِها؟ في دورِ الأزياءِ، وقاعاتِ السينما، وشاشاتِ التلفازِ، وصالاتِ المسارحِ، وشواطئِ البحار والأنهارِ، وبيوتِ اللهو والدعارةِ، وأغلفةِ المجلاتِ والصحفِ السيارةِ؟؟ بل أقولُ ولا أخشىٰ لائماً حتى في ردهاتِ مستشفياتِهم وملاحاتِهم الجويةِ وأستحي أن أقولَ في دور التعليمِ ومحاضنِ التربية؟؟.

هل هذا هو سبيلُ الخلاصِ من القهرِ الذي ينشدون؟ والعنفِ الذي يقولون؟.

إنها البيوتُ الخَرِبةُ والمسئوليةُ الضائعةُ حين ألقاها الرجلُ الغربيُّ عن كاهلِه فوقعتْ نساؤُهم حيث وقعتْ، إهمالٌ وتنصلٌ من مسئولية الإنجابِ والتربيةِ. فأصبحَ ذكرُهم وأنثاهم لنفسهِ لا لإمتِه، للذاتِه لا لكرامتِه، فالفسادُ في مجتمعاتهم يستشريْ، والخرابُ إلى ديارِهم يسري.

لم يتحدثوا عن المرأةِ المقهورةِ المعذبةِ، المرأةِ المشردةِ، المرأةِ المغتصبةِ من إفرازاتِ حروبٍ أنشأوها، وكوارثَ أثَارُوها،

من الظلمِ العالمي، والفقرِ المتدني في شعوبٍ تنتسبُ إلى الإممِ المتحدةِ. ما حالُ أمهاتِنا وإخواتِنا وبناتِنا في فلسطين وكشميرِ والبوسنةِ والشيشانِ وبورما والصومال؟؟.

إن وثائقَ المؤتمرِ لا تكادُ تعير هذا اهتماماً في مقابل احتفائِها واحتضانِها للشاذاتِ والبغايا والمومساتِ. والمصابين والمصاباتِ بكلِّ ألوان أمراضِ الجنسِ الفتاكةِ.

هذا نبأ من أنباءِ المؤتمرِ.

ونبأ آخرُ وهو يتحدثُ عن التنميةِ النسويةِ. إنه حديثٌ كلُّه أو جلُّه عن ما أسماه بالمرأةِ العاملةِ!! العملُ شيءٌ محمودٌ، ومبتغىً مقصودٌ، مادام منضبطاً بضابطِ الدينِ والخلقِ، واللهُ لا يضيعُ عملَ عاملٍ من ذكرٍ أو أنثىٰ بعضُهم من بعضٍ.

ولكن المرأةَ العاملةَ في عرفِهم هي المتمردةُ على بيتِها وأطفالِها وشؤونِ منزلِها.

لا يقالُ ذلك إفكاً أو افتياتاً. إنهم يقولون: إن عملَ ربةِ الأسرةِ داخلَ بيتِها عملٌ ليس له أجرٌ إنهم يقولون: ذاكَ عملٌ لا مردودَ له. إنهم يقولون: هذه خدمةٌ مجانيةٌ، وعملٌ غيرُ منتجٍ.

هذه هي نظرتُهم وهذا هو مقياسُهم وميزانُهم. تربيةُ النشء والحفاظُ على الكرامةِ والاستقرارُ العائليُّ والنفسيُّ ليس بعملٍ، وليس له أجرٌ ولا مردودٌ، وغيرُ منتجٍ. هكذا قاس قائسهم وقدَّر مقدرِّرهم. ألا قُتِل كيفَ قدَّر، ثم قُتِلَ كيف قدر؟.

إنهم لا يعرفون الرَّحمَ ولا التراحمَ، ولا يعرفون البرَّ ولا الفطرةَ؟؟ أيُ خيانةِ أكبرُ من خيانةِ إهمالِ النشءِ وإهلاكِ النسلِ؟؟.

إنهم يعلمون ـ ولكنهم قومٌ بُهْتٌ ـ إنهم يعلمونَ أن السكينةَ والطمأنينةَ لا تكونُ إلا في بيوتٍ مستقرةٍ، في ظلالِ أسرةٍ حانيةٍ بنسائِها ورجالِها وأطفالِها وصباياها. أما الهَمَلُ والضياعُ في الأَزِقَّةِ والأرصفةِ وزوايا الوجباتِ السريعةِ فلا تبني أمةً، ولا تجلبُ طُمأنينة. بل إن حياةَ الطيورِ في أعشاشِها، والسباعَ في أكنَّتِها خيرٌ وأصلحُ من هذا الهَمَلِ الضائع. أيُّ امرأةٍ عاملةٍ تعنون؟ ما قهرَ الرجلَ ولا أذلَّ المرأةَ ولا استعبدَهُما جميعاً إلا مثلُ هذه المبادىءِ المهلكةِ، والمقاييسِ الفاسدةِ، والحضارةِ المنتنةِ.

ومن أنباءِ هذا المؤتمرِ نبأُ الإباحيةِ، ودعوةُ التحلُّلِ والتفسُّخِ، ونشرِ الرذيلةِ بأحطِّ صورها، حتى الشذوذِ الجنسيِّ لواطاً وسحاقاً يريدونه مباحاً معلناً مقنناً.

ويأخذُكَ العجبُ وهم يتحدثون عن الإباحيةِ الجنسيةِ وفتحِ الأبوابِ مشرعةً أمام التفسخِ الخلقيِ، ثم يذهبونَ يتباكون على أمراضِ الجنسِ المتفشيةِ من الإيدزِ، والنسبةُ الغالبةُ في الاصاباتِ بين المراهقينَ والمراهقاتِ، وهي في النساءِ أعلى منها في الرجالِ.

إذا كان هذا الإيدزُ بأرقامِها المخيفةِ ـ وحُقَّ لها أن تخيفَ وتُرعبَ ـ إن كنتم مخلصين لماذا لا تطالبون بالقضاءِ على الأسبابِ؟؟ وعندكم علمُ اليقينِ أن معدَّلَ هذه الأمراضِ يزدادُ!!!. عجبٌ وعجبٌ يعالجونَ ظواهرَ العَرَضِ ويَدَعُون أصلَ المرضِ؟؟ ينظرون إلى الأثرِ ويغفلون عن المؤثِّرِ؟؟ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] ومع هذا ينادون بالسلوكِ الجنسي المأمونِ. ولقد جاءَ في الخبرِ عن نبيِّنا محمدٍ ﷺ: «**ما ظهرتْ الفاحشةُ في قومٍ حتى يُعلنوا بها إلا فشتْ فيهم الأمراضُ التي لم تكنْ في أسلافِهم**»(١).

أيُّها الإخوةُ: هلا رجعتْ الأممُ المتحدةُ وراجعتْ مع خبرائِها وباحثيها!! هل ما يعاني منه الغربُ من مشكلاتٍ أخلاقيةٍ وآثارِ فسادٍ جنسيٍّ وخُلُقيٍّ وتفككٍ اجتماعيٍّ؟ هل هو موجودٌ بالضرورةِ في بقاعِ العالمِ الأخرىٰ. أم إنه نظرٌ إلى الناسِ بعيونٍ مريضةٍ ومقاييسَ جائرةٍ؟؟. إن هذه الطروحاتِ والمعالجَاتِ هي جالباتُ الأمراضِ ومفسداتُ الأعراضِ وناشراتُ الحرامِ. هكذا تقولُ الأرقامُ والاحصائياتُ والدراساتُ والملفاتُ.

إننا نقولُ بكلِّ فخرٍ وبكلِّ ثقةٍ إن أهلَ الإسلامِ هم المستهدفُ الأولُ من هذه المبادىءِ الفاجرةِ لأنهم أكثرُ المجتمعاتِ محافظةً، فلا وجودَ يذكرُ للمشكلاتِ والمصائبِ التي يئنُّ منها أهلُ الغربِ ومن انزلقَ في مستنقعِهم، لا مكانَ في بلادِ الإسلامِ يذكرُ للأمراضِ الخبيثةِ التي تجُرها الممارساتِ الشاذةُ، ولا الحملُ الحرامُ في بناتِ المسلمين.

ولكنهم لا يحبون الطُّهرَ ولا التطَهُّرَ، القاعدةُ القرآنيةُ بينةٌ شاهدةٌ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/١٣٣٣ ـ ح٤٠١٩) وقال في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به، وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه، وأخرجه الحاكم (٤/٥٤٠، ٥٤١)، وقال: صحيح الاسناد ووافقه الذهبي.

﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].

إن الغربَ وأبواقِها لن يرضَوْا إلا أن يروا مجتمعاتِنا الطاهرةَ الطيبةَ وقد انزلقتْ في وبائِه ورجسِهِ.

إنه إصرارٌ من المؤتمرين على فرضِ النظرةِ الغربيةِ الملحدةِ الفاجرةٌ بكلِ ألوانِها وشُعَبِها على جميعِ الشعوبِ.

بلىٰ؛ إن هناكَ إصراراً من الغربِ ورجالِه ومؤتمراتِه ولجانِه ليصهرَ الشعوبَ في عاداتِه وتقاليدِه. احتكارٌ وقهرٌ ليجعلَ هذا السلوكَ الممقوتَ مقياسَ التقدمِ ورمزَ الحضارةِ.

إنهم وبكلِّ جُرأةٍ يَرْبِطونَ دعمَهم الماديَّ بالالتزامِ بهذه التوصياتِ الآثمةِ والقراراتِ الهادمةِ.

إن التوجهَ إلى فرضِ أنماطٍ وسلوكٍ على شعوبِ العالمِ ودُوَلِه بمثلِ هذه الطرقِ، وهذا الاستغلالِ ومن خلالِ هذه المنظماتِ والمؤتمراتِ ما هو إلا استخفافٌ بالشعوبِ واحتقارٌ للأممِ وتنكُّرٌ للخصوصياتِ الثقافيةِ والدينيةِ والتقاليدِ والأعرافِ الصحيحةِ المرعيةِ. وتدَخُّلٌ في حرياتِ الشعوبِ وخصوصياتِ الناسِ ومخالفٌ لما سمَّوه في وثيقةِ حقوقِ الإنسانِ باحترامِ العقيدةِ ومنهجِ التفكيرِ.

إننا نطالبُ الأممَ المتحدةَ ـ إن كانتْ مخلصةً منصفةً ـ أن تكبحَ هذه النزاعاتِ الاستعماريةَ والهيمنةَ الغربيةَ التي سببت وتُسبِّب كلَّ ألوانِ هذا العناءِ والشقاءِ.

أما نحنُ ـ أهلَ الإسلامِ ـ فنأرزُ إلى إيمانِنا ونطمئنُّ إلى كتابِ ربِّنا فقد خاطبنا رجالَنا ونساءَنا في التكاليفِ والمسئوليةِ:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

[التوبة: ٧١ ـ ٧٢].

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

لا . . لمؤتمر بكين

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عدوانَ إلا على الظالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهُ الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فيا أيُّها الناسُ اتقوا اللهَ ربَّكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

إيها الإخوةُ: إننا نهيبُ بالدولِ الإسلاميةِ وشعوبِها، كما نُهيبُ بجمعياتِها ومنظماتِها الرسميةِ والشعبيةِ أن تُظهرَ الحقَّ وتعلنَهُ، وأن تفضحَ تلكَ الوثيقةَ ومَنْ وراءَها.

على علماءِ الإسلامِ بارك اللهُ فيهم أن يقوموا بمسؤليتِهم نحو توجيهِ الأمةِ، والذبِّ عن حياضِ الدينِ، وكرامةِ الإنسانيةِ، وتفضيلِ اللهِ لبني آدمَ وكرامتِه على ربِّه. عليهم أن يعلنوا رفضَ كلِّ قراراتٍ أو مقرراتٍ تخالفُ عقيدةَ الأمةِ وتفسدُ أخلاقَها وتبارزَ ربَّها بالمحاربةِ، وليرتفعْ صوتُ الفضيلةِ على أصواتِ دعاةِ الإباحيةِ الساقطةِ.

وإن تنظيمَ الجهودِ في ذلك وتنسيقَها بين هذه المؤسساتِ والمنظماتِ وكلِّ الجهاتِ العاملةِ لمما يجبُ التنبُه له والعنايةُ به.

أيُّها الإخوةُ: إذا كانوا مصرِّين على حنثهم العظيم فإنَّا مصرُّون على الاستمساكِ بدينِنا مؤمنون حقَّ اليقين وعينَه وعلمَه بأن الخلاصَ الحقيقيَّ والأمنَ المنشودَ والحياةَ الطيبةَ الطاهرةَ والسعادةَ المبتغاةَ لا تكون إلا في ظلِّ الإسلامِ عقيدةً ومنهجاً، عبادةً وسلوكاً، والتحلي الصادقِ المخلصِ بالدين والأخلاقِ في معاملةِ المرأةِ الطفلِ والرجلِ، وتكثيفِ توجُّهِ الأمةِ نحو إسلامِها من خلالِ ولاةِ الأمرِ فيها وعلمائِها، ومراكزِ البحوثِ العلميةِ والمؤسساتِ التربويةِ وتطبيقِ أحكامِ الشرعِ التي بها وحدها لا غيرها يسعدُ المجتمعُ.

أما اللَّهاثُ وراءَ سرابِ المشاريعِ والخططِ التي يرتِّبُ لها هؤلاءِ الذين يزيِّنون الفسادَ، ويختلقونَ له الأسماءَ البراقةِ وأغلفةً من التَّمَعْلُم خادعةً، هذا اللَّهاثُ هو الذي سيُبْقي الأمةَ مهدّدةً في دينِها وأخلاقِها وفي شأنِها كلِّه.

وإنكم لمبصرون أنه كلَّما ارتفعتْ رايةٌ للحقِّ وعلتْ مناداةٌ مخلصةٌ لتطبيقِ شرع اللهِ والالتزام به إلا وانبرتْ أقلامُ الملاحدةِ والمنظماتِ المشبوهةِ لتتهمَ هذه الدعواتِ والتوجهاتِ بالوحشيةِ والهمجيةِ والقسوةِ والرجعيةِ وإن من أحدثها وأقربها ما يثارُ حولَ هذه البلادِ الطيبةِ المباركةِ بلادِ الحرمينِ الشريفين في تطبيقِها لشرعِ اللهِ والالتزامِ بحدوده، وضربها على الإجرام وأهلِه ودعاتِه بيدِ الشرعِ الطاهرِ المطهرِ، ولكنَّ قافلةَ الحقِّ سائرةٌ بإذن اللهِ ولن يوقفَها نبحَ ولا عواءٌ.

المرأة ودعوى التحرير

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ المستحقِّ للحمدِ والثناءِ، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأسأله السعادةَ في الدارين، وأعوذ به من حالِ أهلِ الشقاءِ. وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيتِه وألوهيتِه والصفاتِ والأسماءِ. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه أفضلُ الرسلِ وخاتمُ الأنبياءِ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابِه البررةِ الأتقياءِ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجلَّ، فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ ما استطعتم، واستدركوا بالتوبةِ والأعمالِ الصالحةِ ما أضعتم، فربُّكم سبحانه خلقكم لتعبدوه، وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لتشكروه.

أيها المسلمون: يظنُّ بعضُ الناسِ أن ضعفَ الأممِ وعجزَها يرجع إلى ضعفِها الصناعيِّ، أو عجزِها العسكري، أو نقصِها الاقتصادي، وأن الأمةَ الضعيفةَ لو ملكتْ هذا أو ذاك سادتْ ثم قادتْ.

وهذا عند النظرِ والتبصرِ فكرٌ فيه عوجٌ، ونظرٌ فيه خللٌ

يعشى[1] بصرُ صاحبِه أن يُبصرَ الشللَ العضويَّ في أجهزةِ تلك الأمةِ الخُلُقيةِ، وملكاتِها النفسيةِ، وانهزامِها الداخليِّ في فكرِها وعقلِها وتبعيتِها، وفغْرِها أفواهَهَا اعجاباً وبلاهةً.

ولقد يروعُك إن كنتَ مخلصاً ناصحاً ذا بصيرةٍ نافذةٍ يروعُك وأنت تتلمسُ العيوبَ والأخطاءَ وأسبابَ الضعفِ والتخلفِ انتشارُ خلائقَ مقبوحةٍ بين الناسِ دونَ مبالاةٍ، بل مع إغماضٍ شديدٍ ممن ينصبون أنفسَهم مفكرين في المجتمعِ ومثقفين في أوساطِه إغماضٌ منهم متعمدٌ عن هذه الأخلاقياتِ من إضاعةِ الأماناتِ، والتحللِ من المسؤلياتِ، وعدمِ اتقانِ العملِ، والالتفافِ حولَ المآربِ الشخصيةِ، ونسيانِ المبادىءِ الكبرىٰ والحقوقِ العامةِ، وانتشارِ اللغوِ واللغطِ، والكسلِ والإهمالِ، وتقطيعِ الأوقاتِ في غير المجدي والمفيد، واستقصاءِ المرءِ في طلبِ ما يرىٰ أنه من حقوقِه، واستهتارِه وإهمالِه في أداءِ ما لزمه ووجب عليه، وتقاعسِه عن الكمالِ وهو من القادرين. ينضم إلى ذلك فقدانُ الرفقِ في القولِ والعملِ، وشيوعِ القسوةِ في التعاملِ، والمبالغةِ في الخصامِ، وتحولِ الآدابِ والتعاملِ إلى قشورٍ يُطلُّ من ورائِها الرياءُ والمجاملاتُ الكاذبةُ.

ويدركك العجزُ وأنت تعدِّدُ الكمَّ الهائلَ من النقائِصُ والمثالبِ.

أيها الإخوةُ: إن كثيراً مما يتحاور فيه أبناءُ الأممِ الضعيفةِ من المنتسبين إلى الفكرِ والثقافةِ والرأي والخوضِ في شؤون

---

(١) أي: يضعف.

المجتمعِ من النساءِ والرجالِ كاتبين وكاتباتٍ ومتحدثين ومتحدثاتٍ؛ أن كثيراً من حوارهم لا يساعدُ على تقويم خلقٍ أو تهذيبِ سلوكٍ، إن كثيراً من القراءاتِ المتاحةِ للناسِ بلاءٌ تختنقُ الفضائلُ في ضجتِه، وتذوبُ الأخلاقُ في أزمتِه.

ماذا تقولُ لأناسٍ يهشون للمنكرِ، ويودون لو نبت الجيلُ في حمأتِه؟؟.

وماذا تقولُ لأناسٍ تفرزُ سطورُهم مقتاً للأصيلِ من أصولِهم والمجيدِ من تراثِهم. اتِّباعُ الهوىٰ أرجحُ عندهم من اتباعِ العقلِ، وبريقُ التقدم الكاذبُ أقوىٰ من سلطانِ الدينِ والشرعِ، ولهؤلاءِ قدرةٌ عجيبةٌ في إلباسِ أهوائِهم وشهواتِهم ثوبَ الحقِّ والعمومية، وتحقيقِ مآربِهم باسمِ الوطنيةِ والمصلحةِ والاجتماعيةِ.

أيها الإخوةُ: لا يقالُ هذا الكلامُ جُزافاً؛ وإن من الأمثلةِ الماثلةِ والشواهدِ الحيةِ على هذه الطروحاتِ والتناولاتِ في بعضِ المؤلفاتِ والكتابِ في بعضِ البلدانِ الإسلاميةِ حديثُهم الذي لا يكلُّ عن المرأةِ وشؤونِها، وحقِّها وحقوقِها، والمصارعةِ من أجلِها كما يقولون أو كما يصورون.

والموضوعُ أيها الإخوةُ يحتاجُ إلى تجليةٍ والنظرِ في بواعثِ الموضوعِ في كثيرٍ من أصقاعِ الدنيا بزعمِ تحريرِ المرأةِ واعادةِ حقوقِها إليها.

أيها الإخوةُ: وفي عودةٍ إلى أصولِ الموضوعِ وجذورِه وبواعثِه ومثيراتِه لابد من التذكيرِ بالتاريخِ الذي تنبعثُ منه دعوةُ هؤلاءِ.

أيها الإخوةُ: إنه تاريخُ الحركةِ النسويةِ أو الحركةِ الأنثويةِ.

إن هذه الحركةَ مذهبٌ جيءَ به لكي يُفرضَ ويسودَ العالمَ كلَّه ويحلَّ محلَّ العقائدِ والأديانِ والمذاهبِ سماويةً أو غيرِ سماويةٍ.

إن هذا المذهبَ النسويَّ جاءَ على النهجِ الذي اختطَّه الغربُ العلمانيُّ لنفسِه حينما تخلىٰ عن الدينِ وابتدعَ عقائدَ ومذاهبَ من الوجوديةِ والتنويريةِ والعقلانيةِ والشيوعيةِ والاشتراكيةِ وغيرِها.

وكلُّها مذاهبُ تنطلقُ من رفضِ الوحي وإنكارِ اللهِ جلَّ في علاه، وتجعلُ الإنسانَ إله نفسِه ومُشرِّعَ حياتِه، وأغلبُ هذه الحركاتِ تساقطتْ واندثرتْ وأصبحت حديثاً في الغابرين .

إن النسويةَ حركةٌ قامتْ على أنقاضِ تلك الحركاتِ مستخدمةً في ذلك مبادئِها.

قامتْ على ما يسمونه تحطيمَ المطلقِ، ويريدون به هزَّ الأسسِ الفكريةِ والمبادىءِ الأساسيةِ التي يقوم عليها المجتمعُ ونسفها من أجل إقامة ما يريدون من أفكارٍ هدامةٍ.

قامت على الشعورِ بالذاتيةِ المنعزلةِ المتمردةِ والتي تتخذُ من معاداةِ الرجلِ في حربٍ مستعرةٍ وتُعَامِلُه كجنسٍ شيطانيٍّ شريرٍ.

قامت على أن بناءِ المجتمعِ على الفردِ وليس على الأسرةِ والعائلةِ، ولهذا فإن الحديثَ والخططَ والسياساتِ التي ترسمُ للمجتمعِ والأمةِ عندهم تبنىٰ على الفردِ ولم يعدْ للعائلةِ ولا للأسرةِ شأنٌ يذكرُ في خضمِّ دراساتِهم. فالفردُ بفرديتِه هو المقصودُ رجلاً كان أو امرأةً. وهكذا تبدلتْ المفاهيمُ والقيمُ وشاعتْ هذه الحريةُ التي يزعمون وينادون ويتبنَّون، فصارتْ المرأةُ لا تعني زوجةً ولا أماً ولا أختاً ولا بنتاً، ولم يعدْ الرجلُ

أباً أو أخاً أو ابناً، ليس هناك انتسابٌ وثيقٌ إلى هذا الكيانِ العائلي.

بل أصبحَ وأصبحتْ زملاءَ دراسةٍ وأصدقاءَ عملٍ وخلائلَ وأخداناً، ولم يعدْ ينظر في الحسابِ إلى الزواجِ وإقامةِ البيوتِ، فغرائزهم ملباةٌ دون مسؤولياتٍ تُلقىٰ على العواتقِ والكواهلِ؛ وكلٌّ حرٌّ في التنقلِ بين أحضانِ من يشاءُ.

إن هذه الحركةَ النسويةَ نشطتْ في قلبِ القيمِ وعكسِ المفاهيمِ، وارتبطتْ بمصالحَ ماديةٍ واعلاميةٍ وتياراتٍ اجتماعيةٍ تعادي الدينَ والعقائدَ، وتروجُ للالحادِ والإباحيةِ والشذوذِ الجنسيِّ، وهكذا يتجسدُ مفهومُ تحريرِ المرأةِ في منهجهم في صنع امرأةٍ مشاكسةٍ عدوانيةٍ محاربةٍ لجنس الرجالِ قد تقبلُ من التعاليمِ السائدةِ ما تراه يُكرِّسُ لها حقوقاً، ولكنها ترفضُ ما ترى أنه واجباتٌ ومسؤلياتٌ.

إنها دعوةً إلى تحرير المرأةِ كما يزعمون، ولكنها دعوةٌ إلى تحريرِ الوصولِ إلى المرأةِ.

انعتقوا من كلِّ الروابطِ والقيمِ والمسؤولياتِ الأسريةِ، والحقوقِ الاجتماعية، وحوَّلوا العلاقاتِ العائليةِ إلى وظيفةٍ رتيبةٍ أشبهَ بمحاضنِ تفريخٍ. عزفَ الرجالُ عن الزواجِ لوجودِ سبلٍ محرمةٍ يشبعون من خلالها غرائزَهم دون تحملٍ لما يترتبُ على الزواجِ الشريفِ من أعباءٍ ومسؤلياتٍ.

أيها الإخوةُ: لقد أصبحتْ النَّسويةُ مذهباً ومبدأً يكافحُ عنه أناسٌ وينافحون، يعقدون له المؤتمراتِ والندواتِ ويمتطون من

أجلِها صهواتِ المنظماتِ والهيئاتِ من حقوقِ الإنسانِ وغيرِها.

ومع الأسفُ أيها الإخوةُ: فإن هذه المبادىءَ لا ينادي بها ولا يدافعُ عنه ولا يتحمسُ لها في كثيرٍ من بلادِ المسلمين إلا النخبُ العلمانيةُ ذاتُ الهيمنةِ على مجرياتِ الفكرِ في بلادِها.

إن المُعَشْعِشَ في عقولِ هؤلاءِ أن التقدمَ العلميَّ والسباقَ التقنيَّ لن يتحققَ إلا على انقاضِ الفضيلةِ والإيمانِ والالتزامِ بأحكامِ الإسلامِ.

إنها الهزيمةُ النفسيةُ والانكسارُ الداخليِّ، وحينما يُبتلىٰ المرءُ بذلك فإنه يُفقدهُ القدرةَ على التمييزِ بين الحقِّ والباطلِ.

إن الداعين والداعياتِ إلى تحرير المرأةِ على الطريقةِ العلمانيةِ في أوطانِ المسلمين إنما ينشدون مُحالاً من الأمرِ فهم وهنَّ في عناءٍ مستمرٍ في سبيلِ الوصولِ إلى مُركَّبٍ يجمعُ لهم الخيرَ والشرَّ والحقَّ والباطلَ في آنٍ واحدٍ. إن الإسلامَ الذي جاءَ شاملاً من عندِ اللهِ كاملاً كما جاء واضحاً جلياً لا يمكنُ أن يُمتطىٰ بمثلِ هذه الأساليبِ. إنهم يحاولون بأيدٍ مرتعشةٍ التوفيقِ بين أهوائِهم وانهزامِهم وتطويعِ بعضِ النصوصِ الشرعيةِ.

والحقُّ أن المسألةَ دائرةٌ بين أمرين لا ثالثَ لهما إما الإسلامُ كلُّه أو التبعيةُ المنهزمةُ.

إنهم في نظرتهم يريدون امرأةً نداً لرجلٍ ومماثلاً له ومناوئاً له ومتصارعاً معه.

وفي نظرةِ ديننا هي شقيقةُ الرجلِ وشقُّهُ ومتمِّمتُهُ ومتمِّمُها.

هو رجلٌ محتفظٌ برجولتِه وهي امرأةٌ متميزةٌ بأنوثتِها.

المرأة في مسلكهم آلتْ إلى سلعةٍ في سوقِ النخاسين في دُورِ الأزياءِ وعروضِها، وغانيةٍ في سوقِ الملذاتِ والشهواتِ، يستعبُدها الرجلُ الذي يزعمُ تحريرَها؛ يستمتعُ بها لأنه لا يريد حريتَها ولكنه يريدُ حريةَ الوصولِ إليها.

وفي نظرِ دينِنا لا يجوزُ أن يكونَ تأمين العيشِ ولا مكافحةِ الفقرِ ولا محاربةِ الجهلِ على حسابِ العرضِ والشرفِ، وفي ضياع الشرفِ ضياعُ العالم لو كانوا يعقلون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: ١٠٣].

ليس من حقوقِ المرأةِ في دينِنا حقُّ الزنا، وحقُّ الحملِ من سفاحٍ، وحقُّ الشذوذِ والسحاقِ، وليس من حقها أن ترفضَ الدين وأحكامَه، وتقولُ أنه متخلفٌ ومعادٍ للمرأةِ وقيدٌ على حريتِها، حقوقُ المرأةِ مقرونةٌ بمسؤولياتِها في الأمومةِ ورعايةِ الأسرةِ، حقوقُ المرأةِ تؤخذُ وتمارسُ من خلالِ الحشمةِ والأدبِ، محوطةٌ بسياجِ الإيمانِ باللهِ في أمةٍ واحدةٍ متكاتفةٍ متآلفةٍ وليستْ متنازعةً متصارعةً ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ..﴾ [آل عمران: ١٩٥] ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧].

أما المرأةُ عندهم ذاتُ الحقوقِ فهي المتمردةُ على بيتِها وأطفالِها وشؤونِ منزلِها، لأنهم يقولون إن خدمتَها في بيتِها مجانيةٌ عملٌ غير منتج. فالتحريرُ لا يتمُّ إلا بالتدميرِ تدميرِ الأسرةِ وتدميرِ القيمِ.

ألا شاهتْ الوجوهُ وسُدَّتْ الأفواهُ؛ تربيةُ النشءِ وحفظُ الكرامةِ والاستقرارُ العائلي والهدوءُ النفسيُّ ليس له مردودٌ وغيرُ منتجٍ، هكذا قاسَ قائِسهم وقدَّرَ مقدِّرُهم ألا قُتل كيفَ قدرَ، ثم قُتل كيفَ قدر؟؟؟.

أيها الإخوةُ: وإنكم لتعلمون ويعلمُ كلُّ عاقلٍ منصفٍ أن المراةَ التي أخرجوها من خدرِها وقرارِها المكين مهما تحدثوا عنها وأعطوها ومنحوها ودافعوا عنها فقد جعلوها في الصفوفِ الخلفيةِ في الأهميةِ والقدرةِ والمرتَّبِ والطاقةِ مهما بذلتْ بنتُ حواءَ من جُهدٍ وعَرَقٍ وساعاتِ عملٍ.

لماذا فعلوا ذلك؛ لأن موازينَهم ماديةٌ بحتةٌ، وأصحابُ رؤوس الأموالِ وأربابُ المصانعِ والمتاجرِ لا يؤمنون إلا بالنفعيةِ، ومادام أن المرأة خرجتْ من بيتِها واحتاجتْ إلى العملِ فلماذا لا تُستغلُّ؛ ويُحققُ فائضُ الربحِ من خلالِها؟؟.

ومن ثمَّ كان لزاماً على المرأة المسكينةِ أن تواجه بمفردِها جفافَ هذا المجتمعِ وغلظَ هذا التعاملِ؛ أصبحتْ الضحيةَ الأولى التي تنعكسُ عليها تناقضاتُه وعيوبُه، فهي راكضةٌ لاهثةٌ، تركضُ في مبدأ حياتِها لتتعلمَ، ثم تركضُ لتعملَ وتكسبَ وتعيشَ، ثم تركضُ وراءَ الأزياءِ ولفتِ الأنظارِ لعلها أن تجدَ من يلتفتُ إليها بلا عقدٍ ولا ميثاقٍ غليظٍ. وهكذا تعيشُ حاضراً لا طعمَ له، ومستقبلاً مكشراً تُلقي بنفسِها بين فكيهِ وحيدةٍ منبوذةً. وما هي إلا افرازاتِ البيوتِ الخربةِ والمسئوليةِ الضائعةِ حين ألقاها الرجالُ عن كواهلهم فهل تنبه لذلك الغافلون، وليت فئاتٍ من القومِ يعلمون؟؟.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

المرأة ودعوى التحرير

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيلُ، أحمدُه سبحانه وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفره، وأعوذ بالله من الزيغِ والتبديلِ. وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدُه لا شريك له، وهو حسبنا ونعم الوكيلُ، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه؛ أمر بالصدقِ والعفافِ وكلِّ خلقٍ جميلٍ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه في كلِّ بكرةٍ وأصيلٍ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ أيها الإخوةُ: هذه هو نداءُ التحريرِ عندهم، مبادىءُ علمانيةٌ ماديةٌ أغرقتْ الإنسان في الضياعِ والرذيلةِ والعبثيةِ، الأمرُ الذي أدىٰ إلى فقدِ الإنسانِ المعاصرِ للقيمةِ والهدفِ الغايةِ.

لقد أصبح تائِها ضائِعاً بين مبادىء وأفكارٍ ونظرياتٍ وفلسفاتٍ كلُّها تصبُّ في بوتقةِ الماديةِ والشهوانيةِ بكلِّ صورِها وأبعادِها وألوانِها.

ولْيعلمْ من لا يعلمُ أن الباقيَ هو نداءُ الفطرةِ التي فطرَ اللهُ الناسَ علَيها، إنه نداءُ الفطرةِ الذي يقولُ: إن الرجلَ يبحثُ عن المرأةُ التي تعمرُ البيتَ بوجودِها وحركتِها وعملِها، وليستْ المرأةَ التي تملأُ المعاملَ والمصانعَ والمكاتبَ والشوارعَ وتخلِّفُ وراءَها

بيتاً يفترسُه الفراغُ والخرابُ.

إنه نداءُ الفطرةِ الذي يقولُ: أن المرأةَ تبحثُ عن الرجلِ الكريمِ الشريفِ الذي يقفُ إلى جانبِها في مسارِ حياتِها شابةً وامرأةً وسيِّدةً محترمةً وهو سكنٌ لها وهي سكنٌ له: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] إنها أمُّ بنيه وبناتِه، يرعاها ويرعىٰ أولادها ويصلُ رحمَها، وليس هو الرجلَ الذي يُعجبُ بها لحظةً خاطفةً ومتعةً عابرةً ثم ينبذُها إلى غيرِ رجعةٍ.

هذا هو النداءُ وما عدا ذلك فزيفٌ وتصنُّعٌ وجهلٌ وعَمىً وظلمٌ وإفكٌ مبينٌ.

وبعدُ أيها الإخوةُ: فمن أرادَ مثالاً حياً وطريقاً تُحتذىٰ جمعتْ بين تعاليم الإسلام وآدابِ الدينِ واستوعبتْ المفيدَ من الجديدِ فلينظرْ للإنموذجِ الذي تتبعه بلادُ الحرمين الشريفين من الحفاظِ على المرأةِ، في حشمتِها، مع توفيرِ كلِّ أمكاناتٍ ممكنةٍ تعليماً وعملاً، بطريقةٍ منظمةٍ منتظمةٍ، فلهنَّ ميادينُهنَّ ومجالاتُهن في التعليم والعملِ والادارةِ، ميادينُ تتمكنُ منها المرأةُ أن تعطي العطاءَ المطلوبَ مجتنبةً الويلاتِ التي يعاني منها المستسلمون والمتخاذلون والمخذولون لصرخاتِ التحريرِ الكاذبةِ الكافرةِ الماكرةِ.

لم يكنْ ذلك هنا لولا توفيقُ اللهِ سبحانه ثم التوجهُ المخلصُ والصادقُ والمدروسُ من القيادةِ حفظها الله والقائمين على شؤون المرأة وفقهم الله تعليماً وعملاً؛ منطلقاتٌ من هدي كتابِ اللهِ

وسنةِ رسولِه محمدٍ ﷺ.

إنه التنظيمُ والترتيبُ الذي يحفظُ البلادَ وأهلَها من الانزلاقِ في أوحالِ الاختلاطِ وأخطارِه المريرةِ.

ولا نزالُ ولله الحمدُ نرى آثارَه الخيرةَ طُهراً وعفةً ونقاءً، ولن ترضىٰ هذه البلادُ بغيرِ هذا النهجِ بديلاً مهما نعقَ الناعقون واستبطنِ المكرَ المستبطنون. بارك اللهُ في الجهودِ وسددَ الخطىٰ وهدىٰ إلى الحقِّ والطريقِ المستقيمِ.

ألا فاتقوا الله رحمكم الله واستمسكوا بأهداب دينِكم.

العدل أساس قيام الدول وسعادة الأمم

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ يمنُّ بالفضلِ ويقضي بالحقِّ، ويحكمُ بالعدلِ، إن ربِّي على صراطٍ مستقيم، أحمده سبحانه وأشكره وأتوبُ إليه وأستغفره وهو الغفورُ الرَّحيمُ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله المبعوثُ للأحمرِ والأسودِ، هدى بإذن ربه إلى أقومِ طريقٍ وأعدلِ سبيلٍ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فيا أيُّها الناسُ أوصيكم ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فاتقوه رحمكم اللهُ، وأحسنوا فهو سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

أيها المسلمون: احترامُ العدلِ تقليدٌ تتوارثُه الأممُ المحترمةُ، وتقيمُ له الضماناتِ، وتبني له السياجاتِ، من أجل أن يرسخَ ويستقرَّ.

وإن الحضاراتِ الإنسانيةَ لا تبلغُ أوجَ عزِّها، ولا ترقىٰ إلى عزِّ مجدِها إلا حين يعلو العدلُ تاجَها، ويتلألأ به مَفْرِقُها. تبسطُهُ على القريبِ والغريبِ، والقويِّ والضعيفِ، والغنيِّ والفقيرِ،

والحاضرِ والبادِ.

العدلُ تواطأتْ على حسنه الشرائعُ الإلهيةُ، والعقولُ الحكيمةُ، والفطرُ السويةُ. وتمدَّح بادعاءِ القيامِ به ملوكُ الأممِ وقادتُها، وعظماؤُها وساستُها.

حُسْنُ العدلِ وحبُّهُ مستقرٌ في الفطرِ، فكلُّ نفس تنشرحُ لمظاهرِ العدلِ مادامتْ بمعزلٍ عن هوىً يغلبُها في قضيةٍ خاصةٍ تخصُّها.

لقد دلَّتْ الأدلةُ الشرعيةُ وسننُ اللهِ في الأولينِ والآخرين أن العدلَ دعامةُ بقاءِ الأمم، ومُسْتقرُّ أساساتِ الدولِ، وباسطُ ظلالِ الأمنِ، ورافعُ أبنيةِ العزِّ والمجدِ، ولا يكون شيءٌ من ذلك بدونه.

القسطُ والعدلُ هو غايةُ الرسالاتِ السماويةِ كلِّها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

إن أيَّ أمةٍ تعطلتْ من هذه الخلَّةِ الجليلةِ فلا تجدُ فيها إلا آفاتٍ جائحةٍ، وزايا قاتلةً، وبلايا مهلكةً، وفقراً مُعْوزاً، وذِلاً معجزاً، ثم لا تلبثُ بعد ذلك أن تبتلعها بلاليعُ العدمِ وتلتهمها أمهاتُ اللَّهم(١).

بالعدلِ قامتْ السمواتُ والأرضُ، وللظلم يهتزُّ عرشُ الرحمن. العدلُ مفتاحُ الحقِّ، وجامعُ الكلمةِ، ومؤلفُ القلوبِ.

---

(١) اللَّهم: المنايا والحتوف.

إذا قام في البلادِ عمَّرَ، وإذا ارتفعَ عن الديار دمَّرَ. إن الدولَ لتدومُ مع الكفرِ مادامتْ عادلةً، ولا يقوم مع الظلمِ حقٌ ولا يدومُ به حكمٌ.

أيُّها الإخوةُ: العدلُ في حقيقتِه تمكينُ صاحبِ الحقِّ ليأخذَ حقَّهُ. في أجواءِ العدلِ يكونُ الناسُ في الحقِّ سواءً لا تمايزَ بينهم ولا تفاضلَ، بالعدلِ يشتدُّ أزرُ الضعيفُ ويقوىٰ رجاؤه، وبالعدلِ يهون أمرُ القويِّ وينقطعُ طمعُه. ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٩].

أيها الإخوةُ في الله: وإن أمةَ الإسلام هي أمةُ الحقِّ والعدلِ، والخيرِ والوسطِ، نصبها ربُّها قوامةً على الأممِ في الدنيا، شاهدةً عليهم في الآخرىٰ، خيرُ أمةٍ أخرجتْ للناسِ، يهدونَ بالحقِّ وبه يعدلون، يتواصون بالحقِّ وبالصبرِ، ويتنافسون في ميادينِ الخيرِ والبرِّ، ويتسابقون إلى موجباتِ الرحمةِ والأجرِ.

أمةٌ أمرها ربُّها بإقامةِ العدلِ في كتابهِ أمراً محكماً وحتماً لازماً: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

لا أعدلَ ولا أتمَّ ولا أصدقَ ولا أوفىٰ من عدلِ شريعةِ اللهِ، فهي مبنيةٌ على المصالحِ الخالصةِ أو الراجحةِ، بعيدةٌ عن أهواءِ

الأممِ وعوائدِ الضلالِ، لا تعبأ بالأنانيةِ والهوىٰ، ولا بتقاليدِ الفسادِ. إنها لمصالحِ النوعِ البشريِّ كلِّه ليس لقبيلةٍ أو بلدٍ أو جنسٍ.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورىٰ: ١٥].

إن الإسلامَ صدقٌ كلُّه، وعدلٌ كلُّه، خبرُهُ صدقٌ وحكمهُ عدلٌ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

عدلُ الإسلامِ يسعُ الأصدقاءَ والأعداءَ، والأقرباءَ والغرباءَ، والأقوياءَ والضعفاءَ، والمرؤسين والرؤساءَ. عدلُ الإسلامِ ينتظمُ كلَّ ميادينِ الحياةِ ومرافقِها ودروبِها وشؤونِها. في الدولةِ والقضاءِ، والراعي والرعيةِ، والأولادِ والأهلين. عدلٌ في حقِّ اللهِ، وعدلٌ في حقوقِ العبادِ في الأبدانِ والأموالِ، والأقوال والأعمالِ. عدلٌ في العطاءِ والمنعِ، والأكلِ والشربِ. يُحقُّ الحقَّ ويمنعُ البغيَ في الأرضِ وفي البشرِ. «**كلُّكُم راعٍ وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيتِه**»[1].

وفي الحديثِ الآخرِ: «**ما من أحدٍ يكونُ على شيءٍ من أمورِ هذه الأمةِ فلم يعدلْ فيهم إلا كبَّهُ اللهُ في النارِ**» أخرجه الحاكمُ

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٢/ ٤٤١ ـ ح٨٩٣)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩ ـ ح١٨٢٩).

وقال صحيح الإسنادِ من حديثِ بن يسارٍ رضي الله عنه.

وإن من أولىٰ ما يجبُ العدلُ فيه من الحقِّ حقُّ اللهِ سبحانه في توحيدِه وعبادتِه، وإخلاصِ الدينِ له كما أمرَ وشرعَ خضوعاً وتذللاً، ورضاً بحكمِه وقدَرِه، وإيماناً بأسمائِه وصفاتِه. وأظلمُ الظلمِ الشركُ باللهِ عز وجل، وأعظمُ الذنبِ أن تجعل لله نداً وهو خلقكَ.

ثم العدلُ في حقوقِ العبادِ تؤدَّىٰ كاملةً موفورةً، ماليةً أو بدنيةً، قوليةً أو عمليةً. يؤدِّي كلُّ والٍ ما عليه مما تحتَ ولايتِه في ولايةِ الإمامةِ الكبرىٰ ثم نوابُ الإمامِ في القضاءِ والأعمالِ في كلِّ ناحيةٍ أو مرفقٍ.

في الحديثِ الصحيحِ: **«إن المقسطينَ عند اللهِ على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمنِ ـ وكلتا يديه يمينٌ ـ الذين يعدِلون في حكمِهم وفي أهليهم وماوُلُّوا»**[1].

وإن ولاةَ أمورِ المسلمين حقٌّ عليهم أن يقيموا العدلَ في الناسِ. وقد جاءَ في مأثورِ الحكمِ والسياساتِ: لا دولةَ إلا برجالٍ، ولا رجالٍ إلا بمالٍ، ولا مالَ إلا بعمارةٍ، ولا عمارةَ إلا بعدلٍ.

حكمٌ كلُّه عدلٌ ورحمةٌ في خفضِ الجناحِ ولينِ الجانبِ، وقوةِ الحقِّ، عدلٌ ومساواةٌ تكون فيه المسئولياتُ والولاياتُ والأعمالُ

---

(١) أخرجه مسلم (٣/١٤٥٨ ـ ح١٨٢٧) واللفظ له، والنسائي (٨/ ٢٢١)، وأحمد (٢/ ١٦٠).

والمهماتُ تكليفاً قبل أن تكون تشريفاً، وتبعاتٍ لا شهواتٍ، ومغارمَ لا مغانم، وجهاداً لا إخلاداً، وتضحيةً لا تحليةً، وميداناً لا ديواناً، وأعمالاً لا أقوالاً، وإيثاراً لا استئثاراً. انصافٌ للمظلومِ، ونصرةٌ للمهضومِ، وقهرٌ للغَشُومِ، وردعٌ للظَّلُومِ، رفعُ المظالمَ عن كواهلِ المقروحةِ أكبادُهم، وردُ الاعتبارِ لمنَ أذلَّهم البغيُ اللئيمُ، لا تأخذُهم في الحقِّ لومةُ لائم، ولا تعويقُ واهمٍ، وإن حَدًّا يقامُ في الأرضِ خيرٌ من أن يُمطروا أربعينَ صباحاً.

وفي مثلِ هذا صحَّ الخبرُ عنه ﷺ أنه قال: «**أهلُ الجنةِ ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مُقْسطٌ متصدق موفقٌ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلبِ لكلِّ ذي قُربىٰ، ومسلمٌ عفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ**»[1]. **والإمامُ العادلُ سابعُ سبعةٍ يظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه**»[2].

أما نزاهةُ القضاءِ ونقاءُ ضمائرِ القضاةِ فحسبُك به من عدلٍ وقسطٍ، صاحبُ الحقِّ في جوِّ القضاءِ العادلِ يشعرُ بالثقةِ والأمانِ، في أروقةِ المحاكم وفي دواوينِ القضاءِ، مطمئنٌ إلى عدالةِ القضيةِ ونزاهةِ الحكم وشرفِ سرائرِ الحكامِ. والمتهمُ بريءٌ حتى تثبتَ إدانتُه ولأنْ يَخطيءُ الحاكمُ في العفوِ خيرٌ من أن يخطيء في العقوبةِ، هذا تعرفه دنيا الحضاراتِ ودينُ أهلِ الإسلامِ. القاضي العادلُ يواسي الناسَ بلحظِه ولفظِه، في وجههِ ومجلسِهِ، لا يطمعُ شريفٌ في حيفِه، ولا ييأسُ ضعيفٌ من

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٨ ـ ح٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).
(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٢/ ١٦٨ ـ ح٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥ ـ ح١٠٣١).

عدلِه، لا يميلُ مع هوىً، ولا يتأثرُ بودٍ، ولا ينفعلُ مع بغضٍ. لا تتبدلُ التعاملاتُ عنده مجاراةً لصهرٍ أو نسبٍ، ولا لقوةٍ أو ضعفٍ، يزنُ بالقسطاس، وبالعدلِ يقضي. يُدني الضعيفَ حتى يشتدَّ قلبُه وينطلقَ لسانُه، ويتعاهدُ الغريبَ حتى يأخذَ حقَّه، وما ضاعَ حقُّ غريبٍ إلا من ترويعِه وعدم الرفقِ به.

جاءَ في الخبرِ عنه ﷺ: «**إن اللهَ مع القاضي ما لم يَجُرْ فإذا جارَ تخلَّىٰ اللهُ عنه ولزمَه الشيطانُ**»(١)، وفي رواية الحاكم: «**فإذا جارَ تبرأ اللهُ منه**»(٢).

أيُّها الإخوةُ: عدلٌ في كلِّ ميدانٍ، وقسطٌ يكفلُ الحقَّ للناس كلِّ الناس ولو كان من غيرِ المسلمين والأعداءِ المناوئين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨]. هذا هو العدلُ العالميُّ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ منذ أكثرَ من أربعةَ عشرَ قرناً عدلٌ يتمُّ فيه ضبطُ النفس والتحكمُ في المشاعرِ. إنه القمَّةُ العُليا والمرتقىٰ الصعبُ الذي لا يبلغُه إلا من رضيَ باللهِ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، وبدينِه دستوراً وحُكماً. إنه عدلُ محمدٍ ﷺ، مكيالٌ واحدٌ وميزانٌ واحدٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي واللفظ له (٣/ ٦١٨ ـ ح١٣٣٠) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ٧٧٥ ـ ح٢٣١٢).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣) وقال: حديث صحيح الاسناد ووافقه الذهبي.

ولقد انتظرَ بكم الزمانُ ـ أيُّها الإخوةُ ـ وطالتْ بكم الحياةُ حتى رأيتُم أمماً أتاها اللهُ بسطةً في القوةِ والسيطرةِ فما أقامتْ عدلاً، ولا حفِظتْ حقاً، ويلٌ لهم وما يطِّففون، إذا اكتالوا لأنفسهم يستوفون، وإذا كالوا لغيرهم أو وزنوهم يُخسرون. ولكنَّ هدي محمد ﷺ يأبىٰ إلا الحقَّ: ﴿... وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. إن الأمةَ لا تصلُ إلى هذا القدرِ من السموِّ ونصبِ ميزانِ العدلِ إلا حينما تكون قائمةً بالقسط لله خالصةً مخلصةً، قد تلبستْ بلباس التقوىٰ: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

والفئةُ الباغيةُ إذا فاءتْ إلى أمرِ اللهِ ودخلتْ في الطاعةِ فإن حقَّها في العدلِ محفوظٌ: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

والعدلُ ـ أيُّها الإخوةُ ـ كما يكون في الأعمالِ والأموالِ فهو مطلوبٌ في الأقوالِ والألفاظ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. ولعلَّ العدلَ في الأقوالِ أدقُّ وأشقُّ. وصاحبُ اللسانِ العدلِ يعلمُ أن اللهَ يحبُّ الكلامَ بعلمٍ وعدلٍ، ويكرهُ الكلامَ بجهلٍ وظلم: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

تأمّلوا هذا الانصافَ النبويَّ في القولِ حينما أعلنَ النبيُّ ﷺ حكمَهُ على كلمةٍ قالها شاعرٌ حالَ كفرِه حينَ قال عليه الصلاةُ والسلامُ:

«**أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلٌ**»[1]. ثم ها هو صاحبُه عثمانُ بن مظعونٍ رضي الله عنه يسمعُ البيتَ كاملاً؛ يترسمُ النهجَ نفسَه في التقويم والعدلِ فيُحقُّ الحقَّ ويقولُ القسطَ فقال في شطرِه الأولِ صدقْتَ، ولما قالَ الشطرَ الثاني: (وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلٌ) قال: كذبتَ، نعيمُ الجنةَ ليس بزائلٍ. أيها الأخوةُ: لم يكنْ كذبُ الشاعرِ في الشطرِ الثاني بمانع عثمانَ رضي الله عنه من أن يُقِرَّ لهُ بالصدقِ والحقِّ في شطرِه الأولِ.

وهذا عليٌّ رضي الله عنه يقاتلُ من خرَجَ عليه، فلما سُئِلَ عنهم: أمشركون هم؟ قال: هم من الشركِ فروا. قيلَ أفمنافقون همْ؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون اللهَ إلا قليلاً. قيل: فما همْ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: هم إخوانُنا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيِهم؟؟.

ومن لغيرِ هذا العدلِ من القولِ غيرُ أبي الحسنِ رضي اللهُ عنهُ وعن ذريتِه الطيبين الطاهرين؟؟ وهل بعد هذا الانصافِ من انصافٍ؟؟.

والنوويُّ رحمهُ اللهُ يقولُ: وينبغي ذكرُ فضلِ أهلِ الفضلِ ولا يمنعُ منه شنآنٌ أو عداوةٌ. والعبدُ إذا رزقَ العدلَ وحُبَّ القسطِ علم الحقَّ، ورحِمَ الخلقَ، واتبعَ الرسولَ، واجتنبَ مسالكَ الزيغَ والبدعِ، هكذا يقولُ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله.

أيها الإخوةُ: إذا ساد العدلُ حُفِظتْ الحقوقُ، ونُصِرَ المظلومُ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣ ـ ح٣٨٤١)، ومسلم (٤/ ١٧٦٨ ـ ح٢٢٥٦).

وولتْ الهمومُ، وأدبرتْ الغمومُ.

أما حينما يتجافىٰ الناسُ عن العدلِ ويقعون في حمأةِ الظلمِ ينبتُ فيهم الحقدُ والقطيعةُ والفُرقةُ وذهابُ الريحِ.

من تجافىٰ عن العدلِ دخلَ دائرةَ الظلمِ، يأخذُ ولا يعطيْ، ويطلبُ لا يبذلُ، يأخذُ الذي لا يستحقُّ، ويمتنعُ عمَّا يَحِقُّ، تغلبُه مسالكُ المنافقين: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [النور: ٤٨ ـ ٤٩]. إن الحيفَ وسلبَ الحقوقِ وإهدارِ الكراماتِ مبعثُ الشقاءِ ومثارُ الفتنِ. إن قوماً يفشو فيهم الظلمُ والتظالمُ، وينحسرُ عنهم الحقُّ والعدلُ إما أن ينقرضوا بفسادٍ، وإما أن يتسلطَ عليهم جبروتُ الأممِ يسومونُهم خسفاً، ويستبدون بهم عسفاً، فيذوقونَ من مرارةِ العبوديةِ والاستذلالِ ما هو أشد من مرارةِ الانقراضِ والزوالِ. إن الظلمَ خرابُ العمرانِ، وخرابُ العمرانِ خرابُ الأممِ والدولِ.

اللَّهم إنا نسألُك خشيتَكَ في الغيبِ والشهادةِ، وكلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرضا، ونسألك القصدَ في الفقرِ والغنىٰ، ونسألك نعيماً لا ينفدُ وقرةَ عينٍ لا تنقطعُ، ونسألكَ الرضا بعد القضاءِ، ونسألك برْدَ العيشِ بعد الموتِ ونسألك لذةَ النظرِ إلى وجهكَ الكريمِ في ضراءَ مضرةٍ ولا فتنةٍ مضلةٍ، اللهم زينا بزينةِ الإيمانِ، واجعلنا هداةً مهتدين استجب اللهم يارب العالمين.

العدلُ أساس قيام الدول وسعادة الأمم

الخطبة الثانية

الحمد لله شمَلَ الأنامَ بواسع رحمتِهِ، وصرَّفَ العالَمَ ببالغِ حكمتِه، لا يشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ وهو الحكيمُ الخبيرُ. أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدا عبده ورسوله، أصدقُ الناسِ في الأقوالِ، وأسدُّهم في الأفعالِ، وأعدلُهم في الأحكامِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه خير صحبٍ وآلٍ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المآلِ.

أما بعدُ فاتقوا اللهَ أيُّها الناسُ، واستقيموا إليه واستغفروه، وأعدوا من الأعمالِ الصالحةِ ما يقربُ لديه.

أيها الإخوةُ: وكما يكونُ العدلُ في الأبعدينَ فهو في الأهلين والأقربين حقٌّ وحتمٌ. وأحقُّ الناسِ بالعدلِ أبناؤك. فمن ابتغىٰ برَّ أبنائِه وبناتِه يحبُّونَه في حياتِه ويترَحَّمُون عليه بعد مماتِه وتصفوا قلوبُهم فيما بينهم فليتقِ اللهَ وليُقِمْ العدلْ فيما بينهم، يساوي بينهم في العطيَّةِ والمعاملةِ والنظرةِ والابتسامةِ. وليتقْ اللهَ أولئكَ الذين يحرمون بعضَ المستحقين من الذريةِ في عطيةٍ أو وصيةٍ فذلك حرامٌ وجورٌ وظلمٌ، والوصيةُ به وصيةُ ظلمٍ وجنفٍ، مخالفةٌ للعدلِ والحقِّ لا يجوزُ نفاذُها، فتلك أفعالٌ شنيعةٌ، وظلمٌ

مهلكٌ، تقوم به الخصوماتُ، وتثورُ به الأحقادُ، وتقعُ به المظالمُ، وتتقطعُ به الأرحام.

عن النعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه أن أباه أتى به رسولَ اللهِ ﷺ فقال: «إني نحلتُ ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسولُ الله ﷺ: **أفعلتَ هذا بولدِك كلِّهم؟** قال: لا. قال عليه الصلاة والسلامُ: **اتقوا اللهَ واعدلوا في أولادِكم**. قال: فرجعَ أبي فردَّ تلك الصدقةَ»[1]. وفي رواية: «**إن لبنيك عليك من الحقِّ أن تعدلَ بينهم، فلا تُشْهِدني على جور**[2]؛ **أيسرُّكَ أن يكونوا إليك في البر سواءً؟** قال: بلىٰ. **قال: فلا إذنْ**»[3] وفي رواية: «**سوُّوا بين أولادِكم في العطيةِ كما تحبون أن يسوُّوا بينكم في البرِّ**»[4].

والعدل في المعاملاتِ الزوجيةِ فرضٌ وحقٌ واجبٌ في النفقةِ والكسوةِ والمعاملةِ والعشرةِ كما يفعلُ الكرماءُ من ذوي العقلِ والدينِ والمروءةِ والكمالِ. تُطْعُمها مما تَطْعَمُ، وتكسوها مما تكتَسِي.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانتْ عنده امرأتان فلم يعدلْ بينهما جاء يومَ القيامةِ وشقُّه ساقطٌ**» وفي رواية «**وشقُّه مائلٌ**»[5].

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٠ ـ ح٢٥٨٧)، ومسلم (٣/ ١٢٤٢ ـ ح١٦٢٣).

(٢) أخرجها أحمد (٤/ ٢٦٩).

(٣) أخرجها مسلم (٣/ ١٢٤٤ ـ ح١٦٢٣) والنسائي (٦/ ٢٦٠)، وأحمد (٤/ ٢٦٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٨٦).

(٤) أخرجها الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٨٦).

(٥) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٤٧ ـ ح١١٤١)، والنسائي (٧/ ٦٣)، =

أيها الإخوةُ: حينما تُتشرَّبُ النفوسُ العدلَ فيكون سجيةً لها فإنه يقودُها إلى محاسنِ الأخلاقِ ومكارمِ المروءاتِ، عدلٌ في السلوكِ كلِّه، وسطٌ بين الإفراطِ والتفريطِ، جودٌ وسخاءٌ من غيرِ سرفٍ ولا تقتيرٍ، وشجاعةٌ وقوةٌ من غيرِ جبنٍ ولا تهوُّرٍ، وحِلمٌ وأناةٌ من غير غضبٍ ماحقٍ أو مهانةٍ مُرْديةٍ. وكلُّ تعاملٍ فقدَ العدلَ فهو ضررٌ وإضرارٌ، وفسادٌ وإفسادٌ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣].

وفي دينِنا أيُّها الإخوةُ: مرتبةٌ فوقَ العدلِ قد أمرَ اللهُ بها مقترنةً بالعدلِ. مرتبةٌ تأتي لتُجَمِّلَ حِدَّةَ العدلِ الصارمِ ووجَهه الجازمَ الحازمَ، إنها مرتبةُ الإحسانِ حين تدعُ البابَ مفتوحاً لمن يريدُ أن يتسامحَ في بعضِ حقوقِه إيثاراً لودِّ القلوبِ وشفاءً لغلِّ الصدورِ، ليداوي جَرحاً، ويكسبَ فضلاً، ويرتفعُ عند ربِّه درجاتٍ عُلا.

= وأبوداود (٢/ ٢٤٢ ـ ح٢١٣٣)، وأحمد (٢/ ٢٩٥).

ميزان السلام

الخطبة الأولى

الحمد للهِ المبدىءِ المعيدِ، الملكُ ملكُه، والخلقُ خلقُه، والأمرُ أمرُه، يحكمُ ما يشاءُ ويفعلُ ما يريدُ. أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأؤمن به وأتوكل عليه وأسأله من فضلِه المزيدَ. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كلِّ شيءٍ شهيد. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه شرَّفه بالعبودية والرسالةِ فهو أكرم الرسلِ وأشرفُ العبيد، منصورٌ بربِّ العزة قبل العَدَدِ والسلاحِ العتيدِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ. حجاجَ بيتِ اللهِ أيُّها المسلمون: أوصيكم ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فتقوىٰ اللهِ أعظمُ ما تزودتم، وأكرمُ ما أسررتم، وأجملُ ما أظهرتم، وأفضلُ ما ادخرتم، فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ، أعاننا اللهُ على لزومِها وكتب لنا ثوابَها.

أيها المسلمون: من هنا من بيتِ اللهِ الحرام، من البقاع المقدسةِ بلادِ الأمنِ والأيمانِ والسلام والإسلامِ. حيثُ نزلَ الوحيُ على نبيِّنا محمدٍ ﷺ من بلادِ الحرمين الشريفينِ، حيث انطلقتْ مبادىءُ حقوقِ الإنسانِ قبلَ أن يعرفَ عالمُ اليوم حقوقَ الإنسان. بل حقوقُ الإنسانِ والشجرِ والحيوانِ، من الحرمِ الحرامِ،

والبلدِ الحرامِ، وفي الشهرِ الحرامِ، من مواقعِ الصلح وحقنِ الدماءِ، من مواطنِ التضحيةِ والفداءِ، من بلادِ العفوِ والتسامح حيث أطلقَ نبيُّنا محمد ﷺ الطلقاءَ. في هذا البلدِ الطاهرِ ومن أجلِ كلِّ هذه المعاني هذه دعوةٌ لسكانِ العالم جميعاً ندعوهم بدعوةِ قرآننا، وبنداءِ كتابِ ربِّنا: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

إن قادةَ العالم يحدثونَنا عن نظام يحفظُ للعالم أمنَه واستقرارَه، وخيرَه وخيراتِه، ويمنُّونَنا بعالَمِ سلمٍ وسلامٍ تُجْتَنَبُ فيه ويلاتُ الحروبِ والصراعاتِ، هذه الحروبُ الشمطاءُ والصراعاتُ الكريهةُ التي لا ينتصرُ فيها غالبٌ ولا يستسلمُ فيها مغلوبٌ. يبشروننا بعالمٍ يحفُّه السلامُ ويسودُه الحبُّ والصفاءُ والوئامُ.

ندعوكُم دعوةً إلى دينِنا، فهو إيمانٌ وعملٌ، وعلمٌ وأمانٌ، ندعوكم للقراءةِ المنصفةِ، والاطلاعِ المتجردِ لترو: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]، ندعوكم لنظرٍ عادلٍ: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

أيُّها القادة أصحابَ القرارِ أيها الناسُ: دعوةٌ مخلصةٌ وأنتم ترونَ الصراعَ في هذا العالم يتفاقمُ، والاستغلالَ يتعاظمُ، والمطامعَ لا حدودَ لها، والموازينَ لا ضابطَ لها.

دعوةٌ صادقةٌ والبصيرُ يرىٰ أن من بيده القرارُ ورعايةُ الحقوقِ

يسلكُ التعسفَ بالقوةِ ومدِّ الذراعِ القويةِ لتنالَ كلَّ من لا يوافقُ على المشروعاتِ المطروحةِ.

إن هذا مسلكٌ خاطىءٌ، وظنٌّ جائرٌ، فالتعسفُ في استعمالِ القوةِ لن يجلبَ سلاماً ولن يُسْكتَ مظلوماً، ولكنه تفجيرٌ لمخزونٍ من الحقدِ لا يقتصرُ على منظمةٍ أو حزبٍ أو هيئةٍ أو جهةٍ، بل سينالُ كرامةَ الإنسانِ، كرامةَ العربيِّ، وكرامةَ المسلمِ، بل الكرامةَ كلَّها وعزَّةَ أهلِ الإسلامِ في كلِّ الأرجاءِ.

دعوةٌ من منطلقِ دينِنَا الحقِّ، ومن بَدَهيَّاتِ العقلِ ومسلماتِه، فمن حقِّ المظلومِ أن يدافعَ عن نفسِه إذا سُدَّتْ أمامَه محاولاتُ استعادةِ الحقوقِ. لا يلامُ مظلومٌ إذا شكَّ في نوايا خصمِه إذا كان الوسيطُ غيرَ منصفٍ.

لماذا يَصِلونَ به إلى نقطةِ اليأس فيتساوىٰ عنده الموتُ والحياةُ؟؟ وحينئذٍ لايبقىٰ عند هذا المسكينِ شيءٌ يخشىٰ فقدانه؟؟.

مَشاهدُ مرعبةٌ من الدماءِ والأشلاءِ والتشريدِ والتقتيلِ، يستحيلُ أن تمحوها الأيامَ بل إنه ليشبُّ عليها الولدانُ وترضعُها الأمهاتُ مع الألبانِ.

إرهابٌ عسكريٌ وسياسيٌ واقتصاديٌ يجري تنفيذُهُ ويجرى التخطيط لآخر مثلِه.

إنها دعوةٌ مشفقةٌ وأنتُم تكافحون الإرهابَ وتستنكرون العنفَ وتدعونَ إلى السلم والسلامِ. دعوةٌ إلى مشاهدةِ استئصالِ الأطفالِ والنساءِ وهم في الملاجىء الآمنةِ وملاذاتِ الحمايةِ الدوليةِ.

من رَحِم هذه المآسي تتولدُ كلُّ ألوان العنفِ والسفكِ وتفجيرِ الأنفس، منها وفيها تنبتُ تنظيماتٌ انتقاميةُ التوجُّهِ، ومجموعاتٌ عداونَيةُ النزعةِ. كيف تستبعدونَ أن يتولدَ من رُكامِ الجثثِ إرهابيون؟ ولماذا لا يخرجُ من بين أنقاضِ البيوتِ متطرفون؟ معاناةٌ وتسخطٌ، وجورٌ وتعسفٌ، والقسوةُ لا يقابلُها إلا قسوةٌ. حربُ الحجارةِ، وتفجيرُ الأجسادِ، وانتفاضةُ الأطفالِ، والليالي حُبالىٰ مشحونةٌ بالغضبِ والرفضِ والإباءِ، إنها حبالىٰ بمقتٍ مكتومٍ وقهرٍ محبوسٍ.

عناقيدُ غضبٍ[1] يصبُّها المعتدون، وحقيقتُها بذءرُ حقدٍ لا تُنْبتُ إلا حقداً، ولا تزرعُ إلا نِقَماً وانتقاماً.

غزوٌ واكتساحُ وتعدياتٌ ومظالمٌ لا تدفعُ إلا إلى الاحباطِ وفقدانِ الثقةِ بالمجتمعِ الدوليِّ كلِّه بنظمِهِ ومنظماتِهِ. فأيُّ عاقلٍ متجردٍ يشاهدُ المناظرَ الداميةَ ثمَّ يرىٰ أصحابَ القرارِ وهم يدافِعُون عن المعتدي ويتلمَّسُون المسوغاتِ لتصرفاتِه ويَحرمونَ أصحابَ الحقِّ من المقاومةِ ودفعِ العُدوان؟؟.

دعوةٌ صادقةٌ للنظر في مفهومِ الأمن الذي يسعى إليه الجميعُ والسلامُ الذي يحبه الجميعُ، ويؤمنُ به الجميعُ، ويدعو إليه الجميعُ؟؟ هل هو يا ترىٰ أمن طرفٍ واحدٍ، وسلامٌ شعبٍ واحدٍ؟ وهل هو حقٌّ لجهةٍ دون أخرىٰ؟.

---

(١) هذا هو اسم حرب غزت فيها إسرائيل جنوب لبنان توقف قبيل إلقاء هذه الخطبة.

أي سلامٌ لا يكونُ الحديثُ فيه إلا عن التفوقِ العسكريِّ لطرفٍ على حسابِ الآخرِ؟ أي سلامٍ يلتزمُ فيه القائمُ على رعايةِ السلامِ بتفوقِ طرفٍ على آخرَ؟.

هل هو سلامٌ بمواصفاتٍ خاصةٍ وشروطٍ خاصةٍ؟ أهو سلامُ الغلبةِ والتسلطِ والتهديدِ ضدَّ كلِّ من لا يرضىٰ بهذا النوع من السلام؟ سلامٌ يهدمُ البيوتَ، ويشرِّدُ من الديارِ، ويحاصرُ الشعوبَ ويعتقلُ المئاتِ، ويجعلُ ردَّ الظلمِ من طرفٍ إرهاباً ومن طرفٍ آخرَ حقاً مشروعاً؟؟.

سلامٌ تكونُ فيه الدماءُ رخيصةٌ، والحقوقُ مهدرةً، والأرضُ مستباحةً، والبيوتُ غيرَ محترمةٍ. سلامٌ يَتَّخذُ العقوباتِ الجماعيةِ منهجاً، سلامٌ ينتقصُ السيادةَ، ويُلغي الكرامةَ، ويُهينُ العزةَ.

أيُّ سلامٍ تُحَوَّلُ فيه المنطقةُ إلى مَنْجم عمالةٍ رخيصةٍ وإلى سوقٍ استهلاكيةٍ مسلوبةِ الإرادةِ. سلامُ المراوغةِ واقتناص المكاسبِ الاقتصاديةِ. سلامٌ يثمرُ عنصريةً وفقراً، وجوراً منظماً، سلامٌ من طرفٍ لا يُرضيْه سوىٰ فناءِ الآخرِ وهدِّه وهدمِ اقتصادِهِ، وتقطيعِ أوصالِه.

إنهم يبنونَ سلاماً على أعوادٍ من القصبِ تهتزُّ وتتساقطُ كلَّما لعبتْ بها رياحُ الغضبُ.

إنها دعوةٌ إلى توضيحِ مفهومِ السلامِ.

وثمَّتَ دعوةٌ أخرىٰ مرتبطةٌ بها وقرينتُها، دعوةٌ لأن تقيموا الوزنَ بالقسطِ ولا تُخسروا الميزانَ.

أين ميزانُ الحقِّ إذا كان عدوانُ المعتدي دفاعاً عن النفس وحفظاً على أمن شعبِه، ومقاومةُ الشعوبِ للظلمِ والاحتلالَ إرهاباً وعدواناً وتهديداً لأمنِ الآخرِ وشعبِه؟.

كيف ينقطعُ الظلم؟ ومتى يتوقفُ العدوانُ إذا كان حقدُ العدوِّ غضباً مشروعاً وغضبُ المظلومِ إرهاباً ممنوعاً.

يغضبُ العالمُ حين تُطلقُ رصاصةٌ أو تُلقىٰ قذيفةٌ على محتلٍ ويتداعىٰ العالمُ بصغارِه وكبارِه إلى مؤتمرٍ عالميٍّ للتنسيقِ من اجلِ صنعِ السلامِ ومكافحةِ الإرهابِ والتطرفِ.

أمَّا مجزرةُ قانا[1] والمجازرُ قبلَها فتجريْ على سمع العالمِ وبصرِه ولا أحدَ من ذوي القرارِ يُدينُ ولا يدعو لَمؤتمرٍ يزجرُها؟؟ فبأيِّ ميزانٍ أجيزتْ مجزرةُ قانا؟ وبأيِّ قانونٍ استبيحتْ دماء أهلِ قانا؟ وبأيِّ دستورٍ يُمنعُ أهل قانا ومن حولَ قانا من مقاومةِ الاحتلالِ؟.

ما حدث في قانا لم تُفِدْ فيه المناوشاتُ، ولم توقفْهُ الالتماساتُ، ولم تقلِّلْ من آثاره التأسفاتُ. أربعون ألفَ قذيفةٍ، وأكثرُ من ستمائةِ غارةٍ في حربٍ شرسةٍ، وعناقيدُ حقدٍ من أجلِ كسبِ أصواتٍ انتخابيةٍ، يكسبون من الأصواتِ بقدرِ ما يقدِّمون من جثثٍ وأشلاء، يسترضون الناخب بنشر المآسي وكثرة الدماءِ بل دماء الأبرياءِ.

ميزانُ هذا العالمِ المتحضرِ؛ يُغرِقُ في المساعداتِ في طرفٍ

---

(١) قرية في جنوب لبنان.

بلا حدودٍ، وفي طرفٍ آخرَ اغماضٌ واجحافٌ وتجاهلٌ بلا حدودٍ.

ازدواجيةٌ مقيتةٌ، ومظالمُ سافرةٌ في توجهاتِهم السياسيةِ ومسالِكهم الأخلاقيةِ، ومصطلحاتِهم الإنسانيةِ.

ميزانٌ كفةُ القاتلِ منهم تمتلىءُ بالأعذار، وكفةُ القاتلِ من غيرِهم ارهابيٌّ يهدُم بيتُه، ويشردُ أهلُه، وتحاصرُ بلدتُه.

ناهيك بميزانِ الضغطِ والتعاطفِ؛ فالضغطُ مُنْصبٌّ على الضعفاءِ، والتعاطفُ يُمنحُ للمعتدين.

أين مجلسُ الأمنِ وهيئةُ الأمم من شكوىٰ الشاكين؟ وأنين المترملين؟ ماذا يقول الضميرُ العالميُّ؟ وأين هي المقاطعاتُ الاقتصاديةُ على كلِّ من ظلمَ وامتنعَ من تطبيق القراراتِ؟.

يا قادةَ العالمِ يا أصحابَ الرأي: إن مواجهةَ التطرفِ تتطلبُ تعاملاً بعدلٍ وانصافٍ. وتجاهلُ العدلِ والسكوتُ على الظلمِ يوِّلدُ المزيدَ من التوترِ والعنفِ والحروبِ؛ برغمِ الهدوءِ الظاهرِ الممتلىءِ باليأس والغبنِ. إن التحدي الحقيقيَّ في البطالةِ والفقرِ والتجويعِ وفقدانِ الأملِ.

إن سياساتِ الحرمانِ والتجريدِ، والعزلِ والخنقِ، والقهرِ والاستذلالِ الممتدةِ على مرِّ السنينَ هي التي تغذِّي التطرفَ وحبَ الانتقامِ وسلوكَ مسلكِ الإرهابِ.

وليُعلمْ أن المؤتمراتِ الدوليةَ والقواتِ العسكريةَ غيرُ قادرةٍ على كبحِ جماحِ العنفِ وايقافِ توليدِ الإرهابِ وانباتِ التطرفِ.

ولكنَّ الحلَّ كلَّ الحلَّ في اعطاءِ الحقوقِ، ونشرِ العدلِ، وسلوكِ مسالكِ الانصافِ والتسامحِ، وحفظِ الكرامةِ الانسانيةِ.

وإذا كان ذلك كذلك فكيف يمكنُ الاقناعُ والاقتناعُ بجدوىٰ مشروعاتِ الصلحِ وضمانِ استمرارِها إذا كانت الموازينُ بهذا التقلبِ والمصطلحاتُ بهذا التلاعبِ.

هذا هو النداءُ وتلكم هي الدعوةُ واللهُ من وراءِ القصدِ والأمرُ للهِ من قبلُ ومن بعدُ وهو سبحانه غالبٌ على أمرِه ولكن أكثر الناسِ لا يعلمون.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٠ ـ ٦٤].

ميزان السلام

الخطبة الثانية

الحمدُ لله ذي القدرةِ والملكوتِ، والقوةِ والجبروتِ، أحمده سبحانه وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو حيٌّ لا يموتُ. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه؛ العزةُ والمجدُ والمنعةُ لمن أطاعهُ واتبعه، والذلةُ والصغارُ والشنارُ لمن عصاهُ وخالفَ أمرَه. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فأوصيكم أيُّها الناسُ جميعاً ونفسي تقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ والعملِ الصالحِ، فاتقوا اللهَ ربَّكم واعملوا صالحاً إنه بما تعملونَ خبيرٌ.

أيُّها الناسُ: سكوتُ الشعوبُ إلى أمد، وصمتُ المظلومِ إلى حينٍ، وما يجري في الساحةِ لم يُبْق داراً ولا جداراً، ولم يدعْ لأصحابِ النوايا الحسنةِ مقالاً. استوىٰ الراضون والرافضون.

إن عناقيدَ الحقدِ والغضبِ التي انصبت على الديارِ أثارتْ تساؤلاتٍ واستفهاماتٍ: هل الناسُ قد غفلوا أكثرَ مما ينبغي؟ وهل القومُ استسلموا لوعودٍ معسولة أكثر مما يجبُ، وهل تنازلوا أكثر مما يلزمُ؟ وهل استمرأوا التضليلَ والمخادعةَ أكثر مما يسوغ؟.

عناقيدُ الحقدِ والغضبِ رفعتْ عن المظلوم العتبَ؛ لينجليَ الغبارُ وتتقشعَ السحبُ الظلماءُ عن رجالٍ يقاومون الضلالَ بجلدٍ، ويرفعون المظالمَ بمجاهدةٍ، لا يستوحشون جوَّ التخذيلِ، ولا يتخاذلون لغربة الحقِّ، فهم لا يزالون يؤدون ما عليهم لربِّهم ودينِهم وأمتِهم إلى أن تنقشعَ الغمةُ ويُحفظَ الحقُّ المشروعُ ويخرجَ الإسلامُ من محنتِه ناصعَ الصفحةِ، بل لعله أن يستأنفَ زحفَه الطهورَ ليضمَّ إلى قومِه قوماً وإلى رجالِه رجالاً وإلى أرضِه أوطاناً. إنهم رجالٌ يتأبَّوْنَ على الهزائِم النازلةِ، ويتوكلون على الله في دفعِها ومدافعتِها حتى تضمحلَّ وتتلاشىٰ.

إن في حِكَمِهم المأثورةِ وآدابِهم المسطورةِ: الجزعُ لا يغني من القدرِ، والصبرُ من أبوابِ الظفرِ، والمنيةُ ولا الدنيةُ، واستقبالُ الموتِ خيرٌ من استدبارِه، وهالك معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرورٍ.

والأيامُ حبلىٰ والتاريخ له ألفُ عودةٍ وعودةٍ طالما هناكَ خصومٌ لا يتعظون، ولعبرِ التاريخ لا يدركون.

ومن سننِ اللهِ المعلومةِ أن الدهرَ طالَ أو قَصُرَ سوفَ يحاسبُ الذين يستهترون بالدماءِ ويُهينون القضايا، إنهم يُسهمونَ في إحياءِ تياراتِ الرفضِ ونمائِها.

لقد قال قومُنا: نعم للسلامِ ولم يقولوا نعم للاستسلام، والتنكيل والمهانةِ والانتقامِ. وإذا استرخَص العدوُّ الدماءَ فهي عند أهلِها غيرُ رخيصةٍ.

ولقد عَلِمَ قومُنا ـ كما يعلمُ غيرُهم ـ أن الأمةَ التي تقبلُ الخنوعَ والذلةَ، وتُعطي من نفسِها الدنيةَ أمةٌ ماتت فيها المواهبُ

الانسانيةُ العليا، وارتكستْ فيها الملكاتُ اليقظةُ. أيُّ حياةٍ تعيشُها إذا هي عاشتْ خادمةً تابعةً ذليلةٍ مهانةً؟؟ كلُّ أمةٍ تنكُصُ عن حَملِ أعباءِ الحياةِ الأبيَّةِ وتضعُفُ عن الإقدامِ في ساحةِ الفداءِ وتخشىٰ عواقبَ المخاطرةِ والجُرأةِ فقد حُكِمَ عليه بالذلةِ والموتِ والهوانِ؛ اسمعوا إلى قرآنكم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، لقد ماتوا في الديارِ التي عجزوا عن الدفاعِ عنها، وعلى الأممِ القائمةِ أن تتحملَ أوزارَ ما تقاسيْ وتعانيْ. والذيْ يقبلُ الذلَةَ يُغري الآخرين بالبغيِ والعدوانِ، وفي ذلةِ المظلومِ عذرُ الظالمِ وقلَّما يقعُ العدوانُ على ذي أنفةٍ وحميةٍ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ واستمسكوا بعزةِ أهلِ الإيمانِ، فللهِ العزةُ ولرسولِه وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

التفجير في الخبر[1]
استنكار ودروس وعبر

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عداوانَ إلا على الظالمين. وأشد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له قيومُ السمواتِ والأرضين. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فاتقوا الله إن كنتم مؤمنين واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم هو سماكم المسلمين.

أيها المسلمون: لا يسطوا اللصوصُ إلا على الكنوزِ في خزائِنها، ولا يتلصَّصُ السارقون إلا على الثرواتِ في مخابئِها. والصبيانُ والأوغادُ لا يرمون إلا أعالي الشجرِ من أجلِ إسقاطِ يانعِ الثمرِ. وبلادُ الحرمين الشريفين كنزُ الكنوزِ بدينِها ومقدساتِها، وثروةُ الثرواتِ في قيَمِها ورجالِها. وإنها لعاليةُ القدرِ في مقامِها، ويانعةُ الثمرِ في منجزاتِها.

---

(١) تفجير آثم في مدينة الخبر يوم الثلاثاء ٩/ ٢/ ١٤١٧هـ.

الرسوخُ في هذه البلادِ يثيرُ حقدَ الحاقدين، والشموخُ في هذه الديارِ يُبرزُ حسدَ الحاسدين، وبساطُ الأمنِ الممدودُ هنا يستفزُّ قلق المرجفين، والقوةُ والتماسكُ بيننا تزعجُ نفوسَ الطامعين، وحِفْظُ اللهِ ثم حكمةُ ولاةِ الأمرِ فينا تخيِّبُ ظنونَ المتربصين، والاعتمادُ على ربِّ هذا البيتِ يردُّ عنا كيدَ الكائدين.

بلادٌ ترفرفُ عليها رايةُ لا إله إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ؛ ارتضاها أهلُ هذه البلادِ قناعةً راسخةً لا تقبلُ الترددَ والمساومةَ.

إننا لا نخطىءُ في العبارةِ كما يخطئون، إننا لا نقتصرُ على القولِ: (إن قَدَرَنا أننا مسلمون) ولكننا مسلمون طوعاً واختياراً، وإيماناً واحتساباً، ورضاً وقبولاً، وتسليماً وانقياداً. فنسأل اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيم أن يحيينَا على الإسلام، وأن يتوفانا على الإيمان، وألا يزيغَ قلوبَنا بعد إذْ هدانا. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٥ ـ ٨٦].

هذه البلادُ قاعدةُ الإسلام، وحصنُ الإيمانِ، ومَعْقلُ الدعوةِ. القرآنُ تنزَّلَ في أراضيها، والرسولُ محمدٌ ﷺ بُعثَ من بطاحِها. فالإسلامُ هنا قِوامُ النظامِ وشرعيتُه ومنهجُه.

دولةٌ تأخذُ نفسَها بالإسلامِ؛ تأخذُه في عقيدتِها، وتترسَّمُه في تشريعِها، تأخذُه أخذَ تشريفٍ وتكليفٍ حين شرفَّها ربُّها بالولايةِ على الحرمين الشريفين، والاعتزازِ بخدمتِهما.

وعلى الرغمِ من جلاءِ هذه المفاخرِ، وبروزِ هذه النعم، وثباتِ هذه المبادىءِ، فإن هذه البلادَ ليست بدعاً من بلادِ العالمِ

وديارِه، فهي تُبتلىٰ كما يُبتلىٰ غيرُها في عالمٍ واسعٍ، تقاربَ وانحصرَ بتشابكِ اتصالاتِه، وتَعَدُّدِ مواصلاتِه، وتنوعِ وسائِلِ إعلامِه وفضائياتِه.

إنها ليست بمعزلٍ عن العالمِ. وحادثُ التفجيرِ الآثمِ الذي وقعَ في مدينةِ الخُبرِ نوعٌ من هٰذا الإجرامِ والابتلاءِ الذي يتسمُ بالشموليةِ والتخطيطِ وتوزيعِ المهماتِ.

يقالُ ذلك ليس استسلاماً للمعتدين ولا عجزاً عن اتخاذِ المواقفِ الصارمةِ الحاسمةِ، ولكنه تقريرُ واقعٍ وبيانُ موقفٍ نحوَ من يصنِّعُها ويروِّجُها ويربي عليها أفراداً وجماعاتٍ حتى يجعلَها بقوةِ الثوابتِ والمعتقداتِ. إن الامتحانَ الحقيقيَّ، والبراعةَ الفائقةَ ليس في وقوعِ حوادثِ العنفِ المدبَّرةِ المدمِّرةِ، فهذا شيءٌ لا يستبعدُ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ وعلى أيِّ شعبٍ أو منطقةٍ. ولكن البراعةَ والامتحانَ يكمنانِ في مواجهةِ النتائجِ وأثرِها على الناسِ والمجتمعِ، وذلك يحتاجُ إلى وقفاتٍ وتأملاتٍ.

فأولُها: تجريمُ الحدَثَ فهو اعتداءٌ وعدوانٌ، وقتلٌ وترويعٌ، وإزهاقٌ لنفوس محترمةِ الدماءِ، معصومةِ النفوس. إنه اسلوبٌ عشوائيٌ فاضحٌ لكلِّ من يحترمُ آدميتَه وانسانيتَهَ فضلاً عن أن يحترمَ دينَه وأمانتَه. شذوذٌ وعدوانٌ؛ دافعُهُ استبطانُ أفكارٍ مضلِّلةٍ، وآراءَ شاذةٍ، ومبادىءَ منحرفةٍ في خَطواتٍ تائهةٍ ومفاهيمَ مغلوطةٍ. أيُّ قبولٍ لناشري الفوضىٰ ومهدري الحقوقِ ومُرْخصي النفوسِ والدماءِ؟؟؟.

ومن بعدِ ذلك وقفةٌ عن الإرهابِ في مفهومِه وحدودِه.

الإرهابُ كلمةٌ مقصورةٌ محصورةٌ في تخويفِ الناسِ بالقتلِ والخطفِ، والتخريبِ والنسفِ، والسلبِ والغصبِ، والزعزعةِ والترويعِ، والسعي في الأرضِ بالإفسادِ. هذه هي حدودُها. الإرهابُ إزهاقٌ للأرواحِ، وإراقةٌ للدماءِ المحترمةِ من غير سببٍ مشروعٍ.

إن أساليبَ العنفِ ومسالكه من تفجيرٍ وخطفٍ وسطوٍ ونسفٍ لا تهزمُ القيمَ الكبيرةَ، ولا تقوّضُ المنجزاتِ السامقةَ، لا تحررُ شعباً، ولا تفرضُ مذهباً، ولا تنصرُ حزباً. إن العنفَ لا يمكنُ أن يكونَ قانوناً محترماً، أو عرفاً مقبولاً، فضلاً عن أن يكون ديناً أو عقيدةً.

العنفُ والإرهابُ لم يفلحْ في أيِّ مكانٍ من العالمِ في تحقيقِ أهدافهِ؛ بل إنه يورثُ عكسَ مقصودِ أصحابهِ. فيقوي التماسك الشرعيَّ والسياسيَّ الاجتماعيَّ في الأمةِ المبتلاةِ. وأيُّ مجتمعٍ محترمٍ يحبُّ نفسَه ويحافظُ على مكتسباتهِ لن يسمَح لحفنةٍ من الشاذين أن يُمْلوا عليه تغييرَ مسارِه، أو التشكيكَ في مبادئهِ ومسلماتهِ.

إنه لن يغيرَ سياسةً، ولن يُكْسِبَ تعاطفاً، بل يؤكدُ الطبيعةَ العدوانيةَ لتوجهاتِ أصحابه الفكريةِ.

الإرهابُ لا يعرفُ وطناً ولا جنساً، ولا زماناً ولا مكاناً، والمشاعرُ كلُّها تلتقي على استنكارِه ورفضِه، والبراءةِ منه ومن أصحابِه، ومن ثم فإنه يبقىٰ علامةَ شذوذٍ، ودليلَ انفرادٍ وانعزاليةٍ.

وثمتَ وقفةٌ أخرىٰ: إن كيانَ هذه الدولةِ قام واستقامَ على ثمرةٍ من الدينِ والخبرةِ والعلمِ والعملِ، جهودٌ مضنيةٌ في التأسيسِ والبناءِ لا يمكنُ هزُّها، فضلاً عن تقويضِها بمثلِ هذه الحركاتِ غير المسؤولةِ.

إنه كيانٌ يعكسُ نهجَ أهلِه في الجمعِ بين المحافظةِ على دينِ اللهِ بعقائدِه وشعائرِه مع ما يتطلبُه الوقتُ من تحديثٍ مشروعٍ في التربيةِ، والتعليمِ، والاقتصادِ، والاجتماعِ، والتخطيطِ، وصنعِ القرارِ.

إن دولةً هذا شأنُها وهذه خصائِصُها لا يصلحُ لها ولا يناسبُها ولا تقبلُ القولَ بفصلِ الدينِ عن الدولةِ، كما لا تقبلُ اسلوبَ الخلطِ بين الإسلام الحقِّ وبين الانحرافِ باسمِ الإسلامِ، كما لا تقبلُ أن يُضربَ الإسلامُ أو ينتقصَ بحجةِ وجودِ بعضِ الغلاةِ، ولكن منهجَها وقف السلوكِ الشاذِّ ليبقىٰ الإسلامُ الحقُّ الأقومُ.

وهذه الأحداثُ تبقىٰ في دائرةِ شذوذِها ويطمئنُّ أهلُ البلادِ والمقيمون فيها على أنفسِهم وأهلِهم وأبنائِهم وأموالِهم.

ولا يزعمُ أحدٌ الكمالَ ولا البراءةَ من النقصِ بل إن هناك نقصاً في الممارساتِ وقصوراً في بعضِ التطبيقاتِ معترفٌ به ومسلمٌ، ولكنْ حسبُ المرءِ أن ينشدُ الكمالَ ويسعىٰ في سدِّ النقصِ ورتقِ الخللِ، وأهلُ هذه البلادِ وكلُّ محبٍّ لها يتطلعُ إلى المزيدِ من الاستمساكِ بدينِ اللهِ والمزيدِ من الدعمِ للدينِ وأهلِه، وعلمِ الشرعِ ورجالِه، والحسبةِ وهيئتِها، وكلِّ عاملٍ مخلصٍ من أيِ موقعٍ، وفي أي مرفقٍ، وفي شأن المجتمعِ كلِّه.

وثمَّتَ وقفةٌ أخرىٰ يحملُها العلماءُ وأهلُ الفقهِ والبصيرةِ؛ إنها توعيةُ الناشئةِ وتبصيرُهم بما يحميهم من التخبُّطِ في أوحالِ الدعواتِ المضلِّلةِ والعصاباتِ المنحرفةِ.

وينبغي ألا تضيقُ صدورُ العلماءِ الأجلاءِ بأسئلةِ السائلين مهما تكنْ في نوعيتِها ومظهرِها ودلالتِها، حتى يزولَ اللبسُ عن الأذهانِ، ويرتفعَ الحرجُ من النفوسِ، ويكونَ التقاربُ والقبولُ والاستيعابُ، تسلحٌ بسلاحِ الصبرِ في الإفهامِ من أجل تنقيةِ العقولِ من اللَّوَثِ، وغسلِ الأفكارِ من الدرنِ.

توسيعُ دائرةِ الاتصالِ والثقةِ المتبادلةِ بين الناشئةِ والعلماءِ والمربين والموجهين، والبعدُ عن التجهم لأسئلتِهم، أو تجاهلِ استفساراتِهم مهما بدا منها من سطحيةٍ أو سذاجةٍ أو خروج عن النسقِ المألوفِ. فالأمورُ لا تعالجُ بالازدراءِ والسخرية والتنقصِ والتهوينِ من الأحداثِ أو الأشخاصِ. كما لا تعالجُ بالهجومِ المباشرِ من غير اظهارٍ جليٍّ للحجةِ والغوصِ في أعماقِ المشكلةِ، والشبابُ إذا ابتعدَ عن العلم الصحيح والعلماءِ الراسخين ولم يتبينْ له رؤيةٌ واعيةٌ تتزاحمُ في ذهنه خطَراتٌ نفسيةٌ وسوانحُ فكريةٌ، يختلطُ عنده فيها الصوابُ بالخطأ والحقُّ بالباطلِ.

لابد أن تتسعَ الصدورُ للحوارِ الهادىءِ وقبولِ النقدِ الهادفِ واستيعابِ الآراءِ واحترامِها.

ومن بعدِ العلماءِ يأتي المفكرون في هذه البلادِ والمثقفون فلهم رسالةٌ خاصةٌ وميزةٌ متميزةٌ تنبعُ من انتسابِهم لدينِ اللهِ

ومبادئِه، وخصوصيةِ الدولةِ في الحكمِ والتحاكمِ، ونظامِ الدولةِ، ورعايةِ الحرمين الشريفين، وقيامِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ.

هذه المبادئُ الراسخةُ التي تقومُ عليها وتتبانها وتعتزُّ بها وتفاخرُ؛ هذا كلُّه يدعو هؤلاء المثقفين والمفكرين إلى إعادةِ النظرِ في مصادرِ التلقيْ المتاحةِ من أجلِ تنقيتِها مما يتعارضُ مع شرعِ اللهِ ليبقىٰ ما ينفعُ الناسَ ويذهبَ الزبدُ جفاءً.

ووقفةٌ أخيرةٌ أيها الإخوةُ: إنها الوقفةُ مع الإرهابِ الدوليِّ والتطرفِ الإقليميِّ فذلك لا يعالجُ إلا بإحقاقِ الحقِّ وبسطِ العدلِ، واحترامِ الأنظمةِ المرعيةِ، والقراراتِ الدوليةِ، والبعدِ عن الإنتقاءِ في التطبيقِ، والتعسفِ في التفسيرِ، والتحاملِ في التأويلِ. لماذا تنزفُ الدماءُ وتغورُ الجراحُ في الأرضِ العربيةِ المحتلةِ والقدسِ الشريفِ؟؟ وما حالُ الشيشانِ والبوسنةِ والهرسكِ وكشميرَ ومواقعَ أخرى من العالمِ؟؟.

ويأتي النظرُ الجادُّ في وسائلِ الإعلامِ فعليها في ذلك كفلٌ عظيمٌ.

إن الإعلامَ وقد أصبحَ تأثيرُه عالمياً بقنواتِه وفضائياتِه، يقومُ عليه في كثيرٍ من مواقعِه أقوامٌ لا تقتنعُ بهم الجماهيرُ. فئاتٌ غيرُ معروفةٍ بنزاهتِها، ومصداقيةِ طرحِها، وعدلِ مسارِها، وحياديةِ نقاشِها؛ فيهم علمانيون تنبعثُ منهم روائحُ الزندقةِ، ومعدو برامجَ تنبثق منهم افرازاتُ إلحادٍ، وآخرون في أخلاقِهم متهتكون يُعدِّون برامجَ، ويعقدون ندواتٍ، ويطرحون حواراتٍ، ويثيرون

مناقشاتٍ في أصول الدين وفروعه ليسوا فيها بمتخصصين. إذا كان الطبُّ لا يتحدثُ عنه إلا الأطباءُ، والهندسةُ لا يخوضُ فيها إلا المهندسون فلماذ تستباحُ علومُ الدينِ المتخصصةُ ليفتي فيها من يهرفُ بما لا يعرفُ، ويلَغُ فيها من لا ناقةَ له فيها ولا جملٌ. غير أن له قلماً في صحافةٍ، أو لساناً في إذاعةٍ، أو حسنَ صورةٍ في شاشةٍ رجالاً ونساءً.

أحاديثُ وحواراتٌ فيها تعسفٌ ومغالطاتٌ وفهومٌ قاصراتٌ، أصحابُها ذوو توجهاتٍ مشبوهةٍ. معالجاتُ إفكٍ وبهتانٍ تزعمُ أن الإسلامَ والتمسكَ به هو محضنٌ لتياراتٍ متطرفةٍ، وافرازٌ لتوجهاتٍ عنيفةٍ.

ويحهم ماذا يقولون؟ وماذا يعالجون؟ إنها طروحاتٌ تتسمُ بالغوغائيةِ والجهلِ، وتتميزُ بالسطحيةِ وعدمِ المسؤوليةِ مهمتُها وغايتُها تخويفُ السلطاتِ المسؤولةِ عندهم من الدينِ، ودفعُهم لمخاصمةِ المتدينين، والتشكيكُ في ولائِهم، بل هدفُها نفي الإسلامِ عن مركزِ التوجيهِ، وإبعادُه عن التأثيرِ في صناعةِ القرارِ، واستئصالُه من مناهجِ التعليمِ ومؤسساتِه، ومحاصرةُ تأثيرِه في توجيه العامةِ والحفاظِ على الفضيلةِ ليصبحَ الدينُ كما يزعمون ويريدون شأناً خاصاً بين العبدِ وربِّه فمن شاءَ فليؤمنْ ومن شاء فليكفرْ. بل يحاولُ بعضُهم أن يجعلَ الدعوةَ إلى الإسلام سببَ كلِّ كوارثِ الأمةِ ومصائبِ النخبِ السياسيةِ والفكريةِ. إذا كان هذا هو إفكَهم فلماذا لا يتولدُ الإرهابُ من خلالِ هذه الطروحاتِ الباهتةِ وينبتُ التطرفُ من هذه التعسفاتِ القاتلةِ؟؟.

وبعدُ أيها الإخوةُ فإن التوجَّه المستنيرَ المحترمُ لابدَّ فيه من

اجتنابِ الخلطِ بين الإسلامِ الحقِّ ومفاهيمِ التنطعِ والغلوِّ لايؤخذُ الصالحون بجريرةِ الغالين. يجبُ التفريقُ بين القلّةِ الشاذةِ والسوادِ الأعظمِ المستقيم. إن مواجهةَ الغلوِّ لا تكونُ بالتنفيرِ من الدينِ وأهلِه، وإخراجِ أهلِ الصلاحِ بصورةٍ منفِّرةٍ، فالشعوبُ مسلمةٌ، وهي بشرعِ ربِّها متمسكةٌ رضي الراضون أو سخط الساخطون.

إن محاولةَ تهميشِ الدينِ وعزلِ أهلِه من أهمِّ أسبابِ الغلوِّ. الغلوُّ يحاربُ بنشرِ العلمِ الصحيحِ والفهمِ المستقيم، يعالجُ بكلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه ﷺ وفهمِ السلفِ الصالحِ. وعلى هذا المسارِ يجبُ أنَ يكونَ توجُّه الكتابِ والمفكرين ووسائلِ الإعلامِ والمربين.

واللهُ من وراء القصدِ، وحفَظَ اللهُ على هذه البلادِ دينَها وأمنَها وردَّ عنها كيدَ الكائدين وحقدَ الحاقدين و زادَها تمسكاً واجتماعاً، وإلفةً واتحاداً، وأصلحَ أحوالَ المسلمين في كلِّ مكانٍ إنه سميعٌ مجيبٌ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور: ٥٥ ـ ٥٦]

التفجير في الخبر
استنكار ودروس وعبر

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وليِّ المتقين. أحمدُه حمدَ الشاكرين وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلهُ الأولين والآخرين، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه بعثُه رحمةً للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وعلى أصحابِه الغرِّ الميامين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بَعدُ فاتقوا اللهَ أيُّها الناسُ ما استطعتم، وتداركوا بالتوبةِ النصوحِ ما فرَّطتُم.

أيها المسلمون: دينُ الإسلامِ واضحُ المعالمِ، صافي المشاربِ، نقيُّ الفكرِ، طاهرُ الموردِ. يبني ولا يهدِمُ، ويجمعُ ولا يفرقُ، ويرفعُ ولا يخفضُ، ويعزُّ ولا يهينُ. مسلكٌ وسطٌ يستوعبُ الأحكامَ كلَّها في جليلِها ودقيقِها على أسس صحيحةٍ ومسالكَ بينةٍ دونِ تزيُّدٍ يدعوُ إلى الغلوِّ والتنطعِ ولا تفْريطٍ يدعو إلى التنقُّصِ والتهاونِ.

ومن أجلِ هذا فيجبُ الحذرُ من إطلاقِ العباراتِ التي قد يُفهم منها أن المتمسكَ بالدينِ وآدابِه وهديه هو في قفص الإتهامِ.

الإسلامُ عقيدةٌ راسخةٌ في القلبِ، وآدابٌ في السلوكِ ظاهرةٌ على الجوارحِ، أحكامٌ ظاهرةٌ يمارسُها المسلمُ تميِّزُه عن غيرِه فالأذانُ، وصلاةُ الجماعةِ، وارتيادِ المساجدِ، والتزامُ السنةِ في اللباسِ، واكرامُ اللِّحىٰ والبعدُ عن التشبه بالكفارِ وأهلِ الفسوقِ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ كلُّ ذلك وأمثالُه أمورٌ يجبُ حفظُها ورعايتُها وتقديرُها وتقديرُ أهلِها.

والمسلمُ الحقُّ عنده ثقةٌ بدينِه لا تزعزُها طعناتُ الطاعنين ولا أخطاءُ بعضِ المنتسبينَ.

فليهنأ أهلُ الفضلِ والصلاحِ بدينِهم في ديارِ المقدساتِ، ولتهنأ الدولةُ حفظَها اللهُ برجالِها الفضلاءِ والعقلاءِ، ولتطمئنَّ الأمةُ بإذن اللهِ إلى وعيِ ولاةِ الأمور ويقظتِهم، فلدىٰ هذا البلدِ بفضلِ اللهِ ومنِّه من الإمكاناتِ والقوةِ والقدراتِ الماديةِ والمعنويةِ ما يصدُّ كلَّ تطاولٍ، ويمنعُ كلَّ محاولةٍ للنيلِ من دينِه أو استقرارِه أو مكتسباتِه وبحفظُ حقَّ أهلِه والمقيمين فيه على دينِهم وأنفسِهم وأهليِهم وأموالِهم. في مواقفَ لا يقبلُ فيها إلا الحزمُ والحسمُ والعدلُ، سدد اللهُ الخطىٰ وباركَ في الجهودِ، وحفظَ علينا دينَنَا الذي هو عصمةُ أمرِنا ووقانا الفتن ما ظهرَ منها وما بطن وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ودنيانا التي فيها معاشنا وآخرتنا التي إليها معادنا وجعل الحياةَ زيادةً في كلِّ خيرٍ والموتَ راحةً من كلِّ شرٍ.

الاعلام والأمن الفكري

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ دلَّ على وحدانيتِه وألوهيتِه بالبراهينِ والحججِ، أحمدُه سبحانه وأشكرُه وأسألُه المزيدَ من فضلِه بيدِ مفاتيحُ الفرجِ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ما جعلَ علينا في الَدين من حرجٍ، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه هو المفَدَّىٰ بالنفوسِ وبالمُهجِ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ. فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فاتقوه رحمكم اللهُ تقوىٰ قومٍ مخلصين، قطعوا المفاوزَ ففازوا، ولفضلِ السبقِ في تنافسِ الخيراتِ نالوا وحازوا.

أيها المسلمون: في رمضانَ النورُ والذكرُ، والخيرُ والطهرُ، فيه ليلةُ القدرِ، والذكرياتُ الكُثرُ. فيه عزُّ الفتحِ وفيه نصرُ بدرٍ، وفي ختامِه بهجةُ العيدِ وفرحةُ الفطرِ.

نورٌ في المآذنِ والمساجدِ، وضياءٌ في القلوبِ وفي الصدورِ، صونٌ عن فضولِ الطعامِ والكلامِ، وكفٌّ عن الحرام. صيامٌ للجوارحِ عن الأذىٰ، وفطَامٌ للمشاعرِ عن الهوىٰ: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في شهرِ رمضانَ يُعطىٰ السائلُ، ويُغفرُ للتائبِ، تتصلُ القلوبُ ببارئِها، ويُنيبُ فيه كثيرٌ من الناس إلى ربِّهم، يؤمُّون بيوتَه؛ فتمتلىءُ المساجدُ بالمتعبدين؛ هذا مُصلٍّ، وذاك ذاكرٌ، وآخرُ قد اتخذ متكأً إلى ساريةٍ من السواري يتلو كتابَ ربِّه، وأخٌ له آخرُ قصدَ إلى ركنٍ من المسجدِ قصيٍّ يعتكفُ ويتحنثُ. كلُّهم جادُّون راجون في أن يُلقوا عن قلوبِهم أحمال الإثمِ وأوزارَ الذنوبِ وأدرانَ الغلِّ والحسدِ وغوائلَ الشهواتِ والمطامعِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

خيرٌ تمتلىءُ به القلوبُ، وبُشرٌ تنشرحُ به النفوسُ، وذكرٌ تعجُّ به المساجدُ والقلوبُ.

هؤلاء هم الصائمون القائمون، وهذا هو رمضانُ في غايتِه ووظيفتِه. وآثارِه وثمارِه.

ولكن يُحزنُك ثم يحزنُك أن ترىٰ فئاتٍ وفئاماً تستقبلُ رمضان وتعيشُه وكأنَّهم لا يستقبلون رُكناً من أركانِ الإسلام؛ ركناً يقيمُ الدينَ من أقامَه، ويهدمُ الدين من هدَمه. إنهم لا يستقبلونه ولا يعيشونه إلا باعتبارِه تقليداً موروثاً، وموسماً مقرراً يتكررُ كلَّ عامٍ، يتمتعون فيه بنعيم العيشِ، ويتفننون فيه بألوانِ المطاعمِ والمشاربِ، ويقطِّعونه بالعبثِ واللَّهوِ، يسرفون على بطونِهم حتى تمرضَ، وعلى جيوبِهم حتى تفرغَ.

ويزدادُ حزنُك ويشتدُّ أَلمُكَ حينما تسمعُ وترىٰ الاستعداداتِ المبكرةِ والوعودَ المخزيةَ لكثيرٍ من وسائلِ الإعلامِ. كيف يستقبلُ

رمضانَ؟ وكيف تعيشُ أيامَه ولياليَه؟ وكأنهم يهيئون المسلمين ليجعلوا شهرَ صومِهم موسمَ انتظارٍ للهوٍ مقيتٍ، وأفكارٍ منحرفةٍ، وأهدافٍ صغيرةٍ.

وازدادَ الأمرُ سوءاً حين ظهرتْ في سماءِ المسلمين قنواتٌ فضائيةٌ تنتسبُ إلى بعضِ الدولِ العربيةِ أو الإسلاميةِ وإلى مُلَّاكٍ عربٍ ومسلمين لتتنافسَ تنافساً غيرَ شريفٍ في ترفيهٍ غيرِ بريءٍ وتسليةٍ غيرِ عَفَّةٍ. فضائياتٌ وإعلامٌ يعكرُ صفوَ المتعبدين ويؤدي إلى انحرافِ المشاهدين والمتابعين.

ما الذي دهى القومَ؟ وأيُّ قناعاتٍ وأفكارٍ تسربتْ إليهم ليجعلوا من شهرِ القرآنِ شهرِ الصوم والتقىٰ والعفافِ والنقاءِ يجعلوه موسمَ حياةٍ لاهيةٍ وسمرٍ عابثٍ؟؟ شهرُ رمضانَ شهرُ الخيرِ والنفحاتِ وأملِ المغفرةِ وتنزلِ الرحماتِ يبثُّ فيه الفكرُ الملحدُ والتطاولُ على الدينِ مع السلوكِ المنحرفِ، واللقطاتِ الراقصةِ، والحركاتِ الفاتنةِ والأحوالِ المزريةِ.

أين هؤلاءِ من النداءِ الرمضاني: «**يا باغيَ الخيرِ أقبلْ ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ، وللهِ عتقاءُ من النارِ**»[1].

ماذا دهى بني قومنا؟ لقد جعلوا من وسائِلِهم وقنواتِهم مشروعاتٍ تجاريةً بحتةً في سوقٍ محرمةٍ، وبضائعَ ممنوعةٍ، وسلعٍ فاسدةٍ، بل مع الأسفِ فإن بعضها يؤدي بلاً شك إلى التمردِ على الدينِ وإفسادِ الخلقِ. «**من لم يدعْ قولَ الزورِ والعملَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/٦٦ ـ ح٦٨٢)، وابن ماجه (١/٥٢٦ ـ ح١٦٤٢)، والنسائي (٤/١٢٩)، وأحمد (٤/٣١٢، ٥/٤١١).

به والجهلَ فليس للهِ حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه»[1].

وفي خِضَّمِّ هذا العبثِ ظهرتْ نداءاتٌ متبصرةٌ رفعها بعضُ المسؤولين المتبصرين. ينادون بها وهم فيها محقون. إنهم ينادون بضرورةِ النظرِ الجادِّ في الأمنِ الفكري، والتحصينِ للعقولِ من الفكرِ الوافدِ، والحفاظِ على خصوصيةِ المسلم في عقيدتِه الخالصةِ وشخصيتِه المؤمنةِ. نداءٌ صادقٌ لتحصين الأفكارِ من الهجماتِ الدخيلةِ التي تسممُ العقولَ، وتحرفُ السلوكَ، وتسيءُ إلى الدينِ، وتقضي على الأصالةِ، وتشككُ في الولاءِ وصدقِ الانتماءِ.

أيها الإعلاميون أيها المربون: إن الاهتمامَ بالأمنِ الفكريِّ يأتي في مقدمةِ الاهتمام بمفهومِ الأمنِ كلِّه أمنِ الأرواحِ، وأمنِ الأعراضِ، وأمنِ الأموالِ، وأمنِ الغذاءِ، وأمنِ الصحةِ، وأمنِ العملِ.

ماذا يُرجىٰ من أمةٍ أصيبتْ في فكرِها، واضطربتْ في توجهِها، واهتزتْ في قيمِها وتزعزعتْ في عقيدتِها؟؟ إنها لا تفقدُ الأمنَ وحدَه ولكنها تفقدُ الوجودَ كلَّه وتخسرُ الكيانَ أجمعَه. لماذا هاجسُ الأمنِ الفكري؟ لأ الناظرَ في عالمِ اليوم يدركُ أن مناطقَ الصراعِ المنتشرةِ على ساحةٍ واسعةٍ؛ كلُّها بُؤَرُ صراعٍ فكريٍّ الطابعِ عقائديِّ المحتوىٰ. إنه سنةُ اللهِ في الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ. فأين دورُ إعلامِ المسلمين؟ وما هي أهدافُه؟ وماذا عن

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٩ ـ ح١٩٠٣)، والترمذي (٣/ ٨٧ ـ ح٧٠٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأبوداود (٢/ ٣٠٧ ـ ح٢٣٦٢).

خططه؟ فضائياتٌ وإذاعاتٌ، وصحافةٌ ومجلاتٌ؟؟ لاشكَّ أن هناك فئاتٍ ضلتْ وانحرفتْ بأعمالٍ وأفكارٍ وأراءٍ لا تتفقُ مع الإسلامِ وأصولِه ومبادئِه وتعاليمِه وأحكامِه. الإسلامُ من أفعالِها براءٌ، فهذه فئاتٌ يجبُ أن يُجلّىٰ أمرُها ويفضحَ فكرُها وتوجُهها من أجلِ الحصانةِ للأمنِ الفكريِّ.

وفي ذاتِ الوقتِ يجبُ على وسائلِ الإعلامِ بكلِّ أنواعِها وهي تحرصُ على حمايةِ الأمةِ وتأكيد أصالتِها وثوابتِها أن لا تخلطَ بين الحقِّ والباطلِ. عليها أن تميزَ بين الصالحين الغيورين على الإسلامِ وبين هذه الفئاتِ الضالةِ المنحرفةِ.

كما يجبُ أن تُفضحَ الفئاتُ العلمانيةُ الإلحاديةُ الحداثيةُ لتحصين فكرِ الأمةِ وتحقيقِ أمنِها واستقرارِها النفسيِّ والدينيِّ.

إن الفكرَ المنحرفَ بطرفيه المتطرفين الافراطِ والتفريطِ لا يُعطي غيرَ القلقِ والضيقِ واساءةِ الظنِّ بمن حولَه وما حولَه.

كيف يُطمأنُّ على الأمنِ الفكريِّ وهناك من يجوسُ خلالَ الأمةِ بأفكارٍ كافرةٍ ملحدةٍ أفكارٍ تدميريةٍ ثائرةٍ تجأرُ بالتطاولِ على مقامِ الألوهيةِ والربوبيةِ والإسلامِ؟؟.

كيف يُطمأنُّ على الأمنِ الفكريِّ وهناك من يجاهرُ بالقولِ بفصلِ الدينِ عن الدولةِ؟ وعقولُهم وأفكارُهم وكتاباتُهم ونداءاتُهم تأبىٰ أن يكونَ للدينِ والإسلامِ موقعٌ في تصريفِ شؤون الحياةِ؟؟؟.

أيها الإخوةُ: إن الكفارَ غيرُ ملومين حين يجِدُّونَ في نشرِ الباطلِ، وغزو العقولِ، وتغييرِ المفاهيمِ، وسلخِ الشعوبِ عن

معتقداتِها، ولكن اللومَ كلَّ اللوم والعيبَ كلَّ العيبِ حين يقومُ رجالٌ من المسلمين وإعلامٌ ينطَلقُ من ديارِ أهلِ الإسلامِ فلا يكونُ إلا مردِّداً لهذا الصدىٰ المنحرفِ.

من المَعيبِ والمُشين أن تعيشَ وسائلُ إعلامِ الأمةِ في كثيرٍ من مواقعِها تبعيةً قاتلةً لا يُرجىٰ منها تحصينُ فكرٍ ولا حفظُ دينٍ، بل إنها لمسكينةٌ هزيلةٌ مهزومةٌ قتلها اللهاثُ وراءَ ما يسمونه المنافسةَ الإعلاميةَ، وهنا تأتي قاصمةُ الظهرِ، فالمنافسةُ في فهمِهم المنهزمِ أن يدخلوا معهم في جحرَ الضبِّ الخربِ، ويسيروا خلفَهم حذوَ النعلِ بالنعلِ والذيلِ بالذيلِ.

إنه تنافسٌ بائسٌ في بَثِّ الفكرِ المنحرفِ وتأكيدِ التبعيةِ للإلحادِ الغربيِّ والماديةِ المعاصرةِ، بل إنه لفيفٌ وخليطٌ ومشاجٌ من المعتقداتِ والتصوراتِ بدأً من الوثنيةِ اليونانيةِ ثم دياناتٍ محرفةٍ من يهوديةٍ ونصرانيةٍ وانتهاءً بالمذاهبِ الماديةِ المعاصرةِ، وتعميمٌ لنموذجِ الأعداءِ في الثقافةِ والسلوكِ. لقد طفحتْ كثيرٌ من هذه الوسائلِ بنشرِ الفلسفاتِ التي تعزز الماديةَ وتضعفُ الجوانبَ الإيمانية.

ويحهم أيُّ حصانةٍ للفكرِ؟؟ وهم لا يبثون ولا يكتبون إلا ما يثيرُ الفتنَ، في نفسيراتٍ مغرضةٍ للأحداثِ من خلالِ التحليلاتِ الإخباريةِ والتعليقاتِ الإعلاميةِ مما يولدُ البلبلةَ والقلقَ وغرس الوساوس والمخاوفِ في الصدورِ، وبثَّ الفرقِ والانقسامِ بين طبقاتِ الأمةِ.

وحينما تتبصرُ في مقابلاتِهم ونداوتِهم تراها دائرةً بين

مجاملاتٍ لمن يحبون، ومحاكماتٍ لمن يكرهون، فاقدةً للمصداقيةِ، محكومةً بالهوىٰ والمذهبيةِ والتوجهاتِ والسياسيةِ.

بل يقالُ بكلِّ صراحةٍ ووضوحٍ لقد بدأتْ وجهةُ الحياةِ الفكريةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ في كثيرٍ من البلادِ والشعوبِ تتخذ مساراً بل مساراتٍ متغايرةً. إنه استعمارٌ له تلامذتُه من ضحايا الغزوِ الفكريِّ والاختراقِ الأمنيِّ العقائدي.

وسائلٌ وتوجهاتٌ وكأنها متكفلةٌ ملتزمةٌ بإيجادِ أجيالٍ مبتوتةِ الصلةِ بدينِها وأمتِها، مستنقصةٍ لتراثِها وحضارتِها، ملتصقةٍ بالعدوِّ الكافرِ الذي لا يرضىٰ ولن يرضىٰ إلا أن تكونَ الأجيالُ أداةً لتنفيذِ كلِّ المآرب.

ناهيك بما تقومُ به هذه الوسائلُ من تخديرٍ للشعوبِ من خلالِ إشاعةِ الفحشاءِ، وبثِّ الرذيلةِ، ونشرِ الإباحيةِ والاختلاطِ والسفورِ، والترويجِ للعنفِ والجريمةِ، والتعودِ على رؤيةِ المنكراتِ، وعدمِ التفكيرِ في انكارِها، وتفجيرِ الغرائزِ، والعريِّ الفاضحِ، وعرضِ المفاتنِ في مسلسلاتِ إجرامٍ وخيانةٍ وعنفٍ وافلاتٍ من العقابِ.

مع معارضةٍ صريحةٍ لحجابِ المرأةِ المسلمةِ، وترويجٍ لاستحسانِ التأخرِ في الزواجِ، ومحاربةِ التعددِ المشروعِ، مما تفشىٰ معه الطلاقُ، وانتشرتْ الأنانيةُ، وحبُّ الذاتِ، وضعفُ الروحِ الجماعيةِ والترابطِ الأسريِّ، وصلةِ الرحمِ، لقد أخرجوا المرأةَ من عفتِها وكرامتِها وحجابِها وطهرِها، وأضحتُ الخمورُ والعهرُ من الأمورِ اللازمةِ لهذه الموادِّ الإعلاميةِ الساقطةِ،

فلا حول ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم. ويا باغيَ الخيرِ أقبلْ، ويا باغيَ الشرِّ أقصرْ، ولله عتقاءُ من النارِ.

هل هذه غاياتُ الإعلام في ديارِ الإسلام؟ وهل هذه حصانةُ الفكرِ وسلامةُ المجتمعِ؟ أم هل هذه هي الغَيرةُ؟ وهل هذه هي الديانةُ؟ بل هل هذه هي الوطنية؟؟.

هل تساءلتْ وسائلُ إعلام المسلمين فضائياتٌ وإذاعاتٌ وصحفٌ ومجلاتٌ: ماذا قدمتَ للشابِّ المسلم؟ وماذا صنعتْ من أجلِ المرأةِ المسلمةِ؟ وماذا أعدتْ للطفلِ المسلم؟؟.

هل عرفتْ هذه الوسائلُ حقيقةَ هذه الأمةِ ومنزلتَها ووظيفتَها؟؟.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [١٠٤].

أين خططُهم للدعوةِ إلى اللهِ على بصيرةٍ؟ وماذا قدموا لنشر عقيدةِ الإسلامِ الصافيةِ النقيةِ؟ أين تحصينُ فكرِ الشبابِ عن كلِّ دخيلٍ؟ أين بسطُهم لسيرةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ ؟ أين تجسيدُهم لحضارةِ الإسلامِ؟.

لم تكنْ موادُّهم سوى نقولٍ ومترجماتٍ وتقليدٍ ومحاكاةٍ؛ إنها ليست سوى أفلامٍ وأقلامٍ عربيةِ الحرفِ أجنبيةِ الفكرِ ضالةِ المعتقدِ مترددةِ الولاءِ. عقولٌ مسترقةٌ، ونفوسٌ مستعبدةٌ، وأفكارٌ

مستوردةٌ. التحررُ عندهم الخروجُ من الدينِ. والتقدمُ في فهمِهم هو الجريُ في ساحاتِ الإلحادِ. والتغييرُ المطلوبُ هو التقلبُ في عرصاتِ الجاهليةِ الوثنيةِ القديمةِ والحديثةِ. والابداعُ والتجديدُ هو نبذُ العقيدةِ والتنكرُ للشريعةِ، والفنُّ هو الاستكثارُ من صورِ العفنِ.

أيها الإخوةُ: هذا هو بعضُ الواقعِ، ومع الأسفِ أن ذلك في هذا الشهرِ الكريمِ يتجلىٰ فيه منهم زورُ القولِ وزورُ العملِ «**من لم يدع قول الزورَ والعمل به فليس للهِ حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابَه**»[1].

فحقٌّ على الأمةِ ألا تقفُ موقفَ الدفاعِ أو موقفَ التلاومِ والتشكي وبثِّ الأحزانِ والتأوهاتِ ولكنَّ الواجبَ يقتضي توظيفَ وسائلِ العصرِ للاستفادةِ في غرسِ القيمِ وحمايةِ العقولِ وتدعيمِ الثوابتِ الإيمانيةِ، وتعريةِ أساليبِ الأعداءِ، وكشفِ أصحابِ القلوبِ المريضةِ اتباعِ كلِّ ناعقٍ. يجبُ ترسيخُ مفهومِ حقِّ السمعِ والطاعةِ وحفظِ حقوقِ ولاةِ الأمورِ في المنشطِ والمكرهِ، والارتباطِ بالثقاتِ من أهلِ العلمِ وكبارِهم، وحمايةِ سياجِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، ورفضِ الغلوِّ ونبذِ التعصبِ والتحزبِ والانغلاقِ المذهبي.

يجبُ أن يتنادىٰ المخلصون وترتفعَ أصواتُهم معلنين أن هذه الوسائلَ إن لم يُحسَنْ توجيهُها فهي كفيلةٌ بأن تُخرجَ أجيالاً

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩/٤ ـ ح١٩٠٣)، والترمذي (٨٧/٣ ـ ح٧٠٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأبوداود (٣٠٧/٢ ـ ح٢٣٦٢).

لا ترىٰ الخيرَ ولا المصلحةَ إلا فيما عند الأعداءِ، ولا ترىٰ التخلفَ والسوءَ إلا فيما عند أهلِها ودينِها. يجبُ الاستيقانُ أن هذه الوسائلَ بهذه الموادِّ التي تقدمُها إنما تلفُّ الحبالَ حولَ الأعناقِ لتجرَّ الناسَ نحو أعدائِهم جرا. إنها نذُرُ سوءٍ تنالُ من أمننا الفكريِّ واستقرارِنا النفسي، نذرُ سوءٍ تقودُ إلى افرازِ أجيالِ مسخٍ لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ.

أمتنا تنتمي إلى خيرِ فكرٍ، ومعارفُنا أصحُّ المعارفِ، وقرآنُنا وحدَه هو الذي يهدي للتي هي أقومُ. وهو الذي يثيرُ هذا السؤالُ: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١] فيأتي الجوابُ صريحاً قاطعاً:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فالتزموا كتابَ ربّكم وسيروا على نهجِ نبيّكم محمدٍ ﷺ. واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه. إنه هو الغفور الرحيم.

الإعلام والأمن الفكري

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ وكفىٰ، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً أرجوا بها لديه الزلفىٰ. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً المصطفىٰ، صلى والله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ البرِّ والوفا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على دربِهم واقتفىٰ.

أما بعدُ. فاتقوا الله عبادَ اللهِ، فتقوىٰ اللهِ فيها النورُ والفرقان، واليسرُ بعد العسرِ والمخرجُ بعد الضيقِ.

أيها المسلمون: إنكم لتشاهدون في هذا العصرِ، وترون ما يحتمُ على كلِّ صادقٍ وناصحٍ، ويوجبُ على كلِّ مسؤولٍ في أي موقعٍ أن يرىٰ بعينٍ باصرةٍ وفكرٍ ثاقبٍ مداخلَ الشرِّ الكثيرةَ، ومنافذَ التلوثِ المتنوعةَ، يتسربُ عن طريقِها الفكرُالمنحرفُ، مما يحتاجُ معه الموضوعُ إلى عنايةٍ خاصةٍ واهتمامٍ متميزٍ.

وإن المسؤوليةَ لتتركزُ أولَ ما تتركزُ على الجهاتِ الإسلاميةِ المباشرةِ في الدولِ الإسلاميةِ من وزارتِ الإعلامِ والشؤون الإسلامية ودورِ الإفتاءِ ومراكزِ الدعوةِ والجامعاتِ والمدارس الإسلامية. كما يتأكدُ ذلك على الجهاتِ المسؤلة المعنيةِ بالشبابِ والتربيةِ ليحافظوا على الناشئةِ من الانحرافِ والشذوذِ في طرفيه

الافراطِ والتفريطِ. الغلوِّ والتفلتِ.

ومن هذا المنطلقِ جاءَ توجُّه هذه البلادِ ـ بلادِ الحرمين الشريفين ـ في هذا البابِ، فالأمنُ الفكريُّ هاجسٌ يحظىٰ بمكانتِه لدىٰ المسؤولين. وذلك نابعٌ من منطلقِها الأصليِّ منطلقِ العقيدةِ الصحيحةِ والمواطنةِ الخاصةِ الصالحةِ التي تنتمي إلى الحرمين الشريفين، وهم العمادان الشامخان اللذان تقومُ عليهما البلادُ المباركةُ.

فلقد أكَّد المسؤولون ـ أيدَّهم اللهُ ـ في نظرةٍ واعيةٍ وفهمٍ متبصرٍ أن الفكرَ السليمَ يعتمد ـ عندنا ـ على قاعدتين أساسيتين:

أولاهما التمسكُ بالمعتقدِ الصحيح المبنيِّ على كتابِ اللهِ العزيزِ والسنةِ النبويةِ المطهرةِ ثم فهم السلفِ الصالحِ رضوان الله عليهم.

وثانيهما: المواطنةُ الصحيحةُ التي ترتبطُ بمهبطِ الوحيِ ومُهاجرِ رسولِ اللهِ ﷺ والجزيرةِ دارِ الإسلامِ ومحضنِ الإيمانِ.

إن أيِّ منهجٍ أو فكرٍ لا ينطلقُ من هاتين القاعدتين أو لا يخدمُها ويرسخُهما فهو ضارٌّ وخطرٌ يجبُ الوقوفُ في وجهه؛ ومن ثمَّ فواجبٌ على كلِّ ذي فكرٍ وقلمٍ ممن له موقعٌ في التربيةِ والتوجيه، ومن يعملُ على تصحيح المفاهيم المدخولةِ والأفكارِ المغلوطةِ، ويدافعُ عن دينِ اللهِ ويقاومُ كلَّ دخيلٍ وشاذٍّ. إن أهمَّ منطلقاتِ التصحيح الاعتقادُ الجازمُ بأن أمةَ الإسلامِ لم يعزَّها الله إلا بالإسلامِ، فمهما ابتغتْ العزَّ في غيرِه فهي إلى الذلِ والتبعيةِ تصيرُ.

والإعلامُ في هذه البلادِ المباركةِ له رسالتُه الخاصةُ ودورُه المتميزُ ومسؤوليتُه الكُبرىٰ بما يجسِّدُ الإحسانَ في الحفاظِ على قاعدتي الدينِ والمواطنةِ الصالحةِ فلا يرضىٰ لنفسِه، ولا يقبلُ منه أهلُه ومحبُّوه أن يجاريَ الأبواقِ الناعقةِ ويسيرَ في ركابِ المنافسةِ الإعلاميةِ الهزيلةِ والتبعيةِ المهينةِ، سددَ اللهُ الخطىٰ وباركَ في الجهودِ.

وتقبلَ اللهُ من الجميعِ الصيامَ والقيامَ وحفظَ الجوارحَ وأصلحَ القلوبَ وهدىٰ إلى الطَريقِ المستقيمِ ورزقَ الجميعَ الصلاحَ والتقوىٰ.

رمضان موقف وداع ومحاسبة

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ أنعمَ علينا بدينِه، واختصَّنا بملَّتِهِ، وهدانا لحمدِه، أحمده سبحانه وأشكره، جعل لشهر الصيام حرماتٍ موفورةً، وفضائلَ مشهورةً، حرَّم فيه ما أحلَّ في غيرِه إعظاماً، ومنع فيه المطاعمَ والمشاربَ إكراماً. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه بيَّن أحكامَ الصيامِ فلا تُصْغي الأسماعُ الصائمةُ إلى لغوٍ، ولا تُسرِع الأقدامُ إلى لهوٍ، ولا تمتدُّ الأبصارُ إلى محظورٍ، ولا تُبسط الأيدي إلى ممنوعٍ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فأوصيكم أيُّها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عز وجل، فاتقوه وتوبوا إليه لعلكم تفلحون.

أيها المسلمون: الشهورُ والأعوامُ، والليالي والأيامُ، مواقيتُ الأعمالِ، ومقاديرُ الآجالِ، تمضي سريعاً، وتنقضي جميعاً. دوراتُ الأفلاكِ تتصرمُ، وسنواتُ الأعمارِ تتقضَّىٰ. أفلاكٌ سابحةٌ، وكواكبُ سيارةٌ وثابتةٌ، وكلٌّ يجري لأجلٍ مسمىٰ. وهذه سنةُ اللهِ في خلقِه وأكوانِه. وأهلُ الدنيا في هذا كأنَّهم بين أحلام نائِم، وخيالٍ زائلٍ.

إذا كان هذا هو الحالَ ـ أيُّها المسلمون ـ فجديرٌ بنا أن نقفَ موقفَ مراجعةٍ، بل وقفَةَ توديعٍ لشهركم ومحاسبةٍ.

وقفةُ مراجعةٍ داعيةٌ لاستعراضِ سجلِّ هذا الشهرِ الكريمِ، وتقويمِ الجهودِ والأعمالِ، ومراجعةِ الحسابِ، وتقليبِ الصفحاتِ ليعرفَ المسلمُ واقعَهُ، وينظرَ خطواتِ مستقبلِه وآثارَ أعمالِه.

موقفُ محاسبةٍ يُراجعُ فيه الذين أسرفوا على أنفسِهم مواطنَ إسرافهم، فصاحبُ الصيامِ الحقِّ لا يطولُ أمدُ غفلتِهِ.

لقد مضتْ أوقاتُ شهرِكم سِراعاً، وكان كثيرٌ منها ومنكم في التفريطِ مضاعاً. فنسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمِ أن يَخْلُفَ علينا بالمغفرةِ ما مضىٰ، وأن يباركَ لنا في الصالحاتِ فيما بقيْ. وأن يختمَ لنا شهرَنا بالعفوِ والغفرانِ والعتقِ من النارِ. وأن يُبَلِّغَ في الخيرِ آمالنا وأن يعيدَ أمثالَه علينا وعلى أمتِنا في خيرٍ وعزٍّ ونصرٍ وأمنٍ وأمانٍ.

موقفُ توديعٍ ومحاسبةٍ يدفعُ إليه ويدعو ما يُرىٰ من أحوالِ بعضِ المسلمينَ، فالأحوالُ لديهم في هذا الشهر الكريم تتحسَّنُ، والأعمالُ الصالحةُ عندهم تزدادُ، ولكن ما أن يبدأَ الشهرُ الكريمُ تتقوضُ خيامُه، ويتناقصُ هلالُه حتى ترىٰ هذا الغافلَ بعد ليلةِ سَبعٍ وعشرين أو بعد حضور ختمِ القرآنِ العظيمِ وقد بدأ العملُ عندَه يتناقصُ، ودبَّ في سلوكِه التقصيرُ والفتورُ. فتنحسرُ صفوفُ المصلين، ويقلُّ إحسانُ المحسنين. وكأنَّ القومَ لا يعرفونَ اللهَ إلا في رمضانَ، وكأنَّ اللهَ لا يُعبدُ إلا في شهرِ رمضانَ.

ومن أجلِ مزيدِ بيانٍ وحسنِ نظرٍ في المراجعةِ فلتعلموا أن في الحياةِ نوازعَ شهوةٍ وهوىٰ، وفيها دوافعَ غضبٍ وانتقامٍ، وفي الدنيا تقلبٌ بين النعماءِ والضراءِ. وفيها نزوعٌ عن الأوطانِ، ومفارقةُ الأهلِ والخلان. وفي الحياةِ كذلك جهادٌ في سبيل اللهِ ومجاهدةٌ للذودِ عن الحِمىٰ والكرامةِ، وفيها الكثيرُ والكثيرُ من الخطوبِ والمشاقِّ.

لكل ذلك يأتي شهرُ رمضانَ المباركُ درساً بل دروساً لطبيعةِ هذه الحياةِ. إنه شهرٌ كاملٌ متتابعٌ يتكررُ كلَّ عامٍ من أجلِ يقظةِ الوازعِ، والتحكمِ في النفسِ، ومراقبةِ العملِ.

وفي شهرِ رمضان تتنوعُ العباداتُ، وتكثرُ فرصُ الخيراتِ، وتهُبُّ نسماتُ النفحاتِ. من قيامِ ليلٍ في تراويحَ، وقراءةِ قرآنٍ، واعتكافٍ ومناجاةٍ، وذكرٍ ودعاءٍ، واجتهادٍ في الاحسانِ والمواساةِ، وبذلٍ للزكواتِ والصدقاتِ، وتحري ليلةِ القدرِ، وإخراجِ صدقةِ الفطرِ، وعظيمِ الرجاءِ والاستبشارِ بالعفوِ من الكريمِ المنانِ. ويزدادُ العملُ إذا دخلتْ العشرُ في خواتيمِ الشهرِ من احياءِ ليلٍ وايقاظِ أهلٍ وجدٍّ وشدٍّ للمآزرِ.

عباداتٌ وقرباتٌ تُصْلِحُ القلبَ، وتهذبُ النفسَ، وتُصِحُّ البدنَ، وتَذهبُ بفضولِ الكلامِ والمنامِ، وسوءِ مخالطةِ الأنامِ.

الصومُ جُنَّةٌ يقودُ إلى الجنةِ، وحِصنٌ حصينٌ يقىْ من النارِ. إنه امتناعٌ مشروعٌ، وتأديبٌ بالجوعِ، وخشوعٌ للهِ وخضوعٌ، يستثير في النفوس الكريمةِ الشفقةَ، ويحضُّ على الصدقةِ، ويكسرُ الكبرَ، ويعَلمُ الصبرَ، ويسنُّ خلالَ البرِّ. هيمنةٌ على سلطانِ

الغرائزِ، وتغلبٌ على نزاعاتِ الشهواتِ. الصيامُ لجامُ المتقين، وجُنَّةُ الصالحين ورياضُ الأبرارِ المتقين. تركوا محبوباتِ النفوسِ وملذاتِها ايثاراً لمحبةِ اللهِ ورضاه: «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**»[1].

أيُّها الإخوةُ: وموقفُ التوديعِ والمحاسبةِ يستدعي الاشارةَ إلى بعضِ العباداتِ في أسرارِها وآثارِها على المتعبدين والصائمينَ، وعياً وهدياً، وشعاراً والتزاماً، ومبدأً وتطبيقاً. دروسٌ واعظةٌ، وعبرٌ هاديةٌ لعل اللهَ أن يختمَ لنا شهرَنابخيرٍ، وأن يغفرَ لنا عِثارَنا، ويجبرَ كسرَنا.

أيُّها الإخوةُ: إن المؤمنَ يجتمعُ له في شهرِه هذا جهادان؛ جهادٌ في النهارِ بالصيامِ، وجهادٌ في الليلِ بالقيامِ، فمن جمعَ هذين الجهادين ووفَّىٰ حقوقَهما وصبرَ عليهما وصابرَ وُفِّي أجرَه بغير حسابٍ.

الصيامُ يمنعِ في النهارِ الطعامَ، والقرآنُ يمنعُ في الليلِ المنامَ، والصيامُ والقرآنُ يشفعان لصاحبِهما.

جهادٌ يتأبَّىٰ على الشهواتِ، ويترفعُ عن دنايا الملذاتِ، قوةٌ وجلدٌ تقودُ إلى الهدىٰ، وتصدُّ عن مراتعِ الهوىٰ.

إذا اشتدَّ توقانُ النفسِ إلى ما تشتهيه مع قدرتِها عليه ثم تركتْهُ للهِ عزَّ وجلَّ في موضعِ لا يطلعُ عليه إلا اللهُ كان ذلك برهانَ

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٤/ ١٢٥ ـ ح١٨٩٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٧ ـ ح١٦٤).

صحةِ إيمانِها، وقوةِ تقواها، ونورِ الوازعِ لديها، ومن أجلِ هذا كان الصيامُ سراً بين العبدِ وبين ربِّه. وخصَّه الربُّ بنسبته إليه: **«الصومُ لي»**[1] وجعلَ ثوابَه لا يدخل تحت عدٍّ: **«وأنا أجزي به»**[2].

أيها الإخوةُ: إن محورَ التفاوتِ بين الناسِ يكمنُ في الإراداتِ وليس في القوىٰ والقُدْراتِ: **«فليس الشديدُ بالصُّرَعةِ إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَه عند الغضبِ»**[3].

إراداتٌ قويةٌ تُوجَّه لضبطِ الوقتِ والنفسِ، والخلاصِ من الدِّعَةِ، ومقاومةِ النزواتِ.

تأمَّلوا حالَ الصائمِ المعتكفِ قد حبسَ نفسَه ولزمَ بيتِ اللهِ لطاعةِ اللهِ، انصرفَ عن الشواغلِ، وعَكَفَ قلبَهُ وقالبَهُ على ربِّه، شَغَل همَّه في ابتغاءِ مرضاةِ ربِّه. قطعَ العلائِقَ عن الخلائِقِ للاتصالِ بعبادةِ الخالقِ. وكلَّما قويتْ المعرفةُ باللهِ والمحبةُ به والأنسُ بقُربهِ أورثتْ صاحبَها انقطاعاً إلى ربِّه وحباً للخلوةِ به **«أنا مع عبدي إذا ذكرني»**[4].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٤/ ١٢٥ ـ ح١٨٩٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٦ ـ ح١١٥١).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (٤/ ١٢٥ ـ ١٨٩٤)، ومسلم (٢/ ٨٠٦ ـ ح١١٥١).

(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة أخرجه البخاري (١٠/ ٥٣٥ ـ ح٦١١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٤ ـ ح٢٦٠٩).

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً انظر الفتح (١٣/ ٥٠٨)، وموصولا في خلق أفعال العباد، وأحمد (٢/ ٥٤٠)، والحاكم (١/ ٤٩٦) وقال صحيح الاسناد =

ولقد كان نبيُّكم محمدٌ ﷺ مُداوماً على الاعتكافِ في شهرِ رمضان حتى قالَ الإمامُ الزهريُّ رحمه الله: (عجباً للمسلمين تركوا الاعتكافَ مع أنَّ النبي ﷺ ما تركهُ منذُ قدِمَ المدينةِ حتى قبضَهُ اللهُ).

الصيامُ يذكِّرُ بحالِ الأكبادِ الجائعةِ، والأجسادِ العاريةِ، والنساءِ المترمِّلةِ، والأطفالِ الضائعةِ، وحينَها يرِقُّ القلبُ ويلينُ الطبعُ وتُقْبلُ النفسُ على الخيرِ فتتأسىٰ بنبيِّها محمدٍ ﷺ فقد كان أجودَ الناسِ وكان أجودَ ما يكونُ في رمضانٍ.

إذا جاعَ من أَلِفَ الشبعَ، وإذا حُرِمَ من اعتادَ ألوان المُتَعِ عرفَ وقتَها الجوعَ كيف يقعُ، وأدركَ ألم الحرمانِ إذا لذعَ.

إن الصيامَ الصادقَ الذي يذكِّرُكَ بحالِ إخوانِك فتحسَّ بإحساسِهم وتعيشَ مآسيَهُمْ في حالِ مسغبتِهم ونكباتِهم، تتفاعلُ مع ذوي الضعفِ والحاجةِ والفقرِ والمسكنةِ في أرجاء المعمورةِ، فتبادرَ بالبذلِ والمساعدةِ، والإسهامِ في جهودِ الإغاثةِ، ودعمِ مشاريعِ الخيرِ والبرِّ.

أيها الإخوةُ، ورمضانُ موعدٌ معلومٌ لجماعةِ المسلمينَ كلِّهم ينتظمون فيه على نمطٍ واحدٍ من المعيشةِ؛ الغنيِّ والفقيرِ، والذكرِ والأنثىٰ، والشريفِ والوضيعِ، كلُّهم صائمٌ لربِّه، مستغفرٌ لذنبِهِ، ممسكٌ عن المفطراتِ في وقتٍ واحدٍ بدءاً ومُنتهىٰ. متساوون في الجوعِ والحرمانِ. إنه تذكيرٌ بوحدةِ الهدفِ، ووحدةِ الشعورِ،

= ووافقه الذهبي، وابن ماجه (٢/١٢٤٦ ـ ح٣٧٩٢).

ووحدةِ الضميرِ، ووحدةِ المصيرِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإذا أردتَ استشعارَ مظهرِ الوحدةِ في هذه الشعيرةِ العظيمةِ فأدِرْ بصركَ على الجموعِ المكتظةِ في حرمِ اللهِ وحرمِ رسولهِ ﷺ لترىٰ مئاتِ الألوفِ من المسلمين الصائمينَ وقد اجتمعتْ في هذه الرحاب الطاهرة بأجناسِها وألوانِها لتعيشَ أجواء الأمنِ والأمانِ، والبذلِ والعطاءِ. هذه الرحابُ المباركةُ التي تحتضنُ الإسلامَ ودعوتَه مهوىٰ أفئدةِ المسلمين أجمعين، تلتقي هذه الجموعُ في رحابِها، وتلتقي معها آمالها، وتتجه إليها قلوبُها وأجسادُها، وتولي نحوها في القبلةِ وجوهَها.

فارجع البصرَ كرتين لترىٰ الوحدةَ متجسدةً في إمساكِها وإفطارِها، متحلقةً حولَ البيتِ العتيقِ، متراصَّةً في مسجدِ الرسولِ الأمينِ ﷺ.

أيها الإخوةُ: هذه بعضُ الأعمالِ والآثارِ، وتلك هي بعضُ الحكمِ والأسرارِ.

أيها الإخوةُ: والموقفُ موقفُ وداعٍ ومحاسبةٍ. أين استشعارُ المحاسبةِ وأين صدقُ التوديعِ من إناسٍ لم يكنْ صيامُهم سبيلاً لتقوىٰ اللهِ وضبطِ شهواتِهم وحفظِ نوازعِ نفوسِهم.

أقوامٌ انقلبَ صيامُهم نوماً في النهارِ من غير عملٍ، وسهراً في الليلِ في غير عبادةٍ.

قارنوا بين أحوالِ الصائمين القانتين وبين أقوام يستخفون من

الناسِ ولا يستخفون من اللهِ.

لم يعرفوا من رمضانِهم إلا أنواعَ الملذاتِ ومظاهرِ التبذيرِ والإسرافِ، استكثارُ صنوفِ الموائِد وألوانِ المطاعم، فصيامهم جوعٌ وعطشٌ ليس إلاَّ. . . : «**كم من صائمٍ ليس له مَن صيامِه إلا الجوعُ والعطشُ**»[1].

أين الصيامُ الحقُّ من أقوامٍ يقترفون المآثمَ والخطايا ثم لا يتوبون ولا هم يذكَّرون؟؟. يشتغلون بتدبير الفتنِ والمكايدِ ومحاربةِ اللهِ ورسولِه وجماعةِ المسلمين. وقومٌ آخرون انطوتْ قلوبُهم على الحقدِ والحسدِ والبغضاءِ ليفرقوا كلمةَ المؤمنين.

وفئامٌ تجترىءُ على المظالمِ وتستغلُ مصالحَ المسلمين لمآربِهم الشخصيةِ وتتطاولُ بجارِحتها لتؤذي عبادَ اللهِ وتهتكَ حرماتِهم.

الصائمُ لا يكذبُ ولا يرتابُ ولا يشيْ[2] ولا يرتشيْ، لا يخادعُ ولا يرائي، لا يأكلُ الربا ولا يأكلُ أموالَ الناس بالباطلِ، لا يمنعُ الزكاةَ أو يستثقلُ إخراجها. ليعلم هؤلاء أن العَباداتِ في الإسلامِ غيرُ منفصلةٍ عن الحياةِ ومعاركها وآفاقِها.

وإن كثيراً من الشبابِ والشاباتِ ليُخَصُّون بحديثِ المحاسبةِ هذا ففيهم لاهونَ غافلونَ قد قصَّروا في جنبِ اللهِ وكأنَّه لا همَّ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٣)، والدارمي وسنده جيد، والحاكم (١/ ٤٣١) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير ورجاله موثقون انظر مجمع الزوائد (٣/ ٢٠٢).

(٢) يشي: من الوشاية وهي النميمة.

لهم إلا أن يذرَعوا الأسواقَ جَيْئةً وذهاباً يؤذون أنفسَهم ويؤذونَ المؤمنين والمؤمناتِ، يقطِّعُونَ أوقاتَهم في سهرٍ عابثٍ وسمرٍ ماجنٍ، وتبرجٍ وتسكعٍ، واظهارٍ للزينةِ والمفاتنِ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

كما تخصُّ وسائلُ إعلام المسلمينَ بخطابٍ، فإن لديها نظراً قاصراً في حقِّ هذا الشهرِ الكريم. وإن منها وسائلَ ذاتَ انتشارٍ عريضٍ وغزوٍ فضائي واسعٍ. أيُّ نظرٍ هذا الذي لا يُرىٰ فيه هذا الشهرُ إلا وكأنه ميدانٌ للمسلسلاتِ الماجنةِ والمسابقاتِ الهزيلةِ الهابطةِ في تنافسٍ بينها غيرِ محمودٍ.

ناهيكَ بأقوام من ذوي اليسارِ والجِدَةِ قتلَهم سَعَارُ المادةِ يطلبونَ ولا يبذلُونَ، ويشتهونَ ولا يصبرونَ، ويجمعونَ ولا يقْسِمون.

أيها المقصرون والمقصراتُ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[(1)].

ألا فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ وأرو ربّكم من أنفسِكم خيراً فمن كان مجدًّا فليزددْ، ومن كان مقصراً فليَقْصُرْ، ومن غلبه هوىٰ أو تشاغلَ بلهوٍ فليبادرْ بالتوبةِ النصوحِ وليُعظُم رجاؤه بربِّه فأبوابُ التوبةِ مُشرَعَةٌ، ومن كان غارقاً في الشهواتِ والنزواتِ فقد طالَ عناؤه وعظمُ شقاؤه، ومن نوقشَ الحسابَ هلك. ومدارُ السعادةِ

---

(1) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٩ ـ ح١٩٠٣)، والترمذي (٣/ ٨٧ ـ ح٧٠٧) وقال: حديث حسن صحيح، وأبوداود (٢/ ٣٠٧ ـ ح٢٣٦٢)، وابن ماجه (١/ ٥٣٩ ـ ح١٦٨٩).

في طولِ العمرِ وحسنِ العملِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء: ١٠٠ ـ ١١٢].

رمضان موقف وداع ومحاسبة

الخطبة الثانية

الحمد للهِ شرحَ صدورَ المؤمنين فانقادو لطاعتِه، حبَّبَ إليهم الإيمانَ وزينَه في قلوبِهم ووفقهم لحسنِ عبادتِه، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله أقامَ الدينَ ورفعَ أعلامَ شريعتِهِ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أزواجه وأصحابِهِ وعترتِه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ فأوصيكم عبادَ اللهِ ونفسي بتقوىٰ اللهِ ربِّكم في السرِّ والعلنِ، وانتهوا عن المعاصي والانقيادِ للأماني، فالكيِّسُ من دانَ نفسَه وعملَ لما بعدَ الموتِ، والعاجزُ من اتْبَعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأماني.

أيها الإخوةُ: إن مداومةَ المسلمِ على الطاعةِ من غير قصرٍ على وقتٍ معينٍ أو شهرٍ مخصوصٍ أو مكانٍ فاضلٍ من أعظم البراهين على القبولِ وحسنِ الاستقامةِ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩ ﴾ [الحجر: ٩٩] ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فجِدُّوا رحمكم الله في خواتيمِ شهرِكم؛ فإنما الأعمالُ

بالخواتيمِ، ومن أحسن وأصلح فيما بقيْ غُفِر لَه ما سلَفَ، ومن استمرَّ في تقصيرْ أُخذَ بما سلفَ وبما بقيْ.

وإن من مسالكِ الإحسانِ في ختامِ شهرِكم ـ رحمكم الله ـ إخراجَ زكاةِ الفطرِ ففيها إلفةُ القلوبِ، وعطفُ الغنيِّ على أخيه الفقيرِ، فرضَها رسولُ الله ﷺ طهرةً للصائِم وطعمةً للمساكينِ، وما اشتكىٰ فقيرٌ إلا بمقدارِ ما قصَّرَ غنيٌّ. ومقدارُها صاعٌ من طعامٍ من غالبِ قوتِ البلدِ كالأرزِ والبُرِّ والتمرِ عن كلِّ مسلمٍ.

ووقتُ إخراجِها الفاضلُ يومُ العيدِ قبلَ الصلاةِ، ويجوزُ تقديمُها قبل ذلك بيومٍ أو يومين. فأخروجها رحمكم اللهُ طيبةً بها نفوسُكم ثم ابتهجوا بعيدِكم واشكروا ربّكم لتمام فريضتِكم.

ولكن أعيادَ المسلمين لا يبتهجُ فيه حقَّ الابتهاجِ إلا أهلُ الطاعاتِ من الصائمين والقائمين والمنفقين والمستغفرين بالأسحارِ.

ولقد قال قائلُ السلفِ: (كلُّ يومٍ لا يُعصىٰ اللهُ فيه فهو عيدٌ، وكلُّ يومٍ يقطعُهُ المؤمنُ في طاعةِ مولاه وذكرِهِ وشكرِهِ فهو عيدٌ).

العيدُ مناسبةٌ جميلةٌ لاطلاقِ الأيديْ الخيِّرةِ في مجالِ الخيرِ لتعلوَ البسمةُ جميعَ الشفاةِ وتغمرَ البهجةُ كلَّ القلوبِ.

عيدٌ مقرونٌ بتفريجِ كربةٍ وملاطفةِ يتيمٍ ومواساةِ ثكلىٰ، وتفتيشٍ عن أصحابِ الحوائجِ والجوائحِ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

عيدٌ ومناسبةٌ لتأكيدِ أواصرِ الرحمِ والقربىٰ والودِّ مع الإخوانِ والأصدقاءِ، تتقاربُ القلوبُ على المحبةِ، وتجتمعُ على الألفةِ

وترتفعُ عن الضغائِنِ.

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ وودِّعوا شهرَكم وابتهجوا بعيدِكم بالبقاءِ على العهدِ وإتْباع الحسنةِ الحسنةَ فذلك من علاماتِ قبولِ الطاعاتِ فأتْبعوا رمضانكم بصيام ستٍ من شوالٍ كما ندبَكم إلى ذلك نبيُّكم محمدُ ﷺ فمن فعل ذَلك فكأنما صامَ الدهرَ كلَّه[1].

تقبلَ اللهُ منا ومنكم الصيامَ والقيامَ وسائرَ الطاعاتِ وأعادَ علينا وعلى أمةِ الإسلامِ هذا الشهرَ بالقبولِ والمغفرةِ والصحةِ والسلامِ وعزِّ الإسلامِ إنه سَميعٌ مجيبٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٢٢ ـ ح١١٦٤)، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٣/ ١٣٢ ـ ح٧٥٩)، وأبوداود (٢/ ٣٢٤ ـ ح٢٤٣٣)، وابن ماجه (٥٤٧ ـ ح١٧١٦)، وأحمد (٥/ ٤١٧).

في تاريخ مكة ومآثرها

الخطبة الأولى

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونستهديه ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه وخِيرتُه من خلقِه ومصطفاه من رسلِه، أرسله بالحقِّ بشيراً ونذيراً. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آلِه الطيبين الطاهرين، وعلى آله وأصحابِه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد فأوصيكم أيهاالناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ، فالزموا كلمةَ التقوىٰ رحمكم اللهُ، وكونوا أحقَّ لها وأهلَها.

أيها المسلمون: ثقافةُ الأمةِ هي مجموعُ ما تملك من جوانبَ فكريةٍ وروحيةٍ، وأخلاقيةٍ وسلوكيةٍ، ومدنيتُها هي مجموعُ جوانبِها الماديةِ. أما الحضارةُ فهي جماعُ الثقافةِ والمدنيةِ معاً. وإن الحضارةَ بهذا المفهومِ هي أنفسُ وأخلدُ ما تفخرُ به الأمةُ من تراثِها وجِماعِ علومِها وآدابِها.

ولما مدَّ الإسلامُ فتوحاتِه منطلقاً من مكةَ المشرفةِ وطيبةَ الطيبةِ ومتوجهاً إلى أصقاعِ المعمورةِ شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً دخلَ فيه أبناءُ البلادِ المفتوحةِ، وشملتْ سماحتُه من بقي على دينِه من هؤلاءِ.

لقد كان الإسلامُ بحضارتِه ومدنيَّتِه متيناً قوياً بقدرِ قوةِ عقيدتِه ورسوخِ مبادئِه. وبهذه القوةِ والرسوخِ أخذ وأعطىٰ، ووافقَ وتأبَّىٰ، ولم يندفعْ في حركةِ تقليدٍ أعمىٰ للأفكارِ الوافدةِ من الحضاراتِ التي قابلها.

ومن أجلِ التحقُّقِ من ذلك أيها المسلمون حجاجَ بيتِ الله: فهذه متابعةٌ لتاريخِ دينِ الإسلامِ ورسوخِ عقيدتِه وشموخِ بنيانِه من خلالِ النظرِ في تاريخِ مكةَ المكرمةِ وعمرانِها وشرفِها ومآثرِها زادها اللهُ تشريفاً وتكريماً ومهابةً وبِرًّا.

حديثٌ عن عقيدةٍ وتاريخٍ، ودينٍ وتراثٍ، وشريعةٍ وعملٍ، وفضائلَ ومآثرَ. تتوقُ إليه النفوسُ وتهفو إليه الأفئدةُ.

هذه الأمةُ تجدُ أصلَها وأصالتَها من خلالِ التوحيدِ والتاريخِ. في بيتِ اللهِ المعظمِ يتعانقُ الدينُ مع الدنيا، وترتبطُ الأرضُ بالسماءِ.

تاريخُ المسجدِ الحرام بيتِ اللهِ وكعبتِه وبلدِه تاريخٌ عميقٌ عريقٌ، إنه من أقدم بلادِ الدنيا إن لَم يكن أقدمَها. بل البيتُ المعظمُ أولُ بيتٍ وُضِعَ للناس. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]. وأبوذرٍ رضي الله عنه يقول: «قلتُ يا رسول الله: أيُّ مسجدٍ وضعَ في الأرضِ أول؟ قال: **المسجد الحرام**»(١).

الله أكبرُ إنه تاريخٌ من أنصع التواريخِ، وتدوينٌ من أوثقِ التدوينِ. محفوظٌ في كتابِ اللهِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديه

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٧٠ ـ ح٥٢٠)، وأحمد (٥/ ١٥٠).

ولا من خلفِه، ومثبوتٌ في الصحيح من سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ. ومشاهَدٌ من خلالِ سيرةِ نبيِّ الله الطاهرةِ المطهرةِ وصحبِه الكرامِ البررةِ.

القرآنُ الكريمُ ذكرَ مكةَ والكعبةَ والبيتَ المعظمَ والمسجدَ الحرامَ عشراتِ المراتِ، بيَّن فيها ما ينبغي لهذا المكان الطاهرِ من التكريمِ والإجلالِ والتعظيمِ والتقديسِ، وعرضَ لصورٍ من تاريخِه الراسخِ الضاربِ في أعماقِ الزمنِ، كما تحدثتْ كثيرٌ من آياتِه عن أحكامِه ومناسِكه والتقلبِ في عرصاتِه.

إنها حركةُ التاريخِ وميلادُ الأمةِ تبدو في نبيِّ اللهِ وخليلِه إبراهيمَ عليه السلامُ وهو يودِّع طفلَهَ الرضيعَ إسماعيلَ وزوجَه المنفردةَ هاجرَ ويتوجَّه بقلبه الدافقِ ودمعِه الخانقِ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وها هو الملَكُ ينادي الأمَّ الملتاعةَ على وليدِها: «لا تخافوا الضيعةَ فإن ههنا بيتَ اللهِ يبنيه هذا الغلامُ وأبوهُ وإن الله لا يضيِّع أهله»(١).

وتتسارعُ الأيامُ والأطيافُ فإذا إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلامُ يرفعانِ القواعدِ من البيتِ بأمرِ ربِّهما: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٥٦ ـ ح٣٣٦٤).

إنه إبراهيمُ نموذجُ النبوةِ الأولى في حربِ الأوثانِ ومطاردةِ الشيطان. وإنه بيتُ اللهِ شعارُ التوحيدِ ومنارُ الحنيفيةِ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

ثم تسارعٌ آخرُ فإذا هو عبدُ المطلبِ بنُ هاشم يتصدىٰ للغزاةِ معلناً وموقناً أن للبيتِ رباً يحميه. ثم هو مرةً أخرىٰ ينذرُ ابنه عبدَاللهِ الذي يُفدىٰ بما يزيدُ على مائةٍ من الإبلِ ليأذنَ اللهُ بخروجِ أكرم الخلقِ على اللهِ المصطفىٰ المختارِ سيدِنا ونبيِّنا محمدٍ رسولِ الله ﷺ. ثم تجمعُ قريشٌ والقبائلُ من حولها من طيِّبِ مالِها لتعيدَ بناءَ البيتِ بعد أن أخذتْ منه عادياتُ الزمنِ. ويشبُّ الفتى محمدٌ ﷺ فإذا هو يضعُ الحجرَ الأسودَ بيمينِه الشريفةِ ليطفيءَ نارَ فتنةٍ كادت أن تثورَ. ثم يبعثُه ربُّ هذا البيتِ من جوارِ هذا البيتِ هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنِه وسراجاً منيراً.

ينطلقُ التاريخُ وتنبعثُ الأمةُ لتتربعَ على عرشِ قيادةِ الدنيا ردحاً من الزمنِ غيرِ قصير.

أيها الإخوةُ: لقد دعا أبونا إبراهيمُ عليه السلام أن يظلَّ بيتُ اللهِ آمناً وأن يحفَظَ ذريتَه من الشركِ لما رأىٰ من سننِ اللهِ في مصيرِ الأممِ ومصيرِ الأسرِ بعد الأنبياءِ وبعد التضحياتِ الجسام والدعواتِ العاليةِ وكيف أصبحتْ إن لم يحفظْها اللهُ فريسةً لشياطين الإنس والجنِّ والدجالين والمضلِّين من عُبَّادِ الأوثانِ ودعاة الجاهليةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦].

نعم لقد كان من دعاءِ إبراهيمَ وإسماعيلَ الملحِّ المشفقِ أن يعيشا على الإسلامِ وللإسلامِ وأن يموتا عليه، وذريتُهما من بعدهما تَدينُ به وتدعو إليه وتغارُ عليه: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وإن من بركاتِ هذه الدعواتِ المباركاتِ أن جعلَ اللهُ بمنِّه وكرمِه على أهلِ الإسلامِ وأهلِ الحرمِ جعلَ كعبتَه وبيتَه قياماً للناس. لقد جعلَه صلاحاً ومعاشاً تقومُ به حياتُهم، ويأمنون فيه على أنفسِهم. قال أهلُ العلم: والحكمةُ في جعلِ اللهِ تعالىٰ ذلك قياماً للناسِ لأنه سبحانه خلقَ الخلقَ على الطبيعةِ الآدميةِ والجبلةِ البشريةِ من التحاسدِ والتنافسِ والتقاطعِ والتدابرِ والسلبِ والإغارةِ والقتلِ والثأرِ فلم يكنْ بدٌّ في الحكمةِ الإلهيةِ والمشيئةِ الأزليةِ من رادعٍ يدومُ معه الحالُ، ووازعٍ يُحمدُ معه المآلُ، فعظَّم اللهُ في قلوبِهم البيتَ الحرامَ، وأوقعَ في نفوسِهم هيبتَه، وعظَّم فيهم حرمتَه، وشرع في ذلك من الأحكامِ ما يختصُّ به هذا الحرمُ، فكان موضعاً مخصوصاً، وحرماً حراماً، لا يدركه كلُّ ظلوم، ولا يناله كلُّ غشوم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ..﴾ [إبراهيم: ٣٧].

بيتُ اللهِ المعظمُ قلبُ الأمةِ وقبلةُ العبادةِ، مَدْرجُ الإسلامِ ومرباهُ، أحجارُه ورمالُه وسهولُه وجبالُه كتابٌ مسطورٌ عن مسيرةِ

الإسلامِ وسِيَرِ الأعلامِ، إنه صدىٰ القرآنِ، وآياتُ الوحي، فيه كُتِبَ مبدأُ التاريخِ وعنوانُ الحضارةِ.

من هذا الدين والتاريخ تصدَّرتْ مكةُ وكعبتُها ومسجدُها المكانةَ العميقةَ الراسخةَ، فهي مهوى الأفئدةِ، ومحلُّ المثابةِ، ومستقرُّ الأمنِ.

أيها المسلمون: وثمتَ صورةٌ جليةٌ تؤكدُ مكانةَ هذا البيتِ وعنايةَ اللهِ به. إنها حرصُ خلفاءِ المسلمين وولاتِهم على مرِّ التاريخِ وعنايتُهم بهذا البيتِ ليبقىٰ علماً على الإسلام، ورمزاً للأمةِ، وعنوانَ وحْدتِها، ومعيارَ مصيرِها.

لقد كان له النصيبُ الوافرُ من العنايةِ من لدن الخلفاءِ والملوكِ والولاةِ والأمراءِ قربةً لله، وخدمةً لعبادِ اللهِ وقياماً بالمسؤوليةِ.

ومن لطفِ اللهِ ورحمتِه وفضلِه ومنَّته إنه لما سُهلَ التواصلُ في هذا الزمانِ وصارتْ الحشودُ القاصدةُ لهذا البيتِ، الآمَّةُ لهذه المشاعرِ تزدادُ العامَ تلوَ العامِ، والموسمَ بعدَ الموسمِ قيَّضَ اللهُ لولاةِ الحرمين الشريفينِ وخُدَّامِهما من المقوماتِ في دولةِ الوحدةِ والتوحيدِ ما يتواكبُ مع هذه المواكبِ المتزايدةِ، والوفودِ الوافدةِ فكانتْ التوسعةُ المشهودةِ، وتنظيمُ المشاعرِ؛ لا تقصيرَ في جُهْدٍ، ولا تقتيرَ في مالٍ، فتسامق البنيانُ، وتكامل هذا الصرحُ العتيدُ. إنجازٌ يستوعبُ حركةَ قاصدي هذا البيتِ حجاجاً وعماراً في نظرٍ متوافقٍ مع المستقبلِ ومستجداتِه.

وإنها في نظرِ الناظرِ صورةٌ من صورِ التمكينِ لدينِ اللهِ وتعظيمِ شعائِره. إنه مشروعٌ مشكورٌ يستهدفُ غاياتٍ عليا لخدمةِ الإسلامِ

والمسلمين، والحرمِ وأهلِ الحرمِ.

كلُّ ذلك في ظلالِ أمنٍ ورافٍ، وسُبُلٍ آمنةٍ، وطرقٍ ميسرةٍ. لقد توحدتْ الكلمةُ وظهرَ أمرُ الشرع فكان التوجهُ نحو العلم والبناءِ والنماءِ وفتحَ اللهُ من خيراتِه وأنزلَ من بركاتِه حتى أكلوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم.

بلادٌ طهَّرها اللهُ من كلِّ ألوانِ المبادىءِ الهدامةِ، وجنبها دعاوىٰ العنصريةِ والقبليةِ والطائفيةِ.

وإن حقَّ ذلك كلِّه أن يُشكرَ فلا يكفرَ، فبالشكرِ تدومُ النعمِ، وإن زوالَها بكفرانِها. ونعوذ بالله من الطغيانِ، ونعوذ بالله من الحورِ بعد الكورِ.

ذلكم هو الدورُ الطليعيُّ الذي يقومُ به من يشرِّفُه الله بالولايةِ على الحرمين الشريفين. إنه الجامعُ لكلمةِ الأمةِ، والمعبرُ عن أمالِها، إنه تكليفٌ وتشريفٌ يقومُ به من يقومُ بمثلِ هذه الخدماتِ الجليلةِ.

ومما ينبغي أن يُعلمَ أن لخدمةِ الحرمين الشريفين أثرَها الكبيرَ في توطيدِ أركانِ الممالكِ الإسلامية كلِّها. وهذا الكلامُ لا يلقىٰ جُزافاً لأن الحرمين الشريفين ليسا رمزين تذكاريِّين، وليسا بناءَين أثريِّين. ولكنهما شعائرُ ومشاعرُ لا تقومُ للمسلمين قائمةُ بدونِهما، بل لا تكتملُ الصورةُ الشرعيةُ لدولةٍ إسلاميةٍ إن لم يكن الحرمانِ الشريفانِ رمزاً لها.

وإن شئتم مزيداً من البرهانِ فما هو حالُ المسجدِ الأقصىٰ؟ وما هو حالُ أمةُ الإسلامِ؟ إنكم لترون وتشاهدون أن المسلمين

كلَّما زاد ضعفُهم وتشتتْ كلمتُهم وتفرقتْ آراؤُهم ظهر ذلك جلياً في ازديادِ اليهودِ إمعاناً في غصبِهم وترسيخاً لمطامِعهم.

أما العهودُ والمواثيقُ والاتفاقياتُ فسبيلُها كما قالَ قرآنكم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠].

ولا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ؛ فهلا شددُّتم الرحالَ، وهلاَّ كنتم أنتم الرجالَ؟؟؟.

هذه هي المقدساتُ وهذه شؤُونها، إن بها قيامَ الناسِ وهي رمزُ حياتِهم ووجودِهم واللهُ من وراء القصدِ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾

[القصص: ٥٧ ـ ٥٨].

في تاريخ مكة ومآثرها

الخطبة الثانية

الحمد للهِ جعل الكعبة البيتَ الحرامَ قياماً للناس، وطهرَه من الأوثانِ والأرجاس، أحمده سبحانه وأشكره وأسألهُ الهدىٰ والتقىٰ فالتقىٰ خيرُ لباسَ. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنَا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ.

أيها المسلمون: انطلقَ الإسلامُ من هذه الديارِ وكانت تسودُ العالمَ الخصوماتُ والعصبياتُ، فلم تزلْ آياتُ اللهِ تتنزلُ تهدي القلوبَ الضالةَ، وتردُّ النفوسَ الشاردةَ، فما لبثتْ الأمةُ المحطمةُ أنْ عادتْ متماسكةً دستورُها: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢] ومنهاجُها: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]. وشعارُها: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وخُلُقها: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ودعاؤُها: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

هذا هو التاريخُ والمنهجُ. من تاجرَ مع اللهِ ربحتْ تجارتُه، ومن هاجرَ إلى اللهِ مخلصاً صحتْ هجرتُه، ومن استجارَ بالله فنِعمَتْ اجارتُه. ومن حلَّ بحرمِ اللهِ مؤمناً حرَّم الله عليه النارَ.

هذا هو البيتُ وهذه وظيفتُه.

كم لله تعالىٰ من هؤلاء القاصدين من عبادٍ صالحين، هذا منيبٌ وهذا مخبتٌ، وذاك ناسكٌ، وذاك متبتلٌ، قانتون أوَّابون. صابرون محتسبون.

يعيشون في بقاعٍ هي أفضلُ البقاع، ويجتمعون في أرضٍ هي أقدسُ المقدساتِ. من أعظمِ مجامعِ الدنيا، تجتمعُ لهم أسبابُ الرضا والرضوان.

يقولُ الحسنُ رحمه اللهُ: لا يزالُ الناسُ على الدينِ ما حجُّوا البيتَ واستقبلوا القبلةَ. وفي الحديثِ الصحيح: «**من صلىٰ صلاتنا واستقبلَ قبلتنا وأكلَ ذبيحتَنا فذلك المسلمُ**»[1].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم اللهُ واعرفوا لهذا البيتِ قدرَه، وعظموا حرماتِه فذلكم عنوانُ الصلاحِ، وسبيلُ الهدىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٩٢ ـ ح٣٩١).

خطبة عيد الأضحى المبارك

آمال الأمة وبشائرها من خلال سنن الله وهدى القرآن

الله أكبرُ (تسعاً) الله أكبرُ خلقَ الخلقَ وأبدعَ الكائناتِ، الله أكبرُ شرعَ الدينَ وأحكمَ التشريعاتِ. الله أكبر جأرتْ إليه الخلائقُ وعنتْ الوجوهُ وارتفعتْ بطلبِ رحمتِه الأصواتُ. اللهُ أكبرُ وقد انطلقتْ الحناجرُ باللغاتِ المختلفاتِ، اللهُ أكبرُ وقد أحرمَ العمارُ والحجيجُ وأهلُّوا من الميقاتِ، اللهُ أكبرُ كلَّما علوا نشزاً وهبطوا وادياً وسلكوا فجاجَ مكة وأهلّوا بين المشاعرِ في أداءِ الشعائرِ فسكبوا هنالكَ العبراتِ. اللهُ أكبرُ كلَّما نظر إليهم الرحيمُ الغفارُ فأفاضَ عليهم من خِلَعِ الكراماتِ والبركاتِ.

الله أكبرُ كبيراً والحمد للهِ كثيراً وسبحان اللهِ بكرةً وأصيلاً. اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إله إلا اللهُ واللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ولله الحمدُ.

الحمدُ للهِ خلَقَ آدمَ من صلصالٍ كالفخارِ، وكرَّمَهُ وفضلَّهُ وأسجدَ له ملائكتَه المقربينَ الأطهارَ. الحمدُ للهِ أهلِ الحمدِ ومستحقِّه، يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ. أحمدُه سبحانُه وأشكرُه وأتوبُ إليه وأستغفرُهُ، فهو أهلِ الثناءِ والمجدِ، وأهلُ التقوىٰ وأهلُ المغفرةِ. سبحانُه وتقدسَّ (ألا هو العزيز الغفار). وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له شهادةَ الحقِّ واليقين في الجهر والإسرارِ.

وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا وحبيبَنا وإمامَنا وقدوتَنا محمداً عبدُ اللهِ ورسولُه البشيرُ النذيرُ الهاديْ المختارُ، جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه وأعلى رايةَ التوحيدِ ورفعَ للدين المنارَ، بالصدقِّ في حبِّه واتِّباعِه تُبتغى منازلُ الأبرار. صلى الله وسلم وباركَ عليه وعلى آله الأصفياءِ وأصحابه الأخيارِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ وبطريقِهم التزم وعلى هديهم سارَ. الله أكبرُ الله أكبرُ لا إله إلا اللهُ واللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أمَّا بعدُ أيها المسلمون: حجاجَ بيتِ اللهِ: ها أنتم تخطون خطواتِكم المباركةَ في يومِ الحجِّ الأكبرِ، تقبلَّ اللهُ حجَّكُم، وشكرَ سعيَكم، وأعطاكم سُؤْلَكم، وأتمَّ لكم نسُكَكُم.

ها أنتم تَدْرُجُونَ على ثرَىٰ هذهِ الأرضِ الطيبةِ المباركةِ الآمنة بأمانِ اللهِ المحفوظةِ بحفظِ اللهِ، ثمَّ هي بمنِّ اللهِ وكرمِه محفوظةٌ بيقظةِ قادتِها ورعايةِ مسؤوليها، أعانهم اللهُ وباركَ في جهودِهم، وأجزل مثوبتَهم، وسدَّد خُطاهم.

أرضٌ طيبةٌ، وتاريخٌ مجيدٌ، وحاضرٌ زاهرٌ، وجوٌ عابقٌ، تزدحمُ فيه هذه المناظرُ والمشاهدُ حيةً نابضةً تختلطُ فيه مشاعرُ العبوديةِ وأصواتُ التلبيةِ، ونداءاتُ التكبيرِ، والإقبالُ على الربِّ الرحيمِ.

في هذه الأجواءِ الفواحةِ، والأفواجِ المتدفقةِ يغمرُ قلبَ المتأمِّلِ شعورٌ فياضٌ بانتماءِ أفرادِ هذه الأمةِ إلى هدفٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ، الربُّ واحدٌ، والنبيُّ واحدٌ، والدينُ واحدٌ والدستورُ واحدٌ.

إنه شعورٌ ومناسبةٌ تستدعيْ من المؤمنِ وقفةَ تأمّلٍ وموقفَ نظرٍ في سننِ اللهِ في التغييرِ وأحوالِ الأممِ.

أيُّها المسلمونَ حجاجَ بيتِ اللهِ: تمرُّ الأمَمُ في تقلُّباتٍ من المدِّ والجزرِ، وتعملُ سننُ اللهِ عملَها في الناسِ والأحداثِ والأشياءِ، ومن ثمَّ تكونُ الآثارُ والنتائجُ والجزاءُ العادلُ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

والأيامُ بين الناس دُوَلٌ، والزمنُ في أهلِه قُلَّبٌ، والحياةُ ـ بإذن اللهِ ـ أدوارٌ وأطوارٌ، فالقويُّ فيها لا يستمرُّ أبدَ الدهرِ قوياً، والضعيفُ فيها لا يدومُ مدىُ الحياةِ ضعيفاً.

وما هذه المداولةُ والأدوارُ، وما تلكَ التقلباتُ والأطوارُ إلا ليُجْريَ اللهُ حكمتَهُ، ليبلوَ وليمحِّصَ، وليَميْزَ ويَمحقَ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١].

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إله إلا اللهُ واللهُ أكبرُ الله أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أمةَ الإسلامِ حجاجَ بيتِ اللهِ: وعلى ضوءِ سننِ اللهِ وعلى هَدْيٍ من كتابِ اللهِ فَلْننظرْ في أوضاعِ أمّتِنا، ولْنتدبرْ مواطنَ ضعفِنا وقوتِنا، ولْنراجعْ علاقاتِنا مع دينِنَا وأعدائِنا.

إن الخطبَ لعظيمٌ وإن أمرَ الإصلاحِ لكبيرٌ، ولكنَّه يسيرٌ على من صدقَ مع اللهِ وأخلصَ للهِ.

أمةٌ أصرَّ الأعداءُ على تمزيقِها، ووضعوا الخطَطَ لتفريقِها، وتداعَوْا لنهبِ حقوقِها، وقتلِ روحِ الدينِ والعزةِ فيها. تسلَّطُوا على الشعوبِ والديارِ منذ ما يزيدُ على قرنينِ من الزمانِ، مزَّقوا الأرْضَ قطعاً، وصيروا الأهلَ شيعاً، فُرِضتْ مناهجُ من التربيةِ والتعليمِ مَسَختْ العقلَ والفِكرَ، وسادتْ ثقافةٌ أفسدتْ السلوكَ والخُلقَ، فلا ديناً حفِظتْ ولا دُنيا أقامتْ.

أعداءٌ تخرجُ حِممُ البركانِ من أفواهِهم وأقلامِهم وإعلامِهم، قذائفُ هائلةٌ من الحقدِ المروِّع والبغضِ الدفينِ ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

أيُّها المسلمون: لا يقالُ ذلك استعداءً ولا افتراءاً، ولكنه محفوظٌ موثَّقٌ بل تحملهُ الصحفُ السيَّارةُ، والمبثوثاتُ الطيَّارةُ، والمؤلفاتُ المنشورةُ.

هُجِّر الآلافُ والمئينُ من أبناءِ المسلمينَ، هُجِّروا إلى غيرِ مأوىً صالحٍ، ولا هدفٍ واضحٍ، الغذاءُ غيرُ موجودٍ، والعملُ غيرُ ميسورٍ، يعيشون بنفوس محطمةٍ، وآمالٍ تائهةٍ، فقدوا الآباءَ والأمهاتِ، والأبناءَ والأزواجَ، والقريبَ والعشيرَ. تُمَدُّ إليهم كِسرٌ من خبزٍ، وقطعٌ من كساءٍ، وجَرْعاتٌ من دواءٍ ملطخةً بكثيرٍ من المنِّ، ومغلفةً بغلافِ المسخِ من حقوقِ الإنسانِ.

قد نالَ ذلك دُولاً مسلمةً وأقلياتٍ مسلمةً في الشيشانِ والبوسنةِ وكشميرَ والطاجيكِ وبورما وتايلايد، وإياكَ أن تنسىٰ فلسطينَ الحبيبةَ وأرضها السليبةَ وقدسَها الشريفةَ، استولى اليهودُ وعبثوا، واقتحموا وأحرقوا، بل لقد داسوا المساجدَ والمقدساتِ، وقتلوا

الصائمين والمتعبدين والركعَ السجودَ. عدوان على الجميع غاشمٌ وظلمٌ عليهم جاثمٌ أحرق الأرضين والقلوبَ، صار فيه الأخضرُ يَبَساً والأمَلُ يأساً، يُقَتَّلون ويعذَّبون على الطريقةِ الفرعونية: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

لقد أصبحَ العدوُّ يُولولُ بلا مُواربةٍ[1]، ويصرُخُ بالعداءِ بغيرِ دبلوماسيةٍ. لم تعُدْ الأخبارُ ولا وسائلُ الإعلامِ تحملُ إلا أنباءَ الإسلامِ والصراعَ مع الإسلام، ولو غيَّروا بالمصطلحاتِ عبثاً، وشوَّهوا الحقائقَ غبشاً. نَفوسٌ مسعورةٌ وأقلامٌ مأجورةٌ، ودعاياتٌ مضلِّلةٌ، ترفعُ الباطلَ وتفرِّقُ الكلمةَ، وتمزِّقُ الشملَ. أمُّةٌ مستضعفةٌ تُلصقُ بها التهمُ وهي بريئةٌ، وينزلُ عليها العقابُ وهي غيرُ مجرمةٍ. وتُلصقُ بها الرزايا وهي بعيدةٌ. هذا شيءٌ من حالِها مع أعدائِها.

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إله إلا الله واللهُ أكبر اللهُ أكبرُ وللهِ الحمد.

أمَّا واقِعُها مع نفسِها فلقد أصابَ الأمةَ في كثيرٍ من مواقِعها خللٌ كبيرٌ في دينِها، واستمساكِها بشرعِ ربِّها.

ضَعُفَ بدينِ اللهِ الالتزامُ، واختلتْ مناهجُ التربيةِ في الأمةِ، وحُكِّمتْ في كثيرٍ من البلادِ القوانينُ الوضعيةُ، وأُقصِيبتْ الشريعةُ الإسلاميةُ، واعتاضوا عن أخوةِ الإسلامِ بقومياتٍ ضيقةٍ، وتقوقعوا في قِطَعٍ من الأرضِ محدودةٍ، فتصدَّعَ البنيانُ

---

(١) المواربة: التخفي والاستحياء.

المرصوصُ، وانتشرتْ فيهم أدواءُ الجاهليةِ. افتَتَن كثيرٌ من مفكريهم وأصحابِ الرأي فيهم بنماذجَ من الشرقِ والغربِ في الفكرِ والسلوكِ، ولاحتْ لهم خياراتٌ براقةٌ كما تلوحُ للغريقِ القشةُ من شيوعيةٍ واشتراكيةٍ وتقدميةٍ ووطنيةٍ زعموا ـ مساكينَ ـ أنها طريقُ التقدمِ، وسبيل الوحدةِ، واستعادةِ المغتصباتِ، ولكنها فشلتْ الفشلَ الذريعَ، ولم يَجْنِ منها أهلِ الإسلامِ إلا الذلَّ والهوانَ والفرقةَ والشتاتَ وألوانَ الانحطاطِ والفسادِ والخذلانِ والهزائمِ. وتحدَّثْ ـ إن شئتَ ـ عن ضعفِ التنميةِ، وخللِ الاقتصادِ، وتراجُعِ الانتاجِ. بل لقد أحكموا في أعناقِهم ربقةَ التقليدِ والتشبهِ بالعدوِّ الكافرِ في آدابِه وفنونِه وغير المفيدِ من مناهجِه وعلومِه، فاتَّبعوا سَنَنَهم حتى دخلوا جُحْرَ الضبِّ الخربِ. تقليدٌ واستخذاءٌ أفسدَ رجولةَ الرجالِ كما أفسد أنوثةَ النساءِ كلٌ على حدٍ سواءٍ. وما درىٰ هؤلاءِ المغفلون من أبناءِ قومِنا أن هذا التقليدَ اللاهثَ ما هو إلا مشاكلةٌ ظاهريةٌ تؤدي إلى اندماجِ الضعيفِ في القويِّ وضياعِ الحقِّ وأهلِه، بل لقد أهلكتهم التبعيةُ حتى أذهبوا أنفسَهم، وألغَوا عقولَهم، ووصلَ الحالُ في بعضِ البلادِ أن اعتُبرَ الانتسابُ إلى الإسلامِ والاستقامةُ عليه تهمةً أو جريمةً يؤاخذُ عليها القانونُ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

أيها الإخوةُ في الله، أيُّها الإخوةُ ضيوفُ الرحمن:

إن ما توالىٰ على الأجيالِ المتأخرةِ من رزايا وما ألَمَّ بها من آلام جعلهم لا يفرحون بما يُفرحُ، ولا يشعرون بنصرٍ ذي أثرٍ، وكأنهم يرونَ الزَّمن لا يحملُ لهم إلا مؤشراتِ حزنٍ، ومعالمَ خيبةٍ، وكلُّ فجرٍ يبزغُ فهو عندهم فجرٌ كاذبٌ.

حقاً أيها الإخوةُ: إنها ظلماتٌ حالكةٌ، ومشكلاتٌ متراكمةٌ، ليس لها من دونِ اللهِ كاشفةٌ. نعم ليس لها من دونِ اللهِ كاشفةٌ. لا مَنْجا ولا مَلْجأ ولا مُلْتجأ من اللهِ إلا إليهِ.

ومن هنا يكونُ المخرجُ بإذنِ اللهِ ونحن نتحدَّثُ عن السننِ والعبرِ، ونستلهمُ المنهجَ من هديِ كتاب اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

اللهُ أكبرُ الله أكبرُ لا إله إلا الله واللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ.

أيُّها الإخوةُ: إن أملَ المؤمنِ بربِّه متصلٌ غيرُ منقطعٍ، وأملُ المؤمنِ ليس مبنياً على سرابٍ، وليس أمانيَ عجزةٍ، ولا تساليَ يائسين، ولكنُه حرصٌ على ما ينفعُ واستعانةٌ باللهِ، وبراءةٌ من العجزِ والكسلِ، وبعدُ عن اللومِ والتلاومِ.

إن الفألَ الجميلَ والأملَ العريضَ جزءٌ من عقيدةِ المؤمنِ، حتى إن نبيّكم محمداً ﷺ حينما يخرجُ لحاجتِه ويسمعُ أسماءً مثلَ: نجيح و راشدٍ[1] يُسرُّ ويَعْظُمُ أملُه في ربِّه لينجحَ في مقصدِه ويَرْشُدَ في أمرِه. وكان يعجبُه الفألُ ويكره التشاؤمَ[2].

وهذا التفاؤلُ الذي يؤمنُ به المؤمنُ، ويدعو إليه المخلصُ

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب صحيح ولفظه: «عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يعجبه إذا خرج لحاجة أن يسمع يا راشد يا نجيح» انظر الترمذي (٤/ ١٣٨ ـ ح١٦١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٧٠ ـ ٣٥٣٦) وقال في الزوائد: اسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) والجملة الأولى في الصحيحين، أخرجه البخاري (١٠/ ٢٥٤ ـ ح٥٧٧٦)، ومسلم (٤/ ١٧٤٦ ـ ح٢٢٢٤).

ليس تفاؤلَ التغافلِ، ولكنَّه تفاؤلٌ مع إدراكِ واقع الأمةِ في ضعفِها الحقيقيِّ في نفسِها وقوتِها واقتصادِها، والتصارعِ الداخليِّ فيما بينها. وهو في ذاتِ الوقتِ تفاؤلٌ لا يَعْمىٰ عن مكرِ الأعداءِ وشَحْنِ بني قومِهم ضدَّ هذه الأمةِ والتهويلِ من أمرِها ليملؤا صدورَهم على أمةِ الإسلامِ غيظاً وحقداً.

إن تفاؤلَ المؤمنِ منطلقٌ من عقيدتِه بأنَّ الإسلامَ لا ينامُ وليس له أن ينامَ فهو دينُ اللهِ الخالدُ، وهو دينُ اللهِ المحفوظُ وإذا قصَّرَ فيه أقوامٌ استبدلَ اللهُ غيرَهم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

إن الأمةَ وقد مرتْ بمراحلِ الضعفِ والهوانِ وذاقتْ من الذلِّ ألواناً، وتجرعتْ من القهرِ كيزاناً، وجرَّبتْ حلولاً ومخارجَ باءتْ بالفشلِ، وزادتْ من الهزائِم والضَّياعِ؛ إن الأمة وقد مرتْ بذلك كلِّه لقد بدأت تعودُ إلى وعيها ، وتوقنُ أن الحلَّ في إسلامِها، بل توقنُ عينَ اليقينِ وحقَّ اليقينِ وعلمَ اليقينِ ألا ملجأَ من اللهِ إلا إليه.

فهذه المساجدُ التي كانت خاليةَ في بعضِ البلادِ إلا من شيخٍ هرمٍ أو رجلٍ هَمَلٍ أو يائسٍ قعيدٍ تعاظمَ رُوَّادُها، وصلاةُ الجماعةِ تكاثرَ مقيمُوها. عُمِرتْ بيوتُ اللهِ بالشبابِ والكهولِ والشيوخِ في حرصٍ على السنةِ وفقهٍ في العبادةِ وخشوعٍ في الأداءِ واستمساكٍ بآدابِ الحشمة والعفافِ والحجابِ وأوجدُوا لهم مصلياتٍ حيث لا يوجدُ مساجدُ واستكثروا مراكزَ. إن المسجدَ موقعٌ من مواقعِ العزةِ، ومصدرٌ من مصادرِ القوةِ، ولكنه عند الأعداءِ مصدرُ خوفٍ ومنبتُ إرهابٍ.

ومن البشائرِ صيحاتُ النداءِ المتعاليةُ لتطبيقِ شرعِ اللهِ على عبادِ اللهِ في شؤونهم كافَّةً، والتخلصِ من تحكيمِ الدساتيرِ البشريةِ. وإن واقعَ هذه البلادِ ـ بلادِ الحرمينِ الشريفين أدامَ اللهُ عليها حفظَه وعنايتَهُ ـ إن واقعَها في تحكيمِ شرعِ اللهِ والسيرِ على أحكامِ دينِه وما أفاءَ اللهُ عليها من الأمنِ والأمانِ والفضلِ والبرِّ لدليلٌ شاهدٌ وبرهانٌ قائمٌ لمن في قلبِه ريبٌ أو شكٌّ.

وفي حديثِ الفألِ والمبشراتِ لا تنسوا ما أنتجه وعيُ المسلمين بواقعِهم حين أدركوا هيمنةَ الربا وخطَرَهُ على الدينِ والاقتصادِ والحياةِ فتنادىٰ مخلصُون لإنشاءِ مصارفَ إسلاميةٍ ومؤسساتٍ ماليةٍ تنامىٰ وجودُها على الرغمِ من الصعوباتِ التي تواجِهُها، والعثراتِ التي تصاحبُ مسيرتَها، ومشقةِ العومِ والسبحِ في محيطٍ ملوثٍ بأوحالِ الربا ومستنقعاتِه.

ومن المبشراتِ انبعاثُ روحِ الجهادِ في مواقعِ مضطهدةٍ كان الجهادُ الإفغانيُّ من روَّادِها على الرغمِ مما أصابَه من تشويهٍ من قِبلِ أهلِه بعدَ دحرَ عدوانِ الكافرين.

وانتفاضةُ المسلمين في الأرضِ المحتلةِ، والكفاح المشروعُ في كشميرَ، ومواقفُ البطولةِ والبسالةِ في البوسنةِ والهرسكِ، ورجالُ الشيشانِ الأشاوسُ والصابرون في الفلبين.

وقبلَ ذلكَ وبعده فإن المسلمينَ رغمَ واقِعهم الأليم ورغم ضعفِهم الظاهرِ فإنهم رقمٌ محسوبٌ في السياسة الدولَيةِ. إن الحربَ العسكريةَ والاعلاميةَ على الإسلامِ ورجالِه ودياره دليلٌ كبيرٌ على تعاظمِ قوَّته، وشعورِ الأعداءِ بخطرِه. إن كلَّ قذيفةٍ

تُوجَّهُ، وكلَّ يدٍ تَغْتَصِبُ، وكلَّ جَرْحٍ ينزفُ مطارقُ وموقظاتٌ توقظُ الأمةَ من غفلتِها وتوجِّهها نحو الصحيحِ من مسارِها ومسيرتِها.

الله أكبرُ ما بالُ هذه الجماهيرِ المسلمةِ التي تعرضتْ لكلِّ أنواعِ المسخِ وغسيلِ المخِّ تعودُ إلى رياضِ دينِها وتستعصيْ أن ترضىٰ بالدنيةِ من دينِها.

ما أثمرَ العنفُ الدوليُّ إلا عنفاً أشدَّ منه، ولم تزد شراسةُ الأعداءُ وِعصيُّهُ الغلاظُ إلا استمساكاً بالدين وقناعةً بالحقِّ.

لقد ظنَّ الأعداءُ أنهم حينما نجحوا في وأدِ بعضِ النداءاتِ القوميةِ والشعاراتِ الوطنيةِ حين وأدوها وروَّضوها بأنواعِ الترويضِ الماديِّ والمعنويِّ العنيفِ منه واللطيفِ؛ ظنَّوا أن ذلك مجدٍ في أوساطِ المسلمين المخلصينَ ممن أرادَ اللهَ والدارَ الأُخرىٰ؛ ممن كانتْ الآخرةُ عنده خيراً من الأولىٰ.

ليعلمْ الكفارُ أن الحربَ على أهلِ الإسلامِ ليست حرباً على أشخاصٍ ولكنها حربٌ على سنةِ اللهِ ودينِه ويأبىٰ اللهُ إلا أن يُمضيَ سنتَه ويتمَّ نورَه ولو كره الكافرونَ والمشركون.

الله أكبرُ الله أكبرُ لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

يا أهل الإيمانِ يا حجاجَ بيتِ اللهِ: أمَّا الفرجُ والنصرُ فاسمعوا إلى حديثِ القرآنِ عن خبركم وخبرِ من قبلكم اقرأوا في حالِ فرعون وملائه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٤ ـ ٦]، واقرأوا في خبرِ بني إسرائيل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٤ـ ٧].

أما في خبركم فاقرأوا هذه الأعجوبةَ لنبيِّكم محمدٍ ﷺ وأتباع محمدٍ ﷺ.. انظروا بُشرىٰ المؤمنِ، وعواجلَ الخيرِ له، وتواردَ المسراتِ عليه، تصلُ إليه بيسرٍ لا يحتسبه، وبسهولةٍ لا يُقدِّرُها، وبعجلةٍ لا ينتظرها؛ ولكنه اللهُ العليُّ الحكيمُ يُدْني ما بَعُدَ، ويُهوِّنُ ما صعبَ فهو سبحانه إن شاء جعلَ الحزنَ سهلاً؛ اقرأوا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ﴾ [الحشر: ٢] سبحانَ اللهِ لم تكونوا تتوقعون خروجَهم، لقد كانوا من القوةِ والمنعةِ في حصونِهم بحيثُ لا تظنون خروجَهم وغرَّتهم المنعةُ فنسوا قوةَ اللهِ التى لا تردُّها حصونٌ: ﴿يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ﴾ [الحشر: ٢] أتاهم من داخلِ نفوسهم لا من داخلِ حصونهم: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

واقرأوا إن شئتم خبرَ الأحزابِ حين زاغتْ الأبصارُ وبلغتْ

القلوبُ الحناجرَ وامتلأتْ بالقلوبِ الظنونُ، وتحركَ المرجفونَ وتخاذلَ المنافقونَ وزُلزلَ المؤمنون زلزالاً شديداً، وحين بلغَ البلاءُ ذُروته والامتحانُ قمتهُ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٥] ثم ماذا بعد؟؟ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧].

فاتقوا اللهَ رحمكم الله اقرأوا وتأمَّلوا، واعتبروا وأبشروا واستمسكوا، فمهما تشبَّث أهل الغِوَايةِ بغوايتهم، وأصر أهل الباطلِ على باطلِهم فإن أهلَ الحقِّ أطولُ نَفَساً، وأمضىٰ عزيمةً، وأهنأُ بالاً، وأفضلُ حالاً، وخيرٌ عقباً، وأحسنُ مآلاً، والعاقبةُ للمتقين ولا عداونَ إلا على الظالمينَ، وأهلُ الكفرِ لن تغنيَ عنهم فئتهم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المؤمنين من كل ذنب وخطيئة فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

كلكم لوامون فأين المصلحون؟

الخطبة الثانية

الله أكبر (سبعاً). اللهُ أكبرُ عددَ من أمَّ البيتَ الحرامَ، على مرِّ السنونَ والشهورِ والأيامِ، اللهُ أكبرُ ما ارتفعتْ أكفُّ الضراعةِ إلى المولىٰ بطلبِ الغفرانِ ورفعِ الآثامِ، اللهُ أكبرُ ما تفضَّلَ ربُّنا ومولانا بجزيلِ الفضلِ وعظيمِ الإنعامِ.

اللهُ أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرةً وأصيلا.

الحمد لله دعا عبادَه إلى أشرفِ بيتٍ وأعظمِ مزارٍ، دعاهم إلى أمِّ القرىٰ ليُجْزلَ لهم الضيافةَ والقِرىٰ، ويَحطَّ عنهم الذنوبَ والأوزارَ، فأجابوا دعوتَه ولبَّوا نداءَه. ومن طلبَ المعالي تحمَّلَ الأخطارَ. أحمدُه سبحانَه وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وهو العزيزُ الغفارُ، وأشهدُ إلا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسوله أشرفُ من طافَ بالبيتِ المحرَّمِ وسعى ورمىٰ الجمارَ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابِه الأبرار، وآله الأطهارِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليلُ والنهارُ.

أما بعد أيُّها المسلمون ضيوفَ الرحمن: كم من أمةٍ نهضتْ بعد قعودٍ، وتحركتْ من بعد ركودٍ، وكم من أمةٍ بَطِرَتْ معيشتَها فحاق بها أمرُ ربِّك فزالتْ من الوجود. وكم من قرية أسبغَ اللهُ

عليها نعمَه فكفرتْ وما شكرتْ فذاقت عاقبة الكفرِ والجحودِ.

يا ولاة أمورِ المسلمين يا علماءَ الإسلامِ يا أصحابَ الفكرِ والرأي يا رجال الإعلامِ والأقلامِ:

ليس طريقٌ في الخلاصِ إلا العودَ إلى دينِ اللهِ فهو القرارُ المكينُ، هو موئِل الحقِّ ومصدرُ القوةِ وسبيلُ العزةِ بإذن الله.

إن أوَّلَ المراجعةِ يجبُ أن تنصبَّ على العقيدةِ عقيدةِ الرضا بـاللهِ وربـاً وبـالإسـلامِ ديناً وبمحمـدٍ ﷺ نبيـاً ورسـولاً، إيمـانٌ بالكتابِ الذي أنزلَ، وبالنبي الذي أرسلَ، وبالدين الذي أكملَ.

تحقيقُ العبادةِ للهِ وحدَه، ونبذُ التعلقِ بما سواه، واالاعتمادُ عليه وحدَه، والتوكلُ عليه وحدَه.

إيمانٌ وتقوىٰ يجعلُ الله بها الفرجَ والمخرجَ، إيمانٌ وتقوى يجعلُ اللهُ بها النورَ والفرقانَ.

بالإيمانِ الصحيح والعقيدةِ الصافيةِ يستضيءُ العقلُ فيفقَهُ سُنَنَ اللهِ في التغييرِ، ويدركُ مسالكَ العزةِ والقوةِ، وينعتقُ من حبالِ الـدِّعـةِ والتبعيَّـةِ، ويسيـرُ فـي طـريـقِ الـريـادةِ وركـابِ الجهـاد والمجاهدةِ.

عقيدةٌ وإيمانٌ يستيقنُ بها المسلمُ أن سببَ الفرقةِ والتشرذُم لم يكن إلا حينَ نبذَ كثيرٌ من أبناءِ الإسلامِ الدينَ وراءَهم ظهرياً ـ كما أرادَ أعداؤُهم ـ فالتصقوا بالجغرافيا والترابِ. الإسلامُ أقدرُ المبادىءِ والمللِ على جمعِ أبنائِه وتوحيد شعوبِه.

عقيـدةٌ تـرسـمُ المـوقـفُ الحـازمَ مـن أعـداءِ الإسـلام فـإنهـم

لا يرضونَ ولن يرضوا حتى يردوكم عند دينكم إن استطاعوا ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

لن يرضوا حتى تكونوا أتباعاً وأذناباً.

أيها المسلمون: واللهِ الذي لا إله غيرُه إن أعداءكم لا يخشون على أنفسِهم إلا من دينِكم، ولا يخيفُهم إلا إسلامُكم. وإن الإسلامَ خيرٌ لهم ـ كما هو خيرٌ لكم ـ لو كانوا يعلمون. ومنهجُه المعلنُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] ولكنهم يبعدون الإسلامَ من المواجهةِ لأنه الحلُّ الحاسمُ والعلاجُ الشافي لأمراضِ الأمةِ.

عقيدةٌ أيها الإخوةُ: تنطلقُ منها مناهجُ التربيةِ والتعليم لتنشئةِ أبناءِ المسلمين تنشئةً تعيدُ فيهم بناءَ الثقةِ بدينِهم وبأنفسِهم فتمتلىء قلوبُهم إيماناً، وتضيء جوارحهُم هُدىً ونوراً.

هذه معالمُ في طريقِ الإصلاحِ، وهو طريقٌ ليس باليسيرِ ولكنه جليٌّ واضحٌ يعرفُه العدوُ قبل الصديقِ.

اتقوا الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، وتعاونوا على البرِّ والتقوىٰ، ولا تعاونوا على الإثمِ والعدوانِ. افعلوا الخيرَ وجاهدوا في اللهِ حقَّ جهاده.

واعلموا أنَّكم في أيامٍ فاضلةٍ، ومواسمَ كريمةٍ اشغلوها

بـذكـرِ اللهِ، واعمـروهـا بـالتكبيرِ والتهليـلِ، وعظِّمـوا شعـائـرَ الله وحرماتِه.

وإن من أعظمِ ما يُتقرَّبُ به إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هذه الإيامِ الأضاحي، فهي سنةُ الخليلين إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما الصلاةُ والسلامُ. جاءَ في الحديثِ عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال: «**ما عملَ بنُ آدمَ يومَ النحرِ من عملٍ أحبَّ إلى اللهِ من إراقةِ دم، وإنه لتأتي يومَ القيامةِ بقرونِها وأظلافِها، وإن الدمَ ليقعُ من اللهِ بمكانٍ قبل أن يقعَ على الأرضِ فطيبوا بها نفساً**[1]».

ولتعلموا وفقني اللهُ وإيَّاكم لصالحِ العملِ أن وقتَ الذبحِ يبدأُ بعد صلاةِ العيدِ إلى غروبِ الشمسِ آخر أيامِ التشريقِ ولا يُجزيءُ في الأضاحي المريضةُ البيِّنُ مرضُها، ولا العوراءُ البيِّنُ عَوَرُها، ولا العرجاءُ التي لا تطيقُ المشيَ مع الصحيحةِ.

ولا يجزيءُ من الإبلِ إلا ما تمَّ له خمسُ سنين، ومن البقرِ ما تم له سنتانِ، ومن المعْزِ ما تمَّ له سنةٌ، ومن الضأنِ ما تمَّ له ستةُ أشهرٍ، وتجزيءُ البدنةُ عن سبعةٍ، والبقرةُ عن سبعةٍ، والشاةُ تجزيءُ عن الرجلِ وأهلِ بيتِه ولا يبع منها شيئاً، ولا يعطِ الجزارَ أجرتَه منها.

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ وانبِذُوا عن أنفسِكم الشحَّ والبخلَ، وأنفقوا من مالِ الله الذي آتاكم، وأكثروا من ذكرِ اللهِ وشكره، وصِلُوا أرحـامَكـم وتصـافحـوا، وتنـاصحـوا، وتسـامحـوا وأزيلـوا الغـلَّ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٠٤٥ ـ ح٣١٢٦)، والترمذي (٤/ ٧٠ ـ ح١٤٩٣) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم (٤/ ٢٢١) وقال: صحيح الاسناد، وقال الذهبي: فيه سليمان واه وبعضهم تركه.

والشحناءَ من قلوبِكم وتزاورُوا وتهادَوا، واحذروا الكبرَ والغيبةَ والنميمةَ وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً.

خطبة الاستسقاء

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ، سبحانه أظهر العجائبَ في مصنوعاتِه. ودل على عظمته بمخلوقاتِه. فأمر بالتدبر والنظرِ في أرضه وسمواتِه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١] لا إله إلا هو سبحانه يُجيبُ دعوةَ المضطرين، ويفرجُ كربَ المكروبين. كافي من استكفاه، ومجيبُ من دعاه، كفى به وليا، وكفى به وكيلا، وكفى به هاديا ونصيراً، لا إله إلا الله، عَظُمَ حلمُ ربِّنا فستر، وبسطَ يدَه بالعطاءِ فأكثر. أطاعه الطائعون فشكر، وتاب إليه المذنبون فغفر. أحمده سبحانه وأشكره، نعمُه تترىٰ، وفضلُه لا يحصىٰ، لا معطيَ لما منع، ولا مانعَ لما أعطىٰ. قَصَدَتْه الخلائقُ بحاجاتها، وعرفته القلوبُ بلهفاتِها. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو الذي في السماءِ إلٰهٌ وفي الأرضِ إلٰهٌ، تعرَّفَ إلى خلقِه بالدلائِل والحقائقِ، وتكفَّلَ برزقِ جميعِ الخلائقِ. له الحكمةُ فيما قدَّر وقضىٰ، وإليه وحده تُرفع الشكوىٰ. وهو المقصودُ وحده في السرِّ والنجوىٰ. وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه أصدقُ عبادِ اللهِ شكراً، وأعظمُهم لربِّه ذكراً، فهو عليه الصلاةُ والسلامُ الأخشىٰ والأتقىٰ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأتقياءِ وأصحابِه الأصفياءِ

والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نستغفرُ اللهَ العظيمَ الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيومَ ونتوبُ إليه، اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت، أنت ربُّنا ونحن عبيدُك، ظلمنا أنفسَنا، واعترفنا بذنوبنا، فاغفر اللهم لنا ذنوبَنا، إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ، نستغفركُ ونتوبُ إليك. اللهم اغفرْ لنا ما قدَّمنا وما أخرَّنا وما أسررنا وما أعلنَّا وما أنت أعلمُ به منا، أنت المقدمُ وأنت المؤخرُ لا إله إلا أنت.

أما بعدُ. فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، فاتقوه رحمكم الله؛ فتقوى اللهِ طريقُ النجاةِ والسلامةِ، وسبيلُ الفوزِ والكرامةِ. المتقون من عذابِ اللهِ هم الناجون: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢] ولجنةِ اللهِ هم الوارثون: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣]. والقبولُ في أهلِ التقىٰ محصورٌ ومقصورٌ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

أيها المسلمون. تبارك اسمُ ربِّنا وتعالىٰ جدُّه، هو غفارُ الذنوبِ، وساترُ العيوبِ، ينادي عبادَه وله الحمدُ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١]. ويناديهم في ملائه الأعلى: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليلِ والنهارِ وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**»[1]. سبحانه وتقدس هو أعلم بخلقِه، علم عجزَهم وضعفَهم ونقصَهم وتقصيرَهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ ـ ح٢٥٧٧)، والحاكم (٤/ ٢٤١) وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٦/ ٩٣).

فتح لهم باب الرجاءِ في عفوِه والطمعِ في رحمتِه. والأملِ في مرضاتِه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]. الرحماتُ من ربِّنا فيَّاضةٌ لا ينقطعُ مددُها، والنعمُ من عندِه دفَّاقةٌ لا ينقصُ عطاؤُها. من ذا الذي يتألَّىٰ على اللهِ ألا يغفرَ ذنوبَ عباده: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]؟؟؟.

أيها الإخوةُ: إذا كثُر الاستغفارُ في الأمةِ، وصدرَ عن قلوبٍ بربِّها مطمئنةٍ دفع اللهُ عنها ضروباً من النقم، وصرفَ عنها صنوفاً من البلايا والمحن: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

بالاستغفار تتنزلُ الرحماتُ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل: ٤٦].

أيها الأحبة: إن هناك صلةً قويةً بين طهارةِ الفردِ والمجتمعِ من الذنوبِ والخطايا وقضاءِ الحاجاتِ، وتحقيقِ الرغباتِ، وتوافرِ الخيراتِ. هناك ارتباطٌ متينٌ بين الثروةِ والقوةِ وبين مداومةِ الاستغفارِ؛ اسمعوا إلى مناشدةِ نوحٍ عليه السلامُ قومَه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وهذا نداءُ هودٍ عليه السلامُ لقومِه عادٍ الشدادِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ . .﴾ [هود: ٥٢] بالاستغفارِ يبلغُ كلُّ ذي منزلٍ منزلتَه وينالُ كلُّ ذي فضلٍ فضلَه: هذا هو خبرُ ربِّكم لنبيِّكم محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ

﴿ذِى فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣].

يقولُ ابن صبيح شكا رجلٌ إلى الحسنِ رحمه الله الجدبَ فقال له: استغفرْ اللهَ، وشكا إليه آخر الفقرَ فقال له: استغفرْ اللهَ. وقال له آخرُ: ادعُ اللهَ أن يرزقني ولداً. فقال له: استغفرْ اللهَ. وشكا إليه آخرُ جفافَ بستانِه. فقال له: استغفرْ الله. فقال له جلساؤه في ذلك؟؟. فقال الحسنُ: ما قلتُ من عندي شيئاً؛ إن اللهَ تعالىٰ يقولُ في سورة نوح: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وأفضلُ الاستغفارِ ـ أيها الإخوةُ ـ أن يبدأَ العبدُ بالثناءِ على ربِّه ثم يُثنيِّ بالاعترافِ بالنعم، ثم يقرُّ لربِّه بذنبِه وتقصيرِه، ثم يسألُ بعدَ ذلك ربَّه المغفرةَ. كما جاء في حديثِ شدادِ بن أوس رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**سيِّدُ الاستغفار أن يقولُ العبدُ: اللهم أنت ربِّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدُك وأنا على عهدِك ووعدِك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ[(١)] لك بنعمتِك علي، وأبوءُ بذنبي فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ**»[(٢)] . قال أهلُ العلم: وقد كان سيدَ الاستغفارِ لأنه تضمَّن الاعترافَ بربوبيةِ اللهِ سبحانه وإلهيتِه وتوحيدِه، والاعترافَ بعجزِ العبدِ وتقصيرِه، واعترافَه بإنه في قبضةِ مولاه، لا مهربَ منه

---

(١) أي أقر وأعترف.
(٢) أخرجه البخاري (١١/ ١٠٠ ـ ح٦٣٠٦).

ولا مفرَّ، وتضمن اجتهادَ العبدِ بدخولِه تحتَ عهدِ ربِّه ما استطاع وأطاق، لا بحسَبِ حقِّ اللهِ وجلالِه وعظمةِ مقامِه، ولكنه جُهدُ المقلِّ.

أيها الإخوةُ المسلمون: لقد دعاكم إلى المبادرةِ مولاكم، وفتح بابَ الإجابةِ ثم ناداكم، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ودلكم على طرقِ الخيرِ وهداكم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، فاتقوا اللهَ ربَّكم، واستغفروه ذنبَكم، وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم.

بابُه مفتوحٌ للطالبين، وجنابُه مبذولٌ للمقبلين، وفضلُه ينادي: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

سارعوا مُسارعةَ الخائفين، واعترفوا اعترافَ المقصِّرين: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠].

لله درُّ أقوامٍ بادروا الأوقاتَ، واستدركوا الهفواتِ، عيونُهم بالدمعِ مملوءةٌ، وألسنتهم عن الزلاتِ محفوظةٌ، وأكفُّهم عن المحرماتِ مكفوفةٌ، وأقدامُهم بقيد المحاسباتِ موقوفةٌ. يجأرون في ليلِهم بالدعواتِ، يقطِّعون أوقاتَهم بالصلواتِ.

صدقوا في المحبةِ والولاءِ، وصبروا على نزولِ البلاءِ، شكروا سوابغَ النعماءِ، وأنفقوا في السراءِ والضراءِ، بذلوا ما عندهم لربِّهم بسخاءٍ. ووقفوا ببابِ مولاهم بكلِّ الأملِ والرجاءِ يرجون وعدَ ربِّهم بجزيلِ العطاءِ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الدهر: ١٢ ـ ١٣].

عباد الله: إنكم مخلوقون اقتدارا، وكائنون رُفاتاً، ومبعوثون

أفرادا، فحاسبوا أنفسَكم رحمكم الله، فرحم اللهُ عبداً اقترفَ فاعترفَ، وحاذرَ فبادرَ، وعُمِّر فاعتبرَ، وأجابَ فأنابَ، ورجعَ إلى ربِّه وتاب، تزوَّدَ لرحيلِه، وتأهبَ لسبيلِه.

عباد الله: هل ينتظرُ الشبابُ إلا الهرمَ؟ وهل يؤمِّل الصحيحُ إلا السقَم؟ وماذا بعد طولِ البقاءِ إلا مفاجأةُ الفناءِ والفوتُ، وحلول الأجل، ونزولُ الموتِ.

جعلنا الله وإياكم ممن أفاق لنفسِه، واستدركَ في يومِه ما مضى من أمسِه. وأعاذنا اللهُ وإياكم ممن ذهبَ عمرُه، وقلَّ عملُه، واقتربَ أجلُه، وساء بربِّه ظنُّه.

ألا فاتقوا اللهَ ربَّكم، وتوجهوا إليه بقلوبكم، وأحسنوا الظنَّ، وجِدُّوا في المحاسبةِ، واصدُقوا في اللجوءِ؛ فمن صدقَ في اللجوءِ صحتْ عنده التوبةُ. جانبوا أهلَ الفحشِ والتفحشِ، ومجالسةَ ذوي الردىٰ، ومماراةَ السفهاءِ. احفظوا للناس حقوقَهم، ولا تبخسوهم أشياءَهم. صلوا الأرحامَ، واسوَا الأراملَ والأيتامَ، وتصدقوا بالدرهم والدينارِ والمدِّ والصاع، واتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ. ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦].

واحذروا تقلباتِ الزمنِ، فما الدنيا إلا أملٌ مخترمٌ، سرورُها بالحزن مشوبٌ، وصفوُها بالكدرِ مصحوبٌ، زواها اللهُ عن الصالحين اختياراً، وبُسطتْ لغيرِهم اغترارا.

تعجلوا الإنابةَ، وبادروا بالتوبةِ، وألحُّوا في المسألة، فبالتوبةِ

النصوح تُغسلُ الخطايا، وبطهورِ الاستغفار تُستمطرُ السماءُ، وتُستدرُّ الخيراتُ، وتُستنزلُ البركاتُ.

وها أنتم عبادَ اللهِ قد حضرتُم في هذا المكانِ الطاهرِ بين يدي ربِّكم تشكون جدبَ ديارِكم، وتبسطون إليه حاجتكم، وذلكم الجدبُ وتلكم الحاجةُ بلاءٌ من ربِّكم لتقبلوا عليه، وتتقربوا بصالحِ العملِ لديهِ، فأظهروا رقةَ القلوبِ، وافتقارَ النفوس والذلَّ بين يدَي العزيز الغفار، استكينوا لربِّكم، وارفعوا أكفَّ الضراعةِ إليه، ابتهلوا وادعوا، وتضرعوا واستغفروا، فالاستغفارُ مربوطٌ بما في السماءِ من استدرارٍ.

وأكثروا من الصلاةِ والسلامِ على المصطفىٰ الهادي البشيرِ إمامنا وقدوتِنا محمدٍ بن عبدِالله، فالدعاءُ موقوفٌ بين السماءِ والأرضِ حتى يُصلىٰ على النبيِّ ﷺ كما جاءَ في الأثرِ؛ اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدكَ ورسولكَ محمدٍ وعلى آله وأزواجِه وأصحابِه.

ربَّنا ظلمنا أنفسَنا وإن لم تغفرْ لنا وترحْمنا لنكوننَّ من الخاسرين، اللهم أنتَ اللهُ لا إله إلا أنتَ، أنتَ الغنيُّ ونحنُ الفقراءُ، أنزلْ علينا الغيثَ ولا تجعلنا من القانطين. اللهم أغثْنا، اللهم أغثْنا، اللهم اسقِنا غيثاً مُغيثاً هَنيئاً مَريئاً طبَقاً سحَّاً مجلِّلاً، عاماً نافعاً غيرَ ضارٍ، عاجلاً غيرَ آجلٍ، اللهم تُحي به البلادَ، وتُغيثُ به العبادَ، وتجعله بلاغاً للحاضرِ والبادِ. اللهم سُقيا رحمةٍ لا سقيا عذابٍ ولا هدمٍ ولا بلاءٍ ولا غرقٍ. اللهم اسقِ عبادَك وبلادَك وبهائِمك، وانشرْ رحمتَك، وأحي بلدَك الميتَ، اللهم انبتْ لنا الزرعَ، وادِرَّ لنا الضرعَ، وأنزلَ علينا من بركاتِك،

واجعل ما أنزلته قوةً لنا على طاعتِك وبلاغاً إلى حينٍ، اللهم إنا خلقٌ من خلقِك فلا تمنعْ بذنوبِنا فضلَك.

سبحان اللهِ على اللهِ توكلْنا، ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين، اللهم ارفعْ عنَّا الجوعِ والجهَدِ والعُريِّ، واكشفْ عنا من البلاءِ ما لا يكشفُه إلا أنتَ، اللهم إنا نستغفرُك إنك كنتَ غفاراً، فأرسلْ السماءَ علينا مدرارا. اللهم اسقنا الغيثَ، وآمنَّا من الخوفِ، ولا تجعلنا آيسين، ولا تهلكْنا بالسنين.

اللهمَّ ارحمْ الأطفالَ الرضعَ، والبهائمَ الرُّتعَ، والشيوخَ الركعَ، وارحم الخلائق أجمعين. ربنا لا تؤاخذْنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحملْ علينا اصراً كما حملتَه على الذين من قبلِنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقةَ لنا بهِ واعفُ عنا واغفرْ لنا وارحمْنا أنتَ مولانا فانصرْنا على القوم الكافرين. اللهم انصرْ دينَك وكتابَك وسنةَ نبيِّك وعبادَك الصالَحين. اللهم اصلْح لنا دينَنا الذي هو عصمةُ أمرِنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي إليها معادُنا، واجعلْ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍ. اللهم ادفع عنا الغلاءَ والبلاءَ والوباءَ والربا والزنا والزلازلَ والمحنَ وسوءَ الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطن عن بلدِنا وعن سائرِ بلادِ المسلمين. اللهم من أرادنا وأرادَ بلادَنا ومقدساتِنا بسوءٍ فأشغلْه بنفسِه واجعل كيدَه في نحرِه واجعلْ تدبيرَه تدميرَه، اللهم إنا ندرءُ بك في نحورِهم ونعوذ بك من شرورِهم، اللهم ردَّ عنا كيد الكائدين وعدوانَ المعتدين واقطع دابرَ الفسادِ والمفسدين، اللهم آمنَّا في أوطانِنا واصلحْ ائمتَنا وولاةَ أمورِنا وأيدِ بالحقِّ أمامَنا وولي أمرنا وأعزَّه بطاعتِك

واعزَّ به دينَك وارزقْه البطانةَ الصالحةَ التي تدلُّه على الخيرِ وتعينُه عليه. ربَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ.

عبادَ اللهِ اقلبوا أرديتكم تأسياً بنبيِّكم محمدٍ ﷺ، واجتهدوا في الدعاءِ، وألحوُّا في المسألةِ. ادعوا اللهَ وأنتم موقنون بالإجابةِ، وأكثروا من الاستغفارِ والصدقةِ وصلةِ الأرحامِ، واحفظوا الحقوقَ، ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم عسى ربُّكم أن يرحمكم فيغيثَ القلوبَ بالرجوعِ إليه والبلدَ بإنزالِ الغيثِ عليه. سبحانَ ربِّك ربِّ العزةِ عما يصفون، وسلامٌ على المرسلينَ والحمدُ للهِ ربِّ العالمين وصلِّ اللهم على عبدِك ورسولِك محمدٍ وآله وصحبه وسلِّمَ.

الاستغفار فضائل وآثار

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ عَظُمَ حِلْمُه فسترَ، وبسطَ يدَه بالعطاءِ فأكثرَ، سبحانه وبحمدِه أطاعه الطائعون فشكرَ، وتاب إليه المذنبون فغفرَ. أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبده ورسولُه غُفرَ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخرَ، وقام من الليلِ على قدمِه الشريفِ حتى تفطَّرَ. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله السادةِ الغررِ والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المحشر.

أما بعدُ فأوصيكم أيُّها الناسُ ونفسي بتقوىٰ الله عزَّ وجلَّ، فاتقوه رحمكم الله، فإن القبولَ في أهلِ التقوىٰ محصورٌ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧]. والمتقونَ من عذابِ اللهِ هم الناجون ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧٢] ولجنة الله هم الوارثون ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

أيها المسلمون: الكمالُ في البشرِ محالٌ، والعصمةُ للأنبياءِ والمرسلين فيما يبلِّغونَ عن ربِّ العالمين، واتباعُ الهوىٰ ضلالٌ مبين. وربُّنا الرحمنُ أعلمُ بخلقِهِ، علمَ عَجْزَهم وضعفَهم ونقصَهم وتقصيرَهم، ففتحَ لهم بابَ الرجاءِ في عفوِهِ، والطمعِ

في رحمتِهِ، والأملَ في مرضاتِه ومغفرته. دعاهم إلى ساحةِ جودهِ وكرمِهِ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وفي الحديث **«يا عبادي إنكم تخطئون بالليلِ والنهارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»**[١].

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

رحمةٌ من ربِّكم فياضةٌ، لا ينقطعُ مددُها، ونعمةٌ من عندِه دفاقةٌ لا يضعفُ سببُها. من ذا الذي يتألَّىٰ على اللهِ ألا يغفرَ ذنوبَ عبادِه ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن منةِ اللهِ الكبرىٰ وفضلِه العظيمِ أن يدعوَ عبادَه لعفوِه ومغفرتِه، ثم يتبعُها بمنةٍ أخرىٰ يؤخِّرُهم إلى مهلةٍ يراجعون فيها أنفسَهم ويتدبَّرُون فيها أحوالهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

الذنوبُ يا عبادَ اللهِ مغفورةٌ ولو كانت مثلَ زبدِ البحرِ فلا يقنطنَّ عبدٌ من رحمةِ اللهِ. ومن عظُمتْ ذنوبُه وكثُرتْ آثامُه فليعلم أن رحمةَ اللهِ ومغفرتَهُ أعظمُ وأعظمُ.

والتقصيرُ من شأنِ البشرِ، فإن نبيَّكم محمداً ﷺ يقولُ في الحديثِ الصحيحِ: **«لو لم تذنبوا لذهبَ اللهُ بكم ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ ثم يستغفرونَ اللهَ فيغفرَ لهم»**[٢].

سبحانَك ربَّنا جلَّ شأنُك، تباركتَ وتعاليتَ، أنت غفَّارُ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ ـ ح٢٥٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٦ ـ ح٢٧٤٩).

الذنوبِ، وساترُ العيوبِ، تبسطُ يدَكَ بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهارِ وتبسطُ يدَكَ بالنهارِ ليتوبُ مسيءُ الليلِ. وتناديْ عبادَك ولك الحمدُ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١].

أيُّها الإخوةُ: طوبىٰ لمن عرفَ أن له رباً رحيماً عفواً كريماً يقبلُ توبةَ النادمينَ، ويقبلُ عثراتِ العاثرين. إذا لجأو إليهِ صادقينَ مخلصينَ غيرَ يائسين ولا مصرِّين، كيف لا وقد أمرَ بذلك نبيَّه والمؤمنين: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ.. ﴾ [محمد: ١٩].

هؤلاءِ العارفون المستغفرون أقوامٌ قد أحاطَ بهم لطفُ اللهِ ورحمتُه، يخافون ربَّهم، ويستحيون منه حقَّ الحياءِ، لا يُغلقُ في وجوهِهم أبوابَ التوبةِ، عندهم من الطمعِ في رحمةِ اللهِ ما يدعوهم إلى الاستغفارِ ولا يقودُهم إلى الاستهتارِ.

التوابونَ المستغفرونَ قومٌ ممدوحون، صفوةٌ من عبادِ اللهِ، رسختْ في مقامِ الاحسانِ أقدامُهم، فهي بين مراقبة ربِّهم وشهودِ أعمالِهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦ ـ ١٧].

أيُّها الإخوةُ: إذا كثُرَ الاستغفارُ في الأمةِ، وصدرَ عن قلوبٍ بربِّها مطمئنةٌ، دفعَ اللهُ عنها ضروباً من النِّقَم، وصرفَ عنها صنوفاً من البلايا والمحنِ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

روى الترمذيُّ من حديثِ أبي موسىٰ رضي الله عنه يرفعُهُ قال: **«أنزل الله على أمتي أمانين فذكر الآية** ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ **قال فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ»**(1).

بالاستغفارِ تتنزَّلُ الرحماتُ: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل: ٤٦].

أيُّها الإخوةُ: إن هناك صلةً قويةً بين طهارةِ الفردِ والمجتمعِ من الذنوبِ والخطايا وقضاءِ الحاجاتِ وتحقيقِ الرغباتِ، هناكَ ارتباطٌ متينٌ بين الثروةِ والقوةِ وبين الاستغفارِ.

الاستغفارُ جالبٌ للخِصْبِ والبركةِ وكثرةِ النسلِ والنماءِ، الاستغفارُ مصدرٌ للعزةِ والمنعةِ.

اقرأوا إن شئتم في خبرِ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وفي خبرِ عادٍ الشدادِ مع نبيِّهم هودٌ عليه السلام: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ

---

(1) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٢ ـ ح٣٠٨٢) وقال: هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث، ولكن قد ورد من طريق آخر موقوفا على أبي موسى انظر المسند (٤/ ٣٩٣)، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من طوارق العذاب مادام بين أظهرهم فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ انظر تحفة الأحوذي (٨/ ٤٧٣).

﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ..﴾ [هود: ٥٢].

المستغفرون يمتِّعُهم ربُّهم متاعاً حسناً من سعةِ الرزقِ، وبسطِ الأمنِ، ومدِّ العافيةِ، ورغدِ العيشِ، والقناعةِ بالموجودِ، وعدمِ الحزنِ على المفقودِ.

بالاستغفارِ يبلغُ كلُّ ذي منزلٍ منزلتَه وينالُ كلُّ ذي فضلٍ فضلَه اقرؤا إن شئتم في خبرِ لنبيِّكم محمدٍ ﷺ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

في الاستغفارِ بإذن اللهِ الفرجُ من كلِّ همٍّ، والمخرجُ من كلِّ ضيقٍ، ورزقُ العبدِ من حيثُ لا يحتسبُ.

في الحديث: «**من لزمَ الاستغفارَ جعلَ اللهُ له من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسبُ**»[1].

أيها الإخوةُ: إنه ارتباطٌ صحيحٌ وقاعدةٌ مطردةٌ وسنةٌ من عندِ اللهِ ثابتةٌ، قاعدةٌ تقومُ على أسبابها من الارتباطِ بين الصلاحِ والبركةِ والحمدِ والاستغفارِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا

---

(١) أخرجه ابن نصر في قيام الليل (٣٨)، وأبوداود (١٥١٨)، وأحمد (١/٢٤٨)، والحاكم (٤/٢٦٢)، وابن ماجه (٣٨١٩) من طريق الحكم بن مصعب. قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تعليقه على سنن أبي داود: الحكم بن مصعب ذكره ابن حبان في الثقات وترجمه البخاري في الكبير (١/٢/٣٣٦) فلم يذكر فيه جرحا ولا تعديلاً. وانظر السلسلة الضعيفة للألباني رقم (٧٠٥).

عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن ما يورثُه الاستغفارُ والتوبةُ من طهارةِ القلبِ، ونقاءِ الضميرِ، وصلاحِ العملِ، وطمأنينةِ النفسِ، يزيدُ في القوةِ، واعتدالِ الصحةِ، وطيبِ النفسِ، واستدرارِ الخيراتِ، وتنزُّلِ البركاتِ.

وبهذا التوازنِ يكونُ المسلمُ وتكونُ الأمةُ ـ أمةُ التوحيدِ والعبادةِ والإنابةِ ـ تكونُ أمةً عاملةً منتجةً، جامعةً بين فعلِ السببِ وعقيدةِ التوكلِ والرضا بالأقدارِ.

عبادَ اللهِ: إذا كان هذا هو الاستغفارَ، وهذه دعوةَ ربِّكم، وهذا واسعَ فضلِه فكيف تكون المحاسبةُ والمراجعةُ؟؟.

يقولُ القرطبيُّ رحمه الله: قال علماؤنا: الاستغفارُ المطلوبُ هو الذي يَحِلُّ عُقَدَ الإصرارِ، ويثبتُ معناه في الجنانِ وليس التلفظَ بمجردِ اللسانِ، فمن استغفرَ بلسانِه وقلبُه مصرٌّ على معصيتِه فاستغفارُه يحتاجُ إلى استغفارٍ.

وقال بعضُ العارفين: من لم يكن ثمرةُ استغفارِه تصحيحَ توبتِه فهو كاذبٌ. والمستغفر من الذنبِ وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربِّه.

إن الاستغفارَ الحقَّ صدقٌ في العزمِ على تركِ الذنبِ، والانابةُ بالقلوبِ إلى علامِ الغيوبِ.

إن الخيرَ كلَّه معلقٌ بصلاحِ القلوبِ وقبولِ الإيمانِ وحينئذ يأتي الغفرانُ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومن أجلِ مزيدٍ من الايضاح والبيانِ ـ أيُّها الإخوةُ ـ فها هم أربابُ العزائِم وأهلُ الإيمانِ الخُلَّصُ يُكثرونَ من الاستغفارِ بعد ما يقدِّمون جليلَ الطاعاتِ.

فنبيُّكم محمدٌ ﷺ يقولُ: «**والله إني لاستغفر الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(١)] وإن عمرَ رضي الله عنه يقولُ: «إنْ كنَّا لَنعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحدِ مائةَ مرةٍ يقول: **ربِّ اغفرْ لي وتبْ عليَّ إنكَ أنتَ التوابُ الغفورُ**»[(٢)].

وبعد أن فرغَ عليه الصلاةُ والسلامُ من مهامِّ الرسالةِ وحقِّ البلاغِ أمره ربُّه أن يتوجَّه إليه تائباً مستغفراً: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

والمصلَّون إذا فرغو من صلاتِهم بادروا بالاستغفارِ، وحجاجُ بيتِ الله بعد الإفاضةِ من عرفاتِ والمشعرِ الحرام مأمورون بالاستغفارِ ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩].

وبعد الفراغِ من الوضوءِ وهو عبادةٌ تتحادرُ مع قطرِ مائِها الخطايا يتوجَّهُ المتوضىءُ إلى ربِّه بالتوحيدِ والتوبةِ: «**أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين**

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ١٠٤ ـ ح٦٣٠٧).

(٢) أخرجه أبوداود (٢/ ٨٥ ـ ح١٥١٦) وسنده صحيح، والترمذي (٥/ ٤٦١ ـ ح٣٤٣٤) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأحمد (٢/ ٨٤).

واجعلني من المتطهرين»[1].

أما المستغفرون بالاسحارِ فناهيك بهم ثمَّ ناهيك صلَّوْا ما كُتِبَ لهم من الليلِ ثم شرعوا يستغفرون: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

يقولُ الحسنُ رحمه الله: (مدُّوا الصلاةَ إلى السحرِ ثم جلسوا يستغفرون)، وكان ابنُ عمرَ يصلِّي من الليلِ ثم يقولُ لمولاه نافعٌ: (يا نافعُ: هل جاءَ السحر؟ فإذا قال: نعمْ. أقبلَ على الدعاءِ والاستغفارِ حتى يصبحَ).

السحرُ وقتُ غَفلاتِ الغافلين، والوسادِ العريضِ للنائمين، يتعرضُ فيه أربابُ العزائِم للنفحاتِ الرحمانيةِ والألطافِ الإلٰهيةِ والمنحِ الربانيةِ حينئذٍ تكونُ العبادةُ أشقَّ وأخلصَ، والنيةُ أدقَّ وأمحصَ.

المستغفرون بالاسحارِ نجاتُهم في مناجاتِهم، وصِلَتهم في صلاتِهم.

إذا كان الأمرُ كذلك أيها الإخوةُ فلتعلموا أن أعظمَ أسبابِ المغفرةِ وأهمَّها توحيدُ اللهِ وإخلاصُ العبادةِ له سبحانه والبعدُ عن الشركِ دقيقِه وجليلِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه مسلم دون قوله (اللهم اجعلني من التوابين..) (١/ ٢١٠ ـ ح٢٣٤)، والترمذي (١/ ٧٨ ـ ح٥٥) وقال: هذا حديث في اسناده اضطراب ولكن تعقبه الشيخ أحمد شاكر وذكر صحته فانظره فإنه جيد، وأحمد (٤/ ١٤٦)، وأبوداود (١/ ٤٣ ـ ح١٦٩) دون قوله (اللهم اجعلني...).

لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وفي الحديث **«يا ابن آدمَ لو أتيتني بقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرةً»**(١).

والغفرانُ مربوطٌ بحبِّ اللهِ وحبِّ رسولِه محمدٍ ﷺ المبرهنِ عليه بحسنِ الطاعةِ وصدقِ المتابعةِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

أيها الإخوةُ: هذا فضلُ اللهِ ورحمتهُ، وذلكم هو لطفُه بعبادِهِ، ولكن حذارِ أن يَفهمَ بعضُ الغافلين والمغفَّلين أن الإسلامَ، يدعو إلى الترخصِ المهلكِ أو يُقيْلُ العاثرَ الهابطَ المصرَّ المستكبرَ، إن الاصرارَ استمرارٌ على الذنبِ، وذلك معصيةٌ أخرىٰ، وإن القعودَ عن تداركِ الفارطِ من المعصيةِ إصرارٌ مذمومٌ.

يا هؤلاءِ كم خدعتْ نضرةُ الشبابِ، وكم غرتْ زهرةُ النَّعيمِ، وكم أضلَّ طولُ الأملِ حتى جاءَ أمرُ اللهِ بغتةً، فقَدِمَ المفرِّطُون على ما قَدَّموا، ولم يكن لهم آثارُ ندمٍ، ولم يبكوا على زلةِ قدمٍ.

فحاولْ يا عبدَاللهِ ما استطعتَ، وبادِرْ بالتوبةِ والاستغفارِ إن عثرتَ أو زلَلْتَ، فتكاثرُ المعاصي يجلبُ المآسيْ.

ولا يُكْثِرُ من الاستغفارِ إلا من أكثرَ التفكيرَ في أعمالِه، ونظرَ في مخالفاتِه، وكلَّما اشتد ندمُهُ زادَ مقتُهُ لنفسِه لما يرىٰ من قبحِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٦٨ ـ ح٢٦٨٧)، والترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه انظر تحفة الأحوذي (٩/ ٥٢٥ ـ ح٣٦٠٨) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥ ـ ح٣٨٢١)، وأحمد (٥/ ١٤٧).

زلتِـهِ، فهـو دائـمُ الهـمِّ، مشغـولُ البـالِ مـن خـوفِ ذي العـزةِ والجلالِ.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وبهدي محمد ﷺ، وهدانا صراطه المستقيم، وغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.

الاستغفار فضائل وآثار
(الإسرىٰ والمَسرىٰ)

الخطبة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عدوانَ إلا على الظالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ للناس أجمعين، صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله أصحابه والتَابعين لهم بإحسان، باتباعِهم وحسنِ اقتدائِهم كان لهم العزُّ والتمكين.

أما بعد فإن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ.

أيُّها المسلمون: إذا كانَ الغفرانُ مربوطاً بحبِّ اللهِ وحبِّ رسولِه محمدٍ ﷺ، وهذا الحبُّ برهانُه حسنُ الطاعةِ وصدقُ المتابعةِ، فلتعلموا أن المناسباتِ في تاريخِ الإسلامِ كثيرةٌ، وكلُّها أحداثٌ جسامٌ، وانتصاراتٌ لأهلِ الإسلامِ عظامٌ، يفرحُ بها كلُّ مؤمنٍ، وينشرحُ لها صدرُ كلِّ مسلم. من المولدِ والبعثةِ، والفتح والهجرةِ، وسائرِ الغزواتِ الفاصلةِ في تاريخِ هذه الأمةِ، من عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعهودِ أئمةِ الهدىٰ من بعدِه، ولم يكنْ من السنةِ ولا حسنِ المتابعةِ أن تُتَّخذَ عيداً يتحراهُ الناسُ ليفعلوا فيه

ما يفعلون تقرباً وتعبداً، صلاةً وصياماً، وصدقةً واعتماراً من غيرِ دليلٍ ولا مستندٍ.

وقد وقفتْ القرونُ المفضلةُ المشهودُ لها بالخيريةِ عندَ هذا الحدِّ، فلم تكنْ تَعْمدُ إلى إحياءِ ذكرىٰ الحوادثِ الإسلاميةِ، ولم تتخذ من الأيامِ الفاضلةِ أعياداً لها تخصُّها بتجمّعٍ أو تعبُّدٍ.

وإن حادثةَ الإسراءِ والمعراجِ من معجزاتِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ ومما عُلِمَ ثبوتُه من الدِّين بالضرورةِ، وشهرةُ ذلك في الكتابِ والسنةِ أعظمُ من أن تُذكرَ، ولكنَّ تحديدَ وقتِ وقوعِ هذه الحادثةِ بالسنةِ أو الشهرِ أو اليومِ مما اختلفَ فيه أهلُ العلمِ ونقلةُ الأخبارِ والسِّيَرِ اختلافاً كبيراً. وما كان هذا الاختلافُ إلا لما استقرَّ لدىٰ الصحابةِ والسلفِ الصالحِ رضوانُ الله عليهم من أن معرفةَ تاريخِ حدوثِ مثلِ هذه الوقائعِ لا يترتبُ عليه أمرٌ دينيٌّ، إذ المقصودُ هو الاعتبارُ والتأسِّيْ، وهذا غيرُ مرتبطٍ بزمنٍ، ولو رجعنا صادقينَ على أنفسِنا بالمحاسبةِ من هذه الحادثةِ فأيُّ ذكرىٰ نفهمُها من الإسرىٰ والمعراجِ، ومن نبي الإسراءِ والمعراجِ، ومن موطنِ الإسراءِ والمعراجِ؟؟.

إن ذِكرَ الأمةِ وشرفَ ذِكراها، وصِدْقَها مع مناسباتِها وأحداثِها وإحياءِ ذكرىٰ نبيِّها وأيَّامِه ومغازيِه لاتكونُ إلا برفعِ المنهجِ المحمديِّ شرعةً ومنهاجاً، ودعوةً وجهاداً، فمنهاجُ محمدٍ والحقُّ الذي جاءَ به محمدٌ هو الذي دكَّ حصونَ الأعداء وحطَّمَ قوىٰ المعتدين، هو الذي بسطَ العدالةَ على وجهِ الأرضِ، ونشرَ الأمنَ على البسيطةِ، وحفظَ الحقَّ لأهلِهِ.

أيُّ ذكرىٰ وأيُّ احتفالٍ وأيُّ احتفاءٍ ومسرىٰ الإسراءِ والمعراجِ مسلوبةٌ، والأرضُ المباركةُ من حولِه منهوبةٌ؟؟.

كيف دخلَ أجدادُكم بيتَ المقدس، لقد دخلوه حين كانوا في موكبِ أميرِ المؤمنين عمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه، لقد أقبلَ هذا الموكبُ العمريُّ المتواضعُ من أعماقِ الصحراءِ يتألَّقُ جبينُه من آثار شعاعِ الوحيِ الخاتمِ، وتمشي خطاه تحتَ راياتِ التوحيدِ ومعالمِ الشريعةِ.

هذا الرجلُ دخلَ بيتَ المقدس يتحركُ بخطواتِه المؤمنةِ مطرقَ الطَّرْفِ، خاشعاً لربِّه في رَحْلٍ رثٍّ، لسانُ حالِه يقولُ: (نحن العربَ كنا أذلَّ الناسِ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما ابتغْينا العزَّ في غيرِه أذلَّنا اللهُ)؟؟.

أيُّ ذكرىٰ وأي احتفالٍ؟؟ إنهم ما واجهوا الدنيا إلا بالقرآنِ، وما دانتْ لهم الرقابُ إلا بالقرآنِ، وما سُمِعتْ كلمتُهم ولا خضَعْت لهم الممالكُ إلا حين استمسكوا بالوحيِ، وما صحَّ لهم الذكرُ، وما صدقتْ لهم الذكرىٰ إلا بالقرآن ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤].

ولكنَّ أصحابَ القضيةِ لما تخلَّوا عن ذكرِهم، وكانوا عن ذكرهم معرضين، لم يغنهم احتفالٌ ولم يُجْدِ لهم احتفاء أنكرتهم الأرضُ، وتنكَّرَ لهم البشرُ، واستصغرتهم الدنيا، وقذفتْ بهم في ذيل القائمةِ.

أي ذكرىٰ يفهمُها هؤلاءِ من الإسراءِ والمعراجِ؟؟ ناهيكَ بمن

يحتفلون بأعيادِ الكفارِ[1]؟.

هل يعلمُ المسلمون وأبناءُ المسلمين أن معركتَهم مع أعدائهم هي معركةُ دينٍ وعقيدةٍ، ومعركةُ قيمٍ وأخلاقٍ.

لقد ستر الأعداءُ وجوهَهم الكاشرةُ بمحاوراتٍ غير منصفةٍ، وأخفوا أنيابَهم الكاسرةَ بمعاهداتٍ غير عادلةٍ، وصاغوا الغصْبِ والنهبَ بألفاظِ القانونِ ومصطلحاتِ الحقوقِ، سمَّوْا الاستعمارَ تمدُّناً، والغزوَ الفكريَّ تقدماً، والاغتصابَ انتداباً، وأنكروا بيعَ الرقيقِ، وأباحوا بيعَ الأوطانِ والشعوبِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

ألا فاتقوا اللهَ رحمكم الله وضعوا الأشياءَ مواضعَها، واحفظوا للأسماءِ معانيَها، فالسنةُ سنةٌ، والبدعةُ بدعةٌ، وسلفكُم الصالحُ العالمُ العاملُ وقفَ عند هذا الحدِّ، كانوا يعملون، وما كانوا يحتفلون.

والخيرُ قطعاً فيما ذهبوا إليه، والسلامةُ جزماً فيما نهجوا إليه، والصوابُ حتما فيما وقفوا عنده، والاقتداءُ بهم فيه سلامةُ الدِّينِ وصلاحُ العملِ، يقولُ عليه الصلاة والسلامُ: «**إنه من يعشْ منكم بعدي فسيرىٰ اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإيّكم ومحدثاتِ الأمورِ فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[2].

---

(١) تاريخ الخطبة يناسب أعياد الميلاد المسيحي.

(٢) أخرجه أبوداود (٤/ ٢٠١ ـ ح٤٦٠٧)، واللفظ له، وابن ماجه (١/ ١٦ ـ ح٤٢)، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٥/ ٤٤ ـ ح٢٦٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٧).

في البعث والنشور

الخطبة الأولى

الحمدُ للهِ نصبَ الكائناتِ على ربوبيتِهِ ووحدانيتِه براهينَ وحججاً، فمن شهدَ له بالوحدانيةِ وآمن بلقائِه واستعدَّ لمعادِه أفلحَ ونجا، أحمده سبحانه وأشكره وأتوبُ إليه وأستغفره، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ الحقِّ واليقين والخوفِ والطمعِ والمحبةِ والرجاءِ، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُه ورسولُه أنزل عليه الكتابَ ولم يجعلْ له عوجا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أنوارِ الهدىٰ ومصابيحِ الدجىٰ، والتابعينَ ومن تبعهم بإحسان ما نهار تجلَّىٰ وما ليلٌ سجىٰ.

أما بعدُ فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولتنظرْ نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتقوا الله إن خبيرٌ بما تعملون.

أيها الناسُ: تمرُّ الجنائزُ محمولةً على الرقابِ منقولةً إلى مثواها ومصيرها، تمرُّ في منظرٍ رهيبٍ، ومشهدٍ مَهيبٍ، تقشعرُ منه الأبدانُ، وترتجفُ له القلوبُ، ولكنَّ نفوساً أخرىٰ تمرُّ بها هذه المناظرُ فَتُلْقي عليها قليلاً من دموعٍ وعبراتٍ في نظراتٍ عابراتٍ، وربْما صاحبَ ذلك كآبةُ حزنٍ أو سحابة أسىٰ، ثم سرعانَ ما يطغىٰ على النفوسِ لهوُ الحياة فتنسىٰ ثم تنسىٰ، وتذهلَ ثم تغفلَ.

هل يظنُّ هؤلاء أن الموتَ نهايةُ الحياةِ؟؟ وهل يعتقدون أن سعيَ العالمينَ نهايتُه أن يُهالَ عليه الترابُ؟؟.

ذلكم هو ظنُّ الذين كفروا. إنهم الماديُّون والملاحدةُ، والكفارُ والزنادقةُ لا يرون في الموتِ إلا انتهاءَ قصة الحياةِ، لا يبقى عندهم بعدَ ذلك إلا أخبارُ تُروىٰ، وآثارٌ تُحكىٰ، والأخبارُ هذه مآلها النسيانُ، والآثارُ مصيرُها الاندثارُ:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤] ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [ألم السجدة: ١٠].

إنها المسألةُ الكبرىٰ بعد الإيمانِ باللهِ، والقضيةُ العظمىٰ بعد توحيدِ اللهِ، تكفَّلَ بها الوحيُ، وبرهنتْ عليها الكتبُ، وبلَّغتها الرسلُ.

إنه البعثُ والنشورُ، والخروجُ من الأجداثِ والقبورِ، والوقوفُ بين يديْ الكبيرِ المتعالِ للحسابِ والجزاءِ وعرضِ الأعمالِ، ثم المصيرُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ.

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ما من شيءٍ في دعوةِ رسلِ اللهِ استبعدَه الكفارُ وأنكرتْهُ الملاحدةُ واستهزأت به الزنادقةُ أشدُّ من انكارِهم لليومِ الآخرِ، فتراهم أجيالاً من بعد أجيالٍ من أُممِ الكُفرِ والإلحادَ ينكرون ويستهزؤن ويستبعدون، ولقد سجَّلَ القرآنُ الكريمُ افتراءَهم العظيمَ، وإفكَهم المبين: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن

يَمُوتُۚ﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٧] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧ - ٨] ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢ - ٣].

هذا هو افتراؤهم وهذا هو عجَبُهم؟؟.

ويتولَّىٰ القرآنُ الردَّ والبرهانَ، فحينما يتطاولونَ على الله بعنادِهم، وحينما يكشفون عن بلادتهم، يأتي الدليلُ ناصعاً بيِّناً، والحجةُ جليةً ظاهرةً: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧]، ثم تأتي الغيرةُ الإلهيةُ من خلالِ هذا القسم العظيم: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: ٦٨ - ٦٩].

ويأتي آخرُ ليرفعَ عقيرتَه مُتسائلاً: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٤٠] سبحانك فبلىٰ، سبحانك فبلىٰ، سبحانك فبلىٰ.

خلق آدمَ من عدمٍ، وخلقَ حواءَ من غيرِ أمٍّ، وخلق عيسىٰ بكلمة ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وقال له كنْ فيكونُ.

مساكينُ أهلُ المادةِ والإلحادِ ينساقون وراء ماديَّاتِهم ويَغْرقُون في دَناياهم في طيشٍ وغفلةٍ، محجوبون عن البَصرِ والتبصُّرِ، ثم يتساءلون: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النبأ: ١ ـ ٣].

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ [القيامة: ٥ ـ ٦].

وما كانت هذه النزعةُ الماديةُ النَّزِقَةُ التي تملأُ رؤوسَ هؤلاءِ وأشياعِهم وأشباهِهم إلا لاتباع الهوىٰ وتعطيلِ العقلِ: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ١٦] ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشورىٰ: ١٨] ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ: ٨].

يا هؤلاء: هل يُسيْغُ العقلُ أن ينفضَّ سوقُ هذه الحياةِ وقد نهبَ من نهبَ، وسرَقَ من سرقَ، وقتلَ من قتَلَ، وبغىٰ من بغىٰ، وتجبَّرَ من تجبَّرَ ثم لا ينالُ أحدٌ من هولاء عقابَه؟؟.

وهل يسيغُ العقلُ أن قوماً آخرين أحسنوا وأصلحوا وأنفقوا وجاهدوا ثم لا ينالون أجرَ ما قدَّموا؟؟؟.

ألأنهم كانوا صادقين مخلصين؟؟ ألأنهم كانوا مغمورين

متواضعين؟ **«إن كان في الساقةِ كان في الساقةِ وإن كان في الحراسةِ كان في الحراسةِ»**(1).

أم لأن الحسدَةَ والجبارين تَنكرَّروا لفضلهم؟ ووقفَ الظالمون في طريقِهم؟ آذَوا وعذَّبوا وشرَّدوا واضطَهدوا؟؟ هل يسيغُ العقلُ أن يبقىٰ المجرمون في أمنٍ وعافيةٍ وأمانٍ في العاقبةِ؟؟ لا وربِّك ثم لا؟؟ وكلاَّ وعزةِ الله وجلالِه ثم كلاَّ؟؟ لابدَّ من موقفٍ ويومٍ يُجزىٰ فيه المحسنُ على إحسانِه، والمسيءُ على إساءتِه، هذا هو نهجُ العقلِ والإيمانِ، والعلمُ والحكمةِ برهان ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١ ـ ٢٢].

ثم هذا الإنسانُ المكرَّمُ المفضلُ سَخَّرَ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وأسبغَ عليه نعمهَ ظاهرةً وباطنةً، هل يُعاملُ معاملةَ الترابِ والجمادِ؟؟ إن الحكمةَ تقتضي أن يُسألَ كما أُعطيْ، ويُحاسَبَ على ما عمِل وأنجزَ.

ثم ما الذي يُنكَرُ من عجائبِ البعثِ والنشورِ؟ يقولُ بعضُ علمائِنا المتقدمين رحمهم الله: (إيَّاكَ أن تُنكرَ شيئاً من عجائِبِ

---

(1) أخرجه البخاري (٦/ ٩٦ ـ ح٢٨٨٧).

يومِ القيامةِ لمخالفتِه قياسَ عقلِك ومحسوسَ إدراكِكَ!! فإنك لو لم تكنْ قد شاهدتْ عجائبَ الدنيا ثم عُرضتْ عليكَ قبل المشاهدةِ لكنتَ أشدَّ إنكاراً لها. وفي طبعِ الآدميِّ انكارُ كلِّ ما لم يأنسْ به).

ولقد قيلَ للكفارِ والمنكرين: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾ [الإسراء: ٥٠ ـ ٥١].

أيُّها الإخوةُ: إن الذين لا يؤمنون بالآخرةِ والذين يكذِّبون بيوم الدين يعيشونَ في بؤسٍ وشقاءٍ لا أملَ لهم ولا رجاءَ، لا يرجون عَدْلاً في الجزاءِ ولا عِوَضاً عما يلاقون في الدنيا من عناءٍ.

الذي لا يؤمن بيوم الحسابِ لا يعدُوْ نَظَرُه حياةَ الدنيا القصيرةَ القاصرة في حدود أرضِه الضيقةِ، ومسافة عمرهِ القصيرِ، فهو من ضيقٍ إلى ضيقٍ ومن بؤسٍ إلى مسكنةٍ.

لقد ضَلُّوا وأضَلُّوا، وما ضَلُّوا إلا بما نسوا يومَ الحساب، وما اجترأوا على حرماتِ اللهِ وأفسدُوا في أرضِ اللهِ، وما ظلموا وتظالموا إلا لأنهم كانوا لا يرجون حساباً.

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون: ١ ـ ٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾ [يونس: ٧ ـ ٨].

أما المصدِّقون بيومِ الدين، والذين هم من عذابِ ربِّهم

مشفقون، فاستقاموا على الحقِّ والتوحيدِ، ونبذوا الشركَ وأصلحوا عملَهم، وأخلصوا لربِّهم ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

يحملُهم إيمانهم باليوم الآخرِ والتصديقُ بلقاءِ ربِّهم؛ يحملهم على الصبرِ والتحملِ، والبذلِ والإحسان، لا يبتغون من أحدٍ غيرِ الله جزاءً ولا شكوراً ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الدهر: ٧ ـ ١١].

وما ثبتَتْ أقدامُ المجاهدين، ولا تبيَّنَتْ مواقعُ الشهداءِ إلا بمقدارِ إيمانهم بلقاءِ اللهِ وتصديقِهم بعظم جزائه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

أيها المسلمون، أيُّها الناس: وربِّ السماءِ والأرضِ لتخرُجنَّ من قبوركم ولَتُحشَرُنَّ إلى ربّكم ولَتُحاسَبُنَّ على أعمالِكم ولَتُجزَوُنَّ بما كنتم تعملون. لَتُجْزَوُنَّ على القليلِ والكثيرِ، والنقيرِ والقطميرِ وذلك على الله يسيرٌ.

يومُ البعثِ ـ أيها المسلمون ـ يومٌ مشهودٌ تعدَّدتْ أسماؤه لعِظَمِ أهوالِه وأعمالِه. فهو يومُ الحشرِ والنشورِ، ويومُ الفصلِ والقيامةِ، ويومُ الدين والحسابِ، يومَ ترجفُ الراجفةُ، تتبعُها الرادفةُ، حين تَحِقُّ الحاقَّةُ، وتقعُ الواقعةُ والقارعةُ، وتجيءُ الصاخَّةُ والطامَّةُ، يومَ الآزفةِ إذ القلوبُ لدى الحناجرِ كاظمين،

ذلك يومُ الخروج، يومُ تبلىٰ السرائرُ وتتكشَّفُ خبيئاتُ الضمائر، ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النحل: ٣٩].

وحينئذٍ يكون كلُّ إنسانٍ حسيبَ نفسِهِ ورقيبَ عملِه ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٤]. تشهدُ عليه صحائفُه، وتحكمُ عليه أعمالُه وتنطقُ عليه جوارحُه: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: ٦٥]. ﴿ شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢١]. ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحًا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ [التغابن: ٧ ـ ١٠].

في البعث والنشور

الخطبة الثانية

الحمد للهِ رفعَ قدرَ أولي العلم والإيمانِ فلم يغترُّوا بهذه الدارِ، جدُّوا وأخلصوا وأيقنوا أن الآخرةَ هي دارُ القرار.

أحمدُه سبحانه وأشكره على خيره المدرارِ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه النبيُّ المختارُ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه المهاجرين والأنصارِ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدينِ.

أما بعدُ فاتقوا الله عبادَ اللهِ، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى اللهِ، يومئذٍ تعرضون لا تخفىٰ منكم خافيةٌ، يومَ ينفخُ في الصورِ فتأتون أفواجاً حفاةً عراةً غُرلاً، في موقفٍ يُذيب هولَه الأكبادُ، تذهلُ فيه كلُّ مرضعة عما أرضعتْ، وتضع كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها، وترىٰ الناسَ سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ، يجمعُ اللهُ الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ يُسْمِعُهم الداعيْ، ويَنْفُذُهم البصرُ، يجمعُ الله فيه بين كلِّ عاملٍ وعملِه، وبين كلِّ نبيٍّ وأمته، ومظلوم ومظلمته: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧].

الأبصارُ شاخصةٌ، والشمسُ من الرؤوسِ دانيةٌ، قد علا أهلَ

الموقفِ العرقُ، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنةٍ، يفرُّ فيه المرءُ من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبتِه وبنيه، لكلِّ أمرىءٍ منهم يومئذٍ شان يغنيه، أهوالٌ شدادٌ، وأحوالٌ عظامٌ، تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ، فالسماءُ فرجتْ وكُشِطتَ وانشقتْ وفتحتْ فكانت أبواباً، والشمسُ كورتْ وخسفَ القمرَ وجُمعَ الشمسُ والقمرُ. والنجومُ انكدرتْ وطُمستْ وانتثرتْ، أما الأرضُ فسجرتْ بحارُها تسجيراً، ودكتْ جبالُها دكاً ونسفتْ نسفاً وسيرتْ فكانت سراباً، وزلزتْ الأرضُ زلزالَها، وأخَرجتْ أثقالَها، وحَدَّثتْ أخبارَها، وألقتْ ما فيها وتخلتْ.

ولقد سألتْ عائشةُ رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ «أين يكونُ الناسُ يومَ تُبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ قال: «**على الصراطِ**»، وفي حديث ثوبانَ«**أنهم يكونون في الظلمةِ دونَ الجِسْرِ**»[1].

وحينئذٍ يُحشرُ المتقونَ إلى الرحمنِ وفداً فنِعمَ الموفِدُ ونعمَ الوافدُون، ويساقُ المجرمون إلى جهنَّم وِردا ظَمْئاً عطشىٰ، يتمثَّلُ لهم السرابُ كالماءِ وما هو إلا الحرُّ والسعيرُ، والنارُ والزفيرُ، عياذاً باللهِ من غضبِه وأليمِ عقابِه.

ألا فاتقوا الله رحمكم الله، وأعدُّوا العُدَّة ليوم العرضِ والحسابِ وقراءةِ الكتابِ، وجوازِ الصراطِ، وإثقالَ الميزانِ فالساعة آتيةٌ لاريب فيها لا تأتيكم إلا بغتةً، ولا يجليها لوقتِها إلا اللهُ جلَّ جلالَه.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢ ـ ح٣١٥).

الفهرس

الموضوع	الصفحة